

مركز دراسات الوحدة العربية

الجالية العربية في بريطانيا

أعمال المؤتمر الثالث الذي نظمه النادي العربي في بريطانيا

أنجان غوبتا — عبد الإله توفيق — كارولين نخل
جواد النوّاب — عبد الجليل الشايف — كريس دويل
رغيد الصلح — غادة الكرمي — محمد المسيبي
صباح المختار — غسان كاريان — ميسون الشرفا
عادل بشتاوي — نهى حريحي

الجالية العربية في بريطانيا

أعمال المؤتمر الثالث الذي نظمه

النادي العربي في بريطانيا



مركز دراسات الوحدة العربية

الجالية العربية في بريطانيا

أعمال المؤتمر الثالث الذي نظمه النادي العربي في بريطانيا

أنجلان غوبتا
جواد النوّاب
رغيد الصلح
صباح المختار
عادل بشتاوي
عبد الإله توفيق
عبد الجليل الشايف
غادة الكرمي
غسان كاريان
كارولين نخل
كريس دويل
محمد المسيبي
ميسون الشرفا
نهى جريجي

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

الجالية العربية في بريطانيا: أعمال المؤتمر الثالث الذي نظمه النادي العربي في بريطانيا/ أنجان غوبتا... [وآخ.].

٢١٥ ص.

يشتمل على فهرس.

ISBN 9953-431-20-5

١. بريطانيا - الجاليات العربية. ٢. العرب - بريطانيا. أ. غوبتا، أنجان. ب. النادي العربي في بريطانيا. ج. مؤتمر الجالية العربية في بريطانيا (٣:١٩٩٩: لندن).

305.8927042

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء - بيروت ٢٠٩٠ ١١٠٣ - لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ - ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» - بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى
بيروت، أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢

المحتويات

القسم الثاني:
الأوضاع الاقتصادية للجالية العربية في بريطانيا

القسم الثالث:
المشاركة في الحياة السياسية البريطانية

القسم الرابع:
تنظيم الجاليات العربية وتمويل نشاطها

مقدمة

ضياء الفلكي(*)

من نحن؟ ولماذا نحن هنا؟ وهل سنعود الى بلادنا؟ وإلى أن نعود، ماذا يتعين علينا عمله؟

وان لم نعد.... فهل نتقوقع على حالنا أم نندمج في المجتمع الجديد الذي نحن فيه؟

هذه الأسئلة كلها طرحها المغتربون العرب - أفراداً ومنظمات- منذ أن بدأت الهجرة الى الغرب تزداد بوتائر متسارعة في العقود الأخيرة من القرن العشرين. وإذا كان بحث هذه الأسئلة يجري بين الأفراد في بداية الأمر، ويحاول كل منهم إيجاد الحلول الملائمة له ولعائلته، إلا انها بمرور الوقت أصبحت موضع اهتمام المنظمات العربية، ومن ثم أصبحت موضوعات المهاجرين من أهم القضايا التي تشغل بال المسؤولين في الاتحاد الأوروبي، سواء على مستوى الحكومات أو الأحزاب، حيث إن هذه الهجرات أصبحت عاملاً مؤثراً في البنية السكانية، علاوة على أن الخدمات الاجتماعية للمهاجرين أصبحت أرقاماً واضحة في ميزانيات المؤسسات العاملة في هذه الميادين.

انطلقت الهجرة إلى الغرب بدافعين اثنين، أحدهما اقتصادي والآخر سياسي. فكلما ساءت الأوضاع الاقتصادية في الوطن العربي واضطرب حبل الأمن، شاهدنا موجات جديدة تنزح إلى الغرب باحثة عن الأمن ولقمة العيش، بعيداً عن الحروب والاضطهاد والحرمان. وهذا ما كان واضحاً وجلياً

(*) رئيس اللجنة التحضيرية لمؤتمر الجالية العربية في بريطانيا.

في نوع الهجرات منذ اندلاع الحرب الأهلية في لبنان في أواسط السبعينيات، مروراً بحربي الخليج الأولى والثانية والحرب الأهلية في الصومال واضطرابات الجزائر. ولم تقتصر هذه الهجرات على بلد عربي واحد أو على شريحة اجتماعية واحدة، بل شملت أرجاء الوطن العربي كافة بدرجات متفاوتة، وحملت معها مزيجاً من كل الطبقات الاجتماعية - من أدنى مراتب السلم الاجتماعي الى أعلاه - وكذلك حملت معها خيرة العقول والكفاءات ورؤوس الأموال العربية.

لقد أطر المغتربون العرب أنفسهم في عدد من التنظيمات الثقافية والاجتماعية والمهنية بهدف تلبية حاجاتهم المتنامية في هذه المجالات. وكان من أهم هذه التنظيمات النادي العربي في بريطانيا الذي تأسس في عام ١٩٨٠ كمنظمة ثقافية اجتماعية خيرية، وواصل عمله منذ ذلك الحين وحتى هذا التاريخ بأسلوب ديمقراطي وبأداء متميز، مما جعله موضع احترام وتقدير الغالبية العظمى من الأفراد والمنظمات، وأهّله للعب دور قيادي للعمل العربي في بريطانيا، وأصبح مرجعية للجالية العربية في علاقاتها مع المؤسسات البريطانية الرسمية ومنظمات المجتمع المدني.

وقد أدرك النادي العربي منذ تأسيسه أهمية العمل المنظم، المتصف بالصدقية والاستمرارية، المنطلق من قراءة دقيقة لواقع الجالية العربية والمجتمع البريطاني المحافظ. كما أدرك النادي العربي عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، لذلك حرص على المساهمة الواسعة للأفراد والمنظمات في نشاطاته مستفيداً من كل القدرات الذاتية والإمكانيات والموارد المتاحة مهما كانت ضئيلة، فعمل على الاتصال بكل النشطاء والمهتمين بالشؤون العربية، مدنيين ورسميين، فوجد تجاوباً مع أفكاره وتشجيعاً لأعماله من منظمات الجالية العربية كافة، ومن مكتب جامعة الدول العربية ومجلس السفراء العرب، ومجلس تعزيز التفاهم العربي - البريطاني، وبذلك تحقق تلاحم عز مثيله بين الجانبين الرسمي والشعبي للوجود العربي في بريطانيا.

من هذا التلاحم انطلقت فكرة مؤتمرات الجالية العربية في بريطانيا، فانعقد المؤتمر الأول في مباني كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٩٠ تحت شعار "الجالية العربية في بريطانيا: همومها واهتماماتها". وقامت دار رياض الريس للنشر بطبع مختارات من أوراق هذا المؤتمر باللغة الانكليزية، ويعتبر هذا الكتاب المتوفر في المكتبات من أهم

المراجع عن الجالية العربية. وبعد مرور ثلاث سنوات عُقد المؤتمر الثاني في قاعات الإمبريال كولدج في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٣ بعنوان "من أجل بلورة أطر الجالية العربية ورسم برنامج عملها المشترك"، وقد تم في هذا المؤتمر تشكيل المجلس الاستشاري للجالية، وجمع النادي العربي أوراق المؤتمر كافة في ملفات خاصة ووزعها على المعنيين بهذا الأمر.

لقد كان هذا المؤتمر تظاهرة كبرى لم تقتصر على الجانب الأكاديمي من بحوث ودراسات، وانما صاحبتها معارض وفعاليات، وجرى خلاله تكريم رؤساء مجالس الشرق الأوسط في الأحزاب البريطانية الرئيسية الثلاثة لجهودهم المخلصة في إظهار الحق العربي. ومضت ست سنوات من العمل المثمر للجالية العربية تمثلت فيه برامج المؤتمر الثاني عملياً في مناح شتى، وجرى الإعداد لمؤتمر جديد ليكون قفزة نوعية نحو مشاركة الجالية فيّ الحياة العامة البريطانية وتعزيز دورها ثقافياً واقتصادياً وسياسياً، وهذا ما تحقق لها في مؤتمرها الثالث الذي انعقد في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٩، والذي وضع الركائز لمجلس الجالية العربية الذي سيكون ممثلاً لها وناطقاً باسمها.

إن التعاون بين مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) والنادي العربي (لندن) يمتد إلى سنوات طويلة، حيث بدأ في منتصف الثمانينيات بسلسلة محاضرات مشتركة، واستمر التعاون الى يومنا هذا على مستويات عدة. وما هذا الكتاب الذي بين أيديكم إلا ثمرة لهذا التعاون الهادف الى إلقاء الضوء على الجاليات العربية في المهجر، وتفعيل دورها في المشروع النهضوي الحضاري العربي. فشكراً للمركز ومديره العام الدكتور خير الدين حسيب وللعاملين فيه كافة الذين ساهموا في ترجمة بعض بحوثه، وأشرفوا على طباعته وإخراجه.

إن بحوث هذا الكتاب مستوحاة من واقع حياة الجالية العربية في بريطانيا، ولكنها بالتأكيد تعبّر الى حد كبير عن واقع معظم الجاليات العربية في الاتحاد الأوروبي، ونأمل أن يمهد هذا الكتاب لعقد مؤتمر قادم للجالية العربية في أوروبا بعدما زالت الحدود بين دولها وهي سائرة قدماً نحو توحيد تشريعاتها.

وفي الختام أتوجه بجزيل الشكر لجميع الباحثين الذين تبرعوا بإنتاجهم الفكري، ولجميع من ساهم في أن يرى هذا العمل النور.

كلمـــات الافتتـــاح

(١)

عيسى صالح القرق(*)

أصحاب السعادة، أيها السيدات والسادة

إنه لمن دواعي غبطتي بصورة خاصة أن دعيت للتحدث إليكم اليوم، وذلك لسببين: أولهما انني أستطيع بهذا أن أعبر عن الاهتمام والدعم اللذين يستعد زملائي السفراء العرب ومكتب جامعة الدول العربية في لندن، لأن يقدموهما لأهدافكم. وثانيهما أن أقول لكم إلى أي مدى أرحب شخصياً بالمهمة التي حددتموها بأنفسكم لخلق بيئة تستطيع فيها الجالية العربية في بريطانيا أن تؤدي دورها الكامل والمناسب في حياة البلد الذي تعيشون فيه الآن.

إن مهمتكم لن تكون سهلة. وأعتقد أنه من الجوهري أن تدركوا بوضوح ومن البداية أنه يتوجب عليكم أن تكونوا متهيئين لأخذ مكانكم في المجتمع بوصفكم بريطانيين، وليس كأجانب أو كمجرد عابرين. يتوجب عليكم أن تكونوا مستعدين لتبذلوا طاقاتكم وأن تقدموا التزامكم بالمساهمة في رفاهية وتطور المجتمع الذي اخترتم العيش فيه. إنني لسعيد أن برنامجكم يعترف بدور «العرب البريطانيين»، فإذا كنتم تريدون حقاً أن تصبحوا جزءاً من هذا المجتمع، فهذه هي الكيفية التي ينبغي أن تفكروا بها في أنفسكم.

وانه ليسرني بصفة خاصة أنكم تدركون بوضوح أن واحدة من أكثر مهماتكم فورية أن تؤدوا دوركم في الحياة السياسية لهذا البلد. ولن يكون هذا أمراً يسيراً، ولكنه حيوي. فلا بد أن تهدفوا إلى تبوّؤ المكانة ذاتها في الحياة البريطانية على نحو ما تفعل الجاليات الأخرى، وغالباً بنجاح باهر،

(*) عميد مجلس السفراء العرب، وسفير دولة الإمارات العربية المتحدة.

وهو أمر لدينا نحن العرب سبب خاص لمعرفته. لقد قبل البريطانيون منذ مئات السنين في وطنهم أناساً من كافة الأمم والمعتقدات؛ ويقول البريطانيون أنفسهم إن مجتمعهم قد أثراه إدماج أناس من ثقافات وخلفيات مختلفة ساهموا بالكثير في الشخصية المتميزة لهذا البلد. وإنني لعلى ثقة من أنكم لستم بحاجة لأن تعطى لكم أمثلة، مع ذلك فإنني أحثكم على النظر فيها والتعلم منها.

إنكم إذ تحددون المسار الذي تبنيتموه إنما تصنعون استثماراً كبيراً في المستقبل. ويتعين عليكم ـ شأن الجاليات الأخرى التي سبقتكم ـ أن تهدفوا إلى تقديم أبنائكم وبناتكم وكذلك أولادهم لمستقبل هذا البلد بأن تؤمّنوا أن توفر جاليتنا أطباء وعلماء وفنانين وكتاباً وسياسيين ورياضيين ورجال أعمال قادرين على أن يؤدوا دورهم في نمو المجتمع البريطاني في السنوات التالية. فسوف يساعدكم هذا أيضاً في التغلب على القوالب النمطية التي تتعرض لها كل جماعات الأقليات.

لقد سرني أنكم قررتم أن تبرزوا في مؤتمركم في عطلة نهاية الأسبوع هذه أعمال الفنانين العرب الذين يعيشون في هذا البلد. فإن من الحيوي أن تحافظوا على ثقافة التراث العربي الذي تعدون أنتم حرّاسه، لكي تسلموها بدوركم إلى الأجيال القادمة.

إنكم إذ تفعلون هذا تساهمون، ليس فحسب في مجد التراث العربي والإسلامي، إنما تقدمون فوائد عظيمة للمجتمع الذي ستصبحون باطراد جزءاً مهماً وحيوياً منه. . . ولتتذكروا أنه في الغالب ليس أيسر من التواصل مع شعب ذي تراث ثقافي مختلف عبر وسائل الشعر والفنون البصرية والموسيقى.

وفي الختام اسمحوا لي بأن أتقدم بكلمة نصح واحدة. لا تحاولوا أن تنجزوا كل شيء دفعة واحدة. ركزوا على ما هو أهم لديكم، على الأهداف المباشرة أكثر من غيرها، أنجزوها وبعدها اتجهوا إلى الأولوية التالية. بهذه الطريقة ستحققون في النهاية كل ما تسعون لإنجازه.

إنني أتمنى لكم كل النجاح في مداولاتكم وفي إنجاز الأهداف التي حددتموها لأنفسكم.

(٢)

ابتسام أوجي(*)

سيداتي وسادتي

نيابة عن النادي العربي في بريطانيا ولجنته التنفيذية وأعضائه وعن نفسي، أود أن أرحب بكم جميعاً في مؤتمر الجاليات العربية الثالث... مع ترحيب خاص بالسيد كيث قاز عضو البرلمان ووزير الدولة للشؤون الأوروبية ممثلاً الحكومة البريطانية... وبصاحب السعادة السيد عيسى صالح القرق عميد السفراء العرب في لندن.

سيداتي وسادتي

حينما نعقد هذه المؤتمرات للجاليات العربية في بريطانيا العظمى... البلد الذي تبناه البريطانيون من أصل عربي... وحين نحدد أهدافاً مثل... **المشاركة بالكامل وبنشاط في الحياة السياسية البريطانية... وتعزيز وعي الجيل الجديد من العرب في بريطانيا بتراثهم الثقافي وتمكينهم من التحدث بلغتهم،** فإننا إنما نهدف إلى **بناء جسر** للتعاون بين الثقافة الغربية المتقدمة علمياً والثقافة العربية والإسلامية، وإلى **تجنب صدام** بينهما.

هنا، في هذا المؤتمر، أود أن أعرب عن امتناننا للشعب البريطاني والحكومة البريطانية اللذين جعلا من الممكن لنا أن نعيش وأن نصبح جزءاً من هذه الديمقراطية العظيمة، وأن نتمتع بكافة مزاياها من الحرية والثقافة والتعليم والفنون والاقتصاد الحر.

(*) رئيسة النادي العربي في بريطانيا.

سيداتي وسادتي

عُقد المؤتمر الأول للجاليات العربية في عام ١٩٩٠ لتحديد **شواغل وآفاق الجاليات العربية في بريطانيا**، وعقد المؤتمر الثاني للجاليات العربية في عام ١٩٩٣ فركز على **إطار للتعاون والتنسيق بين منظمات الجاليات العربية**. وشكل **مجلس استشاري** وكذلك لجنة متابعة لمراقبة وتشجيع تنفيذ توصيات المؤتمر. وقد أدى كل عضو دوره أو دورها. لهذا أقدم خالص شكري على مساهماتهم.

وهذا المؤتمر الثالث ينظر في وسائل حفز الجاليات على زيادة مشاركتها في النشاطات التي يمكنهم أن يؤدوا فيها أدواراً أنشط في الحياة الثقافية والاقتصادية والسياسية لبريطانيا العظمى.

وهنا أود أن أرى بين قرارات هذا المؤتمر قراراً بتشكيل **لجنة تنسيق** لكي تربط وتنسق نشاطات الجمعيات المتعددة للجالية العربية، وأطلب من ممثلي هذه الجمعيات أن يشكلوا هذه اللجنة وأن يجعلوها فعالة في كل التقسيمات الاقليمية. ولسوف يحمل النادي العربي في بريطانيا على كاهله الجانب الأكبر من هذه المسؤولية، كونه نصيراً ورائداً في هذا المجال.

إن من شأن مثل هذه اللجنة أن تساعد في خلق جمعيات جديدة على نطاق قومي، والتقريب بين الجمعيات المتعددة وتمكينها من القيام بنشاطات مشتركة، وتناول المشكلات والمسائل المشتركة على نحو أكثر فاعلية.

علاوة على هذا، فإن من الواضح أن الجاليات العربية في بريطانيا تملك **قوة اقتصادية مهمة**، وحتى الآن فإننا لم نجهّز هذه القوة حتى تجعلنا لاعبين فعالين ذوي نفوذ اقتصادي في هذا المضمار.

يتوجب علينا أن نعطي هذا الجانب انتباهاً أكبر ودراسة أعمق إذا أردنا أن نكون مشاركين نشطين في الحياة العامة البريطانية، وآمل أن يسفر هذا المؤتمر عن أفكار رائدة في هذا الصدد.

أود أن أشكر جميع من عملوا لجعل هذا المؤتمر واقعاً، سواء كانت مساهمتهم فكرية أو تنظيمية أو مادية.

شكراً لكم.

(٣)

غيث الأرمنازي(*)

أحضر اليوم للمرة الثالثة مؤتمر الجالية العربية، فقد شاركت في المؤتمر الأول كعضو في الجالية، وألقيت فيه ورقة حول الحضور العربي الاقتصادي والتجاري في المملكة المتحدة. وفي المؤتمر الثاني تحدثت ـ كما أفعل اليوم ـ مرتدياً القبعة الرسمية العربية ذاتها. لهذا فإنه من الممكن أن يقال إن القبعة تطالب بملكية الرأس، ولكن لا بد لي أن أعترف بأن قلبي يبقى حيث كان دائماً، ممتد الجذور بقوة في هذه الجالية.

لقد تحدث زميلي، عميدنا الموقَّر للسفراء العرب، عنا جميعاً نحن أعضاء السلك الدبلوماسي العربي. ولا أستطيع ـ كممثل لجامعة الدول العربية ـ سوى أن أضيف أن التزامنا بجاليتنا العربية، بالجالية بأسرها أياً كانت أصولها الجغرافية، هو شيء نتمسك به بقوة. مع ذلك فإن من المثير للشفقة أن مصادرنا لا تسمح لنا غالباً بأن نبلغ فعلاً المرمى الذي نستطيع عنده أن نبني نوع الجسور التي نحب أن نراها تتشكل. وهذا هو السبب في أننا ننظر إلى هذا النوع من التجمع باعتباره مفيداً للغاية.

بطبيعة الحال، فإن جدول أعمال المؤتمر غني ومتنوع، وقد لا يكون من حقي أن أحدد أو أن أبرز ميادين معينة من النشاط على حساب أخرى. مع ذلك فإن أولئك الذين يعرفونني يدركون اهتمامي الخاص: إنه تحويل القدرة الكبيرة ـ التي تتجسد بلا شك في الجالية المتعددة المواهب والمتنوعة، والمترابطة معاً رغم هذا ـ إلى نفوذ عملي وقدرة حيث يكون ذلك مهماً في مختلف

(*) رئيس بعثة جامعة الدول العربية في لندن.

نواحي المجتمع البريطاني العريضة.

إننا من أصحاب الإنجازات الفائقة في كثير من المجالات، مثلاً في المهن، في الطب والاقتصاد والأعمال والمشاريع، وفي الأدب وأخيراً حتى في الرياضة؛ ولكننا دون ذلك حينما يتعلق الأمر ببلوغ مراتب عليا من القوة السياسية والاقتصادية والإعلامية والثقافية.

وثمة ملاحظة أخرى أعتقد أنها جديرة بالانتباه: دعونا لا نستسلم - كما فعلنا في الماضي - لإغراء تبني قائمة طويلة من التوصيات غير الواقعية. أفضل كثيراً - في رأيي المتواضع، أن نركز على عدد محدود من الأهداف التي يمكن بلوغها، حتى إذا ما اجتمعنا ثانية نستطيع أن ننظر إلى الوراء راضين بتقدمنا.

وعلى الرغم من أننا كبعثة جامعة الدول العربية سجلت لنا مشاركتنا في تنظيم هذا الاجتماع، دعوني أصحح السجل بأن أعلن أن دورنا كان دوراً متواضعاً اقتصر على الدعم المعنوي. إنما صاحب الفضل الحقيقي هم المنظمون الفعليون، أعني اللجنة التحضيرية. إنني أنوه بهذه اللجنة ورئيسها السيد ضياء الفلكي الذي تستحق جهوده التي بذلها بلا كلل نيابة عن جاليتنا، احترامنا وإعجابنا.

وأوجه شكراً خاصاً أيضاً إلى السيدة ابتسام أوجي رئيسة النادي العربي على تفانيها في خدمة مهمة إطلاق هذا المؤتمر.

أتمنى النجاح لكم جميعاً في مداولاتكم، آملاً أن تمكننا من أن نبني على نتيجة هذا الحدث المهم، وأن نساعد في إطلاق ذلك القطاع من المجتمع البريطاني الذي يمكن أن نطلق عليه «العرب البريطانيين».

(٤)

ضياء الفلكي

أصحاب السعادة، السيدات والسادة

أشكر لكم جميعاً قبولكم دعوتنا لحضور هذا المؤتمر الثالث للجاليات العربية.

إنني أرحب بكم جميعاً أحر ترحيب.

هناك على مدى اليومين التاليين عدة مهام يتعين علينا بذل الجهد لتنفيذها حتى نحقق أهداف المؤتمر ونضمن بلوغ أهدافه، وكلها أهداف موجهة نحو دعم وتعزيز دور الجالية العربية داخل بريطانيا على كافة المستويات، على المستوى الثقافي والمستوى الاقتصادي والمستوى السياسي.

إن أولى هذه المهام أن نحاول وأن نتناول مسألة الهوية الثقافية. وقد بيّن مسح جرى أخيراً عن «العرب البريطانيين» تبايناً ملحوظاً في الكيفية التي ينظر بها إلى أنفسهم الناس ذوو التراث العربي الذين يعيشون في هذا البلد. بعضهم يرى نفسه كمجرد «عرب»، وآخرون باعتبارهم «مغاربة أو مصريين أو يمنيين، الخ». وبعضهم رأى نفسه مسلماً، بينما آخرون اعتبروا أنفسهم بريطانيين عرباً، وهكذا. مع ذلك، وبغض النظر عن الكيفية التي ينظر بها كل منهم إلى نفسه، وبغض النظر عن أي لافتة أو علامة يريدون أن يضعوها على أنفسهم، فإن ثمة شيئاً واحداً مؤكداً. إن أولئك الذين جرى عليهم هذا المسح ـ وهم جميعاً حقاً «عرب بريطانيون» خبروا ـ أو يخبرون الآن ـ تراثاً مزدوجاً. فهم خاضعون للثقافة العربية/الإسلامية والحضارة الغربية على السواء. ومن الواضح أن كل واحد يعيش في المجتمع البريطاني محكوم بالحضارة الغربية بالدرجة الأولى، ولكننا لا بد أن نطرح السؤال: ما هي

الفرص المتاحة لـ «العرب البريطانيين» ليتعلموا عن وطنهم الأصلي، ليتعلموا عن ميراث آبائهم وليتعلموا ـ بالطبع ـ لغتهم الأم؟ حقاً، يتوجب علينا أن نسأل: مسؤولية مَن تأمينُ حصولهم على هذه الفرص؟

كذلك يتوجب علينا أن نفحص مسألة اندماج العرب في المجتمع البريطاني. ان عملية الاندماج هذه متعددة الأوجه، حيث توجد حوافز لتسريع العملية من ناحية وتوجد عقبات تبطئ سرعة العملية من ناحية أخرى. كذلك فإن من المهم أن نلاحظ أن الأجيال المختلفة تنظر إلى العملية بطرق متباينة على نحو ما تفعل قطاعات مختلفة من المجتمع البريطاني. هذه المسائل المتعلقة بالاندماج والهوية الثقافية ستناقشها المجموعة النقاشية الأولى.

أما المجموعة النقاشية الثانية فستستطلع العوامل الاقتصادية ذات العلاقة بالنسبة إلى كل العرب البريطانيين وإلى الجالية العربية في بريطانيا العظمى ككل. وهذه منطقة لم يسبق أن بحثت ولكن من غير الممكن إنكار أهميتها. إن الروابط والعلاقات التجارية بين البلدان العربية وبريطانيا العظمى هائلة، إذ تقدر بنحو ١٢ مليار دولار قيمة التجارة الثنائية المتبادلة في عام ١٩٩٧ وحده، وطبقاً لبعض التقديرات فإن الاستثمارات العربية في هذا البلد تربو على مائة وخمسين مليار دولار. وهذا جانب واحد من المعادلة. وعلى الجانب الآخر، هناك التعقيبات التي تصدر من وقت لآخر والتي تزعم أن العرب الذين يعيشون في بريطانيا يشكلون عبئاً على الخدمات الاجتماعية البريطانية. هذه المسائل جميعاً تحتاج لأن تُفحص، وأن يتم التوصل بشأنها إلى استنتاجات وتوصيات.

وستجتمع اليوم المجموعة النقاشية الثالثة لتركز على الدور الذي يؤديه العرب في الحياة السياسية البريطانية. إن من الواضح في الوقت الحاضر أن العرب الذين يعيشون في هذا البلد منفصلون جداً عن المشهد السياسي البريطاني مع وجود جماعة ضغط (لوبي) عربية واحدة فقط في بريطانيا العظمى اليوم. وهذه الجماعة الضاغطة الوحيدة هي مجلس دعم التفاهم العربي البريطاني الذي شُكل في عام ١٩٦٧. مع ذلك فإن معظم أعضائه بريطانيون مع عدد قليل من العرب يؤدي دوراً نشيطاً داخل المنظمة.

ولقد ظهرت مؤخراً دعوة إلى إنشاء مجموعة عربية داخل كل حزب سياسي رئيسي، والمأمول أن تثمر هذه الدعوة. مع ذلك فإن هذا تحرك جديد ويتعين علينا أن نواصل طرح الأسئلة، لماذا نحن خائفون من الشروع في هذه

المهمة؟ وما الذي يمكن أن نجنيه إذا أصبحنا نشطين سياسياً؟

هذه المناطق الثلاث التي أبرزتها ـ الهوية الثقافية، والوضع الاقتصادي والدور السياسي المقترح ـ كانت هدفاً لباحثينا، وهم سيعرضون نتائج أبحاثهم عليكم في وقت لاحق اليوم.

وبالإضافة إلى هذا ستكون هناك حلقة نقاشية رابعة خاصة، ستفحص بعض الأفكار بشأن مستقبل الجالية العربية وتكوينها وبرامجها. وستبذل جهدها لاستطلاع نماذج متباينة من البنية السياسية التي يمكن أن تدعم وتعزز التعاون والتنسيق بين مختلف المنظمات العربية والروابط والجمعيات. وستلقي أيضاً نظرة على أفضل السبل لتأمين تمويل برنامج منسق.

خلال السنوات الستّ التي مضت منذ انعقاد المؤتمر الثاني للجاليات العربية وقع كثير من التطورات في داخل الجالية العربية، وزاد التفاعل والاندماج في المجتمع البريطاني. ظهرت منظمات جديدة مثل الجمعيات العربية المحلية العاملة في بلديات تتعاون بنجاح مع السلطات المحلية. كذلك أقيمت جمعيات مهنية عربية، للمحامين والمصرفيين والأطباء والمهندسين. ومن ثم فقد أنجز الكثير، ولكن حلماً كبيراً واحداً لا يزال ينتظر التحقيق هو مشروع «البيت العربي». هذا المشروع الذي من شأنه أن يقيم قاعدة مادية فعلية من النشاطات التي يمكن توجيهها هو بحاجة ماسة إلى مزيد من الدفع حتى يمكن للحلم أن يصبح حقيقة.

إنني أعرف أن برنامج اليومين التاليين كثيف، ولكنني على ثقة من أنه سيكون سارًا وممتعاً في الوقت نفسه. ويرجع هذا، إلى حد كبير، إلى اللجنة التحضيرية للمؤتمر التي أدت عملاً طويلاً وشاقاً لتؤمّن لاجتماعاتنا اليوم وغداً أن تكون مثمرة. كما يرجع إلى العمل الشاق والساعات الطويلة التي تطوع بها ناشطون وفنانون وموسيقيون وباحثون وغيرهم.

وأخيراً فإنني أود أن أحيي إخلاص الشبان العرب لقضيتنا وأرحب وأعرب عن إعجابي بمشاركتهم في هذا المؤتمر. وأحثهم على أن يأخذوا زمام المبادرة في المستقبل بعقد مؤتمر للشباب العربي في الاتحاد الأوروبي.

مرة أخرى أشكركم على حضوركم، وأثق بأن اليومين التاليين سيشكلان تحدياً وسيكونان غزيرين بالمعلومات، وفوق كل شيء سيكونان بمثابة مكافأة.

المشـاركـــون

ابتسام أوجي	رئيسة النادي العربي في بريطانيا.
أنجان غوبتا	ناشط في حزب الأحرار الديمقراطيين ـ لندن.
جواد النوّاب	باحث اجتماعي.
رغيد الصلح	كاتب لبناني مقيم في لندن.
صباح المختار	رئيس جمعية المحامين العرب.
ضياء الفلكي	رئيس اللجنة التحضيرية لمؤتمر الجالية العربية في بريطانيا.
عادل بشتاوي	كاتب صحافي.
عبد الإله توفيق	رئيس المنتدى العراقي ـ لندن.
عبد الجليل الشايف	مدير تربية مقاطعة شفيلد.
عيسى صالح القرق	عميد مجلس السفراء العرب، وسفير دولة الإمارات العربية المتحدة.
غادة الكرمي	رئيسة الجالية الفلسطينية ـ لندن.
غسان كاريان	عمدة بلدية هامر سميث ـ لندن
غيث الأرمنازي	رئيس بعثة جامعة الدول العربية في لندن.
كارولين نخل	باحث شؤون الأقليات.
كريس دويل	مدير الإعلام في مجلس تعزيز التفاهم العربي ـ البريطاني.

محمد المسيبي	مسؤول التنمية الاجتماعية الأسبق لدى السلطة المحلية لمنطقة طدلي ـ وسط غرب انكلترا، والمدير التنفيذي بأمانة معاذ الخيرية في برمنغهام سابقاً.
ميسون الشرفا	المسؤولة الإعلامية في مكتب فلسطين ـ لندن.
نهى جريج	اختصاصية في الشؤون التربوية.

القســـم الأول

الهوية الثقافية للعرب البريطانيين

الفصـــل الأول

اللغة والهوية الثقافية: فرص تعليم اللغة العربية

نهى جريج(*)

العلاقة بين اللغة والهوية الثقافية تحتل اليوم مكاناً بارزاً بين الموضوعات التي يبحثها الاختصاصيون وعلماء النفس واللغات والاجتماع. وعلى سبيل المثال، فإن جمعيّة علم النفس البريطانية (The British Psychological Society) خصصت مؤتمرها السنوي العام سنة ١٩٩٩ للأبحاث التي تدور حول هذا الموضوع. ومن الأمور المسلَّم بها أن هناك ارتباطاً طبيعياً بين اللغة التي يتكلمها أفراد أي فئة أو جماعة معينة، وبين هوية هذه الجماعة وانتمائها. فمن خلال اللهجة، أوالمفردات، أو الأسلوب المتبع في الحديث، تظهر هوية المتكلم ويمكن، بالتالي، أن يصنف كواحد من أهل هذه اللهجة أو تلك، أو كفرد من هذه الجماعة أو غيرها. ثم إنه من المفترض، في الحالات المثلى، أن يستمد المتكلم، من خلال شعوره بالانتماء إلى الجماعة، قوة وسنداً واعتزازاً، وأن يتولد لديه إحساس بالأهمية الاجتماعية والتواصل التاريخي من خلال استخدامه اللغة نفسها التي توارثها هو والجماعة التي ينتمي إليها[1].

ويتعدد الباحثون الذين تفرغوا لدراسة علاقة الفكر باللغة وعلاقة اللغة بمدى الفاعلية والاندماج في المجتمع وأيضاً بمستوى الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد. والواقع أن علماء اللغة، في الغرب على الأخص، طالما شددوا على أن اللغة إنما هي «أداة للفكر» أو، على حد قول المفكر والشاعر

(*) اختصاصية في الشؤون التربوية.

(١) Claire Kramsch, *Language and Culture*, Oxford Introductions to Language Study (Oxford, OX: Oxford University Press, 1998), p. 65.

الألماني الكبير غوته، فإن اللغة «هي الأرضية الأولية للتدرج إلى فهم الفلسفة والقانون واللاهوت»[٢]. أما الباحثون في علم الاجتماع فقد انطلقوا إلى تحليل كل من اللهجة، والنطق، وقوالب التفكير الجاهزة، والتعابير، والأمثال، إذ من خلالها تتكشف شخصية المتكلم ومكانته الاجتماعية ومدى مقدرته على التفكير. فاللغة، كما يقول الباحث الأمريكي إدوارد سابير (Sapir)، «دليل إلى الواقع الاجتماعي»[٣] فالفرد لا يعيش في العالم الراهن الواسع فقط، ولا في عالم النشاط الاجتماعي ـ بالمعنى العام المتعارف عليه ـ وحده، ولكن مسار حياته يقع، إلى حد كبير، تحت رحمة اللغة والتعابير التي اعتاد أن يستخدمها ضمن بيئته ومجتمعه المحلي. والكلام، على حد قول كازدن، هو «أداة الاختلاط والتنشئة الاجتماعية (Socialisation) وهو الوسيلة التي بواسطتها يصبح الأولاد أعضاء مؤهلين ومُعدين إعداداً كاملاً في المجتمعات التي ينتمون إليها»[٤].

ولا شك في أن المقدرة على التفكير المنطقي المنظم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمقدرة اللغوية والفهم الجيد لأبعاد الكلام ومدلولاته. وسواء ثبتت صحة ما توصل إليه سابير من أن اللغة تقرر مسار التفكير والقدرة عليه إلى مدى بعيد، وهي النظرية المعروفة بالحتمية (Determinism)[٥]، سواء ثبتت صحة هذه النظرية في كل المجتمعات عموماً أم لم تثبت، فالواضح أن اللغة تتيح لمن يشاء أن يُدخلنا في مجتمع معين أن يعلمنا حقائق ومفاهيم معينة، وأنها كذلك، تتيح لجيل ما أن ينقل بواسطتها ثقافته ومفاهيمه إلى الجيل الذي يليه.

من هنا نحن مطالبون بالعمل على تعليم لغتنا العربية لأجيالنا في الموطن الثاني. وأنى لنا أن ننقل إليهم تراثنا في الفلسفة والقانون والفقه أو اللاهوت إذا قنعنا من تعليمنا لغتنا لهم بالمحكي اليسير؟

في كثير من بلدان العالم اليوم جماعات عرقية كبيرة لغاتها الأم غير لغة

---

(٢) المصدر نفسه.

(٣) Edward Sapir, *Selected Writings in Language, Culture and Personality*, edited by David G. Mandelbaum (Berkeley, CA: University of California Press, 1949), p. 162.

(٤) C. Cazden, «Socialisation,» in: *The Encyclopedia of Language and Linguistics*, editor-in-chief R. E. Asher; coordinating editor J. M. Y. Simpson. 10 vols. (Oxford; New York: Pergamon Press, 1994), p. 4004.

(٥) R. A. Hudson, *Sociolinguistics*, Cambridge Textbooks in Linguistics, 2nd ed. (Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 1996), p. 91.

الدولة الرسمية. الهنود الحمر في أمريكا مثلاً، أو أهل ويلز في بريطانيا، بل ان معظم الدراسات التي تناولت علاقة اللغة المحكية بمكانة الفرد والجماعة في المجتمع الأوسع هي دراسات قام بها دارسون متحدرون من هذه الجماعات، أو هي تناولت جوانب من الحياة الاجتماعية التي تحياها هذه الفئات من المواطنين. وفي ضوء هذه الدراسات يأتي التفات أهل الإدارات العامة وأهل الدولة إلى أهمية ازدواجية اللغة (Bilingualism) لدى هؤلاء المواطنين، وإلى ضرورة تمكين هذه الفئات من الحفاظ على لغاتها الأم، وتوفير ما يلزم من وسائل التعليم والتنمية من أجل تنشيط هذه الجماعات وتعميق مساهماتها في الحياة العامة. من هنا أيضاً يأتي التزام الحكومات الديمقراطية، وبخاصة حكومة بريطانيا اليوم، بالعمل على اجتذاب هذه الجماعات كي لا تبقى على هامش الحياة الاجتماعية والسياسية العامة، والإفساح في المجال أمامها لإبداء الرأي والمشاركة في صنع القرار.

هناك أيضاً، في عدد من بلدان العالم اليوم، جاليات كثيرة مهاجرة «متحدرة» من أصول عربية، أو غيرها.

أفراد مثل هذه الجاليات هم عادة أبناء الجيل الثالث، أو الرابع، من أولاد الذين استوطنوا في تلك البلاد. ونحن العرب الموجودين في بريطانيا اليوم نختلف عن أمثال هذه الجاليات في أمرين:

أولاً: أن معظمنا مولود في بلاد عربية وجيلنا هو الرعيل الأول الذي استقر في هذه البلاد.

ثانياً: أننا هنا، في بريطانيا، قريبون نسبياً من بلدان الشرق الأدنى وشمال أفريقيا التي قَدِم منها معظمنا، وأن الاتصال الفعلي والمباشر مع من بقي من أهلنا في هذه البلدان ما زال مستمراً بوسائل شتى: الصحف والتلفزيون والهاتف والسفر وحتى الانترنت.

ثقافة المتعلمين منا، من أبناء هذا الرعيل، ثقافة ذات عمق مزدوج، أو هي، على الأقل، مزدوجة اللغة (Bilingual).

وازدواجية اللغة هي بالضرورة دلالة على المهارة والحذق والطلاقة اللغوية التي لدى الفرد. وانطلاقاً من إيماننا، نحن المتعلمين الذين يجيدون اللغتين، بضرورة توفير فرص المعرفة والرقي والمساهمة في الحياة العامة، كاملة، لأجيالنا في الموطن الثاني، وإذا نحن حقاً أردنا تنمية المهارات التي

تتلازم مع ازدواجية اللغة، نجد أننا مطالَبون بالعمل على توفير فرص تعلم اللغة العربية لأهلنا وأولادنا على كل صعيد.

والجالية العربية في بريطانيا، وبخاصة من خلال النادي العربي، خطت، في الواقع، خطوات راسخة في مجال توفير المدارس لتعليم اللغة العربية، وناقشت في مؤتمرها السابق الصعوبات التي تواجهنا في هذا السبيل. يبقى، في المرحلة الحالية، أن نغتنم فرصة استعداد دوائر التربية والإدارات العامة الآن لتوفير الكتب ووسائل تعليم اللغات الأم للجاليات المستوطنة، من خلال المدارس والمكتبات العامة، حسب رغبة وطلب هذه الجاليات، وذلك في ضوء الأبحاث العديدة الحالية كما أشرنا، وأيضاً بوحي وتشجيع من الحكومة المركزية التي تعلن أنها تسعى لتحقيق العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص للجميع.

نغتنم، إذاً، هذه الفرصة **أولاً** للطلب من الحكومات المحلية والمؤسسات، توفير الكتب وغيرها من وسائل تعليم اللغة العربية؛ **وثانياً** لحث جالياتنا العربية على الاستفادة من هذه المواد متى وحيث توفرت.

وتبقى، هاجسنا والمهمة الموكولة إلينا أفراداً وجماعات، الطرق والأساليب التي نستطيع بها حث أبنائنا واخواننا على الإقبال على تعلم اللغة العربية والاستفادة من الكتب والصحف التي تؤمنها المكتبات العامة والمدارس وغيرها وعلى تنمية قدراتهم على التكلم والكتابة باللغة العربية. ولست أرى إليها مدخلاً إلا من خلال توسيع قاعدة النشاط الاجتماعي فيما بيننا والتقارب مع البالغين والكبار، والإفساح أكثر في المجال لهم للمشاركة في نشاطاتنا.

هذا هو المدخل. وإني أقترح، قبل الإفساح في المجال للأسئلة والتوصيات، أن تكون توصياتنا اليوم على محورين:

ـ **الأول**: ماذا فعلت أنا وماذا أستطيع أن أفعل من أجل تحسين تعليم العربية في الجماعة التي أحيا بينها؟

ـ **الثاني**: ما الذي نستطيع نحن أن نقوم به في المنطقة التي نحن فيها، وماذا يستطيع النادي العربي أن يقوم به من أجل تنشيط تعليم اللغة العربية وزيادة فرص تعلمها أمام الراغبين؟

الفصــل الثانــي

«ازدواجية التراث»: تجربة عربية ـ أوروبية

جواد النوّاب(*)

ملاحظـة شخصيـة

ازدواجية التراث(١) ليست موضوعاً جديداً أو حديثاً بالنسبة إليّ، والمقدمة موضوعة عن قصد كسيرة ذاتية. وهذا العرض متولّد عن خبرتي الشخصية كحامل ازدواجية تراث عراقي ـ بريطاني. إنه موضوع درستُه وكتبتُ حوله في موقع آخر(٢)، ولكن الأكثر أهمية من ذلك هو أنني أعيش هذه الازدواجية. لقد أصغيتُ خلال حياتي إلى قصص وشاركتُ فيها مع أفراد آخرين لهم خبرة ذات صلة بالموضوع. وقابلت بالتحديد خلال الأشهر العديدة الماضية رجالاً ونساء من ذوي التراث المزدوج، ومعظمهم من أب عربي أو بريطاني. وورشة العمل جاءت ذروة لهذه العملية.

الأهـداف

الهدف الرئيسي لهذه الدراسة هو هدف «استطلاعي»: الإصغاء وإعادة

(*) باحث اجتماعي.

(١) يشير عنوان هذه الدراسة إلى «ازدواجية التراث». انظر الملحق (أ) من هذه الدراسة للاطلاع على الشرح والمصطلحات الوصفية المتعلقة بهذا الأمر، ص ٤٨.

(٢) امتد الموضوع لأتمم تقريراً بحثياً قصيراً، وقد تناولت خلاله مقابلتين مهمتين بشأن «ازدواجية التراث البريطاني ـ العربي». انظر: J. Al-Nawab, «My Journey Home,» *Melting Pot*, vol. 2, no. 2 (1997), pp. 22 - 23.

عرض الأصوات المسموعة. وهذه الأصوات ـ كما سنتبين فيما بعد ـ إما لم تكن مسموعة أو عندما قُدمَت، قُدمت لتبدو بشكل كبير كمشكلة وحاملة أزمة. لقد حاولت أن أكون عادلاً مع هذه الأصوات. ولا يمكنني إلا أن أدّعيَ أن هذا السرد «يتحدث» عن ظروفي وتجربتي الشخصية الخاصة، وأريد أن يُنظر إلي كمتحدث عن ازدواجية تراث للعرب البريطانيين، كفئة اجتماعية كاملة، إلا أنني بقولي هذا آمل أن لا أقلّل من صلتها بالموضوع.

ويُؤمل في النهاية أن تحفز على التأمل والبحث والنقاش، ليس فقط حول تجربة ازدواجية التراث بل أيضاً حول كيفية تأثيرها في الهويات الأوسع لأولئك الذين يدّعون هوية «آمنة» ناصعة. وهذه المواضيع الأوسع تشمل الولاء للجماعة وشعورنا بالانتماء والانتساب وكذلك المؤسسات والممارسات والأنظمة المعنيّة.

وهذا العرض مقسّم إلى أربعة أجزاء. الجزء الأول يقدم خلفيّة ومقدمة للدراسة، والجزء الثاني يوفّر عقلانية منهجية ويعطي تفاصيل عن الأشخاص الذين جرت مقابلتهم. والجزء الثالث يقدم الموضوعات التي استقيتها من حكاياتهم. والجزء الرابع والأخير تأملي، ويثير بعض الأسئلة ذات الصلة.

أولاً: الخلفية

التعريف المستعمل للهوية يشير إلى السيرورة المركزية في عهدَي الطفولة والمراهقة. وهو يشير في الأساس إلى إحساس الشخص بالانفرادية والتفرديّة. وهذه السيرورة مستمرة طوال فترة البلوغ وتكوين الشخصية. ويُنظر إليها كمهمة تنمويّة مهمة. وقد أوجزها أحد الذين جرت معهم مقابلات بقوله: «الهوية هي حول أن تكون جزءاً من شيء آخر. أنت تريد أن تكون شخصية متطورة ولكن تريد في الوقت نفسه أن تشعر بأن هنالك... الكثير منك من المحيط بك».

«العرق» أو «العنصر» مُعرّفة كمسجّل مهم للهوية. وهي حاسمة بالنسبة إلى إحساسنا الشخصي بما ننتمي إليه[٣]. وقد تشكل هذه أحياناً تحديات رئيسية للفرد الذي يجب أن يؤكد هويته أو هويتها المتفردة ضمن ذلك المجتمع. وقد حظيت الهوية العرقية باهتمام متزايد في السنوات الأخيرة.

(٣) S. Hall, *New Ethnicities*, ICA Documents; 7 (London: [n. pb.], 1988).

والمجتمع البريطاني مصنّف بتنوع «عرقي» و«عنصري» مشترك مع موجات الهجرة التي تمت بعد الحرب العالمية الثانية من مستعمرات سابقة وأصبحت بعد ذلك بلدان كومونولث وأعضاء في الاتحاد الأوروبي.

والهوية «العنصرية» أو «العرقية» ـ وهي المحور الرئيسي لهذه الورقة ـ ليست خفيّة. والهويات تتشكل عن طريق عناصر أخرى قوية مثل الجنس والطبقة الاجتماعية والعمر والنواحي الجنسية والمكان وما شابه. وإحدى الصعوبات هي العملية الاصطناعية ـ نسبياً ـ لفصل هذه العناصر لأغراض هذا البحث.

واهتمامي في هذه المنطقة، كما سبق وذكرت، شخصي. وهو ينسحب علي، ويطور عملاً سابقاً لي. إلا أن السيرة الذاتية ليست هي وحدها التي حفزت على هذا الاهتمام ومواصلته. فثمة حوافز أخرى موجودة بوضوح وجديرة بالملاحظة.

إن الأبناء العرب البريطانيين من زواج مختلط و«ازدواجية تراث» ليسوا بالأمر الجديد على هذه الجزر. فهنالك على سبيل المثال قصص موثوقة عن بحارة يمنيين ـ أقدم جالية عربية في بريطانيا ـ تزوجوا من نساء بريطانيات في مطلع القرن الفائت، ومع ذلك ـ وبوجود الصعوبات في الوصول إلى تقدير دقيق لأعداد العرب البريطانيين ـ بإحصاءات تتراوح بين أقل من مائة ألف ونصف مليون، يكون من المستحيل الوصول إلى رقم للأفراد ذوي «التراث المزدوج» البريطاني ـ العربي في بريطانيا اليوم.

وجدير بالاهتمام أن هنالك مؤشرات إلى أن أعداد العرب البريطانيّين ذوي التراث المزدوج لا يمكن تجاهلها. **أولاً**، لأن الأشخاص ذوي «الأبوة المختلطة» و«التراث المزدوج» آخذون بالازدياد بالمعنى العددي البحت[٤]. **وثانياً**، تفيد التقارير أن الزيجات العرقية المختلطة بين بريطانيين وآسيويّين آخذة بالازدياد[٥]. **وثالثاً**، تقول دراسة حديثة عن المصريّين في بريطانيا أن نحو

---

(٤) قد يظهر هذا الأمر بصورة أوضح باقتراح إدخال فئة «العنصر المختلط» في إحصاء عام ٢٠٠١.
انظر: I. Lloyd, «2001, a «Race» Odyssey,» (Demonstration Radio Tape).

(٥) Madood, *Ethnic Minorities: Diversity and Disadvantage* ([London]: Policy Studies Institute, 1998).

ثلث خمسة وخمسين مصرياً جرت مقابلتهم كانوا متزوجين من بريطانيات(٦).

وربما يثير الدهشة غياب عمل منشور عن العرب في بريطانيا(٧) وبالتحديد حول العرب البريطانيين ذوي «التراث المزدوج» و«الأبوة المختلطة»(٨). والسبب في هذا ليس واضحاً، ولكن الحقيقة تظل في ما كُتب حول تشتت العرب في بريطانيا. وتأمل هذه الورقة أن تبدأ بصورة مصغّرة في إزالة هذه «الضبابية».

لقد أصبحت الهوية والسياسات المرتبطة بها قضية معقدة ومتغيرة، وبخاصة في السنوات الثلاثين الأخيرة، ولا يزال هناك ميل في الأدبيات لتصوير أفراد «التراث المزدوج» باعتبارهم «هامشيّين» «ومشوّشين» نفسياً، ويعود حافزي للرد على هذا، في جزء منه، إلى كونه فرصة لاستطلاع وعرض تفهم بديل لخبرة «التراث المزدوج» ودخائلها في تحدّ للأنماط السلبية السابقة.

ثانياً: المنهجيـة

كان الاتصال الذي قمت به مع المساهمين عن طريق جماعات الجالية العربية والمعارف الشخصية.

والمقاربة التي تبنيتها في المقابلات كانت مقارنة ذات بنية مرنة. وقد استخدمتُ نموذج المقابلة ذا النهاية المفتوحة والهادف إلى درجة من تلقائية

---

(٦) G. Karmi, *The Egyptians of Britain: A Migrant Community in Transition*, Occasional Paper; no. 57 (Durham, NC: University of Durham, Centre for Middle Eastern and Islamic Studies, 1997).

(٧) M. Al-Rasheed: «Invisible and Divided Communities,» paper presented at: *Selected Papers Presented at the One-Day Conference on Arab Communities in Britain: Concerns and Prospects: Held on Saturday 6th October 1990 at University of London, School of Oriental and African Studies*, organised by the Arab League and the Arab Club of Britain (London: Riad El-Rayyes Books, 1991), and «The Other-Others: Hidden Arabs?,» in: Office of Population Censuses and Surveys, *Ethnicity in the 1991 Census* (London: Her Majesty's Stationery Office, [1996-]).

(٨) Iman Hashim, «Mixed up or Just Plain Mixed? An Examination of the Construction of Identities in Individuals of Mixed Heritage as a Means of Exploring Debates around Multiple Subjectivities,» (Discussion Paper, University of Leicester, 1996).

ولقد اكتشفت فقط وجود هذا الأمر بعد إنجاز البحث وهذه الدراسة، ولذلك فإن النتائج بكل أسف لم تتضمنها هذه المناقشات.

التبادل. وهدفتُ إلى تشجيع جو تخاطبي مريح أقرب منه إلى السرد القصصي. وعلى سبيل المثال يوجّه إليّ المشاركون وخلال المقابلات أسئلة حول تجربتي التي شاركتهم فيها، وكان هذا جزءاً لا يقدر بقيمة للعمل الذي نقوم به. والمواضيع التي غطّتها المقابلات كانت متنوعة[٩]. وكل المقابلات باستثناء واحدة منها سُجلت على أشرطة. وتمّ من ثم الاستماع إلى الأشرطة بهدف تنظيم المواد تحت عناوين بحسب الموضوع.

تم إكمال سبع مقابلات، استغرقت كل منها ساعة على الأقل، وجرى الحوار بأكمله باللغة الانكليزية.

وكان المشاركون منوّعين. تراوحت أعمارهم من ٢١ إلى ٤٦ سنة. وكانت ست من أصل المجموعة من النساء، وواحد من الرجال[١٠]. كما أن اثنين كانا لا يزالان من الطلاب، والباقون موظّفين. أما أصول آبائهم العرب فقد شملت مصر والعراق وليبيا والسودان ولبنان والأردن. وكان ستة من أصل السبعة عرباً مسلمين، وخمسة من السبعة الذين جرت المقابلات معهم كانوا يحملون أسماء عربية واضحة.

وقد تنوعت اتصالاتهم مع الثقافة العربية. أمضى اثنان منهم الجزء المبكر من حياتهما في بلد عربي، وغادر اثنان بلديهما وهما في العقد الثاني من العمر، وترعرع أحدهم في جالية تتكلم العربية خارج الوطن العربي، وقضى واحد طفولته وعقده الثاني في البلد الأصلي.

كذلك اختلفت طلاقتهم في تكلم العربية. وكانت العربية اللغة الأم لاثنين من الذين جرت المقابلات معهم. ووصف اثنان آخران نفسيهما بأنهما يتحدثان العربية بطلاقة. أما الباقون فلم يكونوا طلقاء في التحدث بالعربية على الرغم من أن بعضهم تعلمها في الطفولة. وتحدثوا جميعهم بالانكليزية.

ثالثاً: المواضيع

هذا القسم يعرض جوهر المقابلات المكتملة. وقد نظمت الاستشهادات

(٩) انظر الملحق (ب) من هذه الدراسة للاطلاع على لائحة الموضوعات التي تناولتها المقابلة. وهذه الموضوعات تم تناولها بصورة سطحية فقط، ص ٤٩.

(١٠) كان من المفترض مقابلة عدد أكبر من الذكور، لكن اثنين منهم لم يقدما أي معلومات لأسباب خاصة. وفي كل الأحوال فإن الدراسة المذكورة سابقاً تضمنت مقابلة مع رجل عربي - بريطاني، وقد كانت تحتوي على معلومات مستفيضة. انظر: Al-Nawab, «My Journey Home».

بحسب المواضيع، وأُدرجت بحيث تمثل أو توضح كل موضوع، وعلى الرغم من أن هذا كان انتقائياً، فقد حرصت على البقاء وفيّاً للآراء والمشاعر والجو العام المعرب عنها خلال المقابلات. وشكلت المواضيع الأولية تركيزاً أكثر على التوترات المتصلة بالموضوع، بينما وفرت تلك التي قُدمت في ما بعد تجربة أكثر إيجابية وجزماً لكون المرء ينتمي إلى «تراث مزدوج».

الأوصاف الذاتية

كيف وصف هؤلاء الذين قابلتُهم أنفسهم؟

ـ «لقد كنت دائماً مدركاً بأني نصف سوداني ونصف انكليزي، وهذا هو الشيء الوحيد الذي عرفته».

ـ إذا كنت تريد أن تضع اصبعك على الأمر بكلمة واحدة فسأقول على الأرجح إنني مسلم. وإذا بدأتُ في شرح ما أظن ما هو كل هويتي، فمن الأسهل أن أقول الإسلام».

ـ «لا أعرف، إنه لأمر صعب في الحقيقة. إنني أقول عادة أنا نصف انكليزي، وهذا بالمعنى البيولوجي... ولكنني أشعر بأني مجرد نفسي، وانني لست في الحقيقة أي شيء بالتحديد».

ـ «هذا أمر محير، أحب أن أفكر بنفسي ككائن بشري وأنا أصف نفسي، وإن كنتُ لا أشعر بالراحة دوماً مع وصف «مختلط العرق» لأن هذا هو الشيء الأكثر فائدة ويفهم الناس بوجه عام ما أعنيه بذلك. والصورة الماثلة في فكرهم هي نصف بيضاء ونصف سوداء، مع أني أعرف أن العرق المختلط لا يتعين أن يكون كذلك، وإذا سأل الناس من أين أتيت؟ أميل إلى القول انني نصف سوداني ونصف انكليزي. وإذا كان لي أن أسجل نفسي فأنا أسجل «عرق مختلط».

(وقد تحدث الجميع عن أمر مشترك وهو سؤالهم عن أصولهم أو أعراقهم. فمع الوقت أصبح الأمر مزعجاً وينطوي على تطفل نوعاً ما).

ـ «في الحقيقة، يصبح الأمر مزعجاً نوعاً ما عندما يترتب عليك أن تخبر كل واحد قصة حياتك».

«... لقد مللتُ في الحقيقة من قول... اسمي عربي وأنا لا أشعر بأني انكليزي لأنني لم أترعرع هنا، ولا أشعر في الحقيقة بأنني مصري مائة

بالمائة لأني لم أعش في مصر. إنني أشعر نوعاً ما بأني عربي لأنني أعرف اللغة والثقافة وتلقيتُ التعليم في العربية السعودية لفترة من الوقت، ولأن تعليمي كان ببساطة إسلامياً، بذلك المعنى فإنني لا أشعر بأني شخص انكليزي بالمعنى العادي»... «وحتى وإن لم أتحدث عن ذلك فالناس تسأل من أين أنت؟ ومن الضروري دائماً تقديم تفسير».

ـ «أشعر مضطراً لقول أشياء لا أريد بالضرورة قولها... وأنا أشعر ولكني على الأرجح لا أريد ذلك حقاً... جزء مني لا يريد ذلك».

ـ «إنه شيء اعتدت أن أكرهه حقاً»، وبدرجة كبيرة. ولكني لا أستطيع أن أغضب مع الناس لأنهم لا يدركون بأن كل شخص آخر يسألني عن هذا الأمر، انه شيء عليّ أن أتعامل معه وهذا ما عزمت عليه».

ـ «(بابتسامة) تجد أنك تريد مساعدة الناس بإعطاء تفسير... ولكني أشعر بأنه لا يترتب على الناس الآخرين إعطاء تفسير. وأشعر بشكل ما أنه لا يترتب عليّ إعطاء شرح ولكن يجب أن تفعل ذلك لأنه يثار دائماً ويثار في النهاية..».

«لكن الناس يتحدونني دائماً حتى اليوم. وحتى عندما أقول انني من عرق مختلط تجد شخصاً يتحداني بالقول: «نعم ولكن...».

آراء الآخرين بنا

موضوع آخر أقل وضوحاً كان التجربة المشتركة بإساءة وضع العرقية أو التغاضي عنها. ويبدو هذا وكأنه نتيجة للصفات الطبيعية مثل البشرة ونوع الشعر وتقاطيع الوجه وما شابه. والفرد منا لا يبدو عربياً ولا انكليزياً بصورة نمطية. وقد تكرر تأثير هذه الصفات عن الكيفية التي بها يُنظر إلى ذوي «التراث المزدوج» في هذه المقابلات.

ـ «لقد كانوا يحسبونني غالباً إيطالية أو اسبانية.. وليس أبداً عربية».

ـ «الناس يدعونني بأشياء متعددة».

ـ «أجد من الممتع أن الناس لا يمكنهم أن يحزروا من أين أنا. لقد كانت تُطلق عليّ صفات كثيرة، آسيوي، فلسطيني، لبناني، عراقي، ولكن أحداً لم يقل إني سوداني أو بريطاني. إنهم لا يقدرون على مجرد تحديد موقعي،

لقد سألني أحدهم في الأسبوع الماضي إن كنت من الهند ـ وهذا أمر جديد بالنسبة إلي!».

«إنهم يظنون هنا بأني آسيوية، وليس لدي أي شيء ضد أن أكون آسيوية ولكن من المزعج أنهم لا يعرّفونك بما هو أنت».

ـ «أحب أن أفكر بوالدي كعربي وقد أبلغت أمي بذلك ذات يوم، ولكنها قالت لي إنه افريقي. . . وأظن أن التعريف العربي واسع جداً وانك إذا قلتَ عربي فإن الناس يظنون انك سعودي. . . والناس يتوقعون شخصاً لون بشرته أفتح كثيراً. . . وهذا لا يفكر به معظم الناس عندما تكون عربياً. .».

ـ «أظن انهم يجدون من الصعوبة رؤية من أنا. . . وأظن أن كل واحد يرى الأمر مربكاً، وأنا أحاول أن أساعد الناس على الخروج من هذا الارتباك. . . انه لأمر صعب في الواقع».

ـ «ان الأمر يعتمد على بيئتهم. . . بعض الناس يظن أني من باكستان، أو الهند ـ وعندما أكون في مصر ـ يظنون أني من مصر. . .».

وإذا كان الانطباع الأول عن ملامحك يشير إلى قسمات بريطانية، فإن للنظر إليك كبريطاني نتائج مختلفة. وكانت التجربة في هذه الحالة في جزء منها تجربة شفافية، تجربة افتُرض فيها أن يكونوا بريطانيّين «بيضاً» وهو افتراض طبيعي، لعدم وجود تعبير أفضل. وهذه «الشفافية» تظهر في صور متعددة. وكأن أحد أوجه هذا الأمر تجربة أن تكون موضوعاً لحديث «عنصري» غالباً ما يؤدي إلى الغضب. السيناريوهات من تجارب الماضي:

«لقد تعرضت دائماً لهذه التجربة مع سائقي التاكسي وأشخاص بريطانيون يقولون لي أموراً عنصرية على افتراض انني أبيض، لأن ملامحي انكليزية ويتوقعون مني أن أتفق معهم، ولكنني في الحقيقة أشعر بغضب فعليّ بهذا الشأن».

واستعادت إحدى النساء لقاء لها مع جارة انكليزية كانت تُبدي آراءَ حول الآسيويّين ـ البريطانيّين وحول أطفال الزواج المختلط، وتصف هؤلاء بأنهم سبب الجريمة.

«. . . ووجدتني أتساءل وماذا عني أنا! ويمكن أن يكون هذا مؤلماً أحياناً. كأنك تكاد تكون شفافاً. . . نعم هي لم تكن تفكر بي كشخص من

عرقين. وهذا ينفي جزءاً من ذاتك».

ووصف آخرون تجربة مختلفة لكون لون بشرتهم داكناً كيف كانوا موضوع كلام وسلوك عنصري مكشوف. وكما لاحظنا كان يُفترض أن بعضهم آسيوي.

لقد اعترفوا جميعاً بأن أوصافهم الذاتية، إلى حد ما، كانت مؤطّرة بنظر الآخرين وسلوكهم، بمحيطهم المباشر والناس الذين يعيشون معهم. وكان شعور البعض بهذا أقوى من الآخرين.

«نعم إذا كنت أكثر اختلاطاً بالعرب... وعندما أتكلم العربية، أغيّر كيفية كلامي في التحدث مع العرب والأشياء التي أقولها... نوعاً ما».

«أصف نفسي كعربي ويتعلق الأمر بمن أتحدث إليهم إن كان سودانياً، أقول «سوداني» وإن كان عربياً أقول «عربي» وإن كان بريطانياً أقول «نصف بريطاني»».

«عندما تكون مع جماعة من الإنكليز تشعر بذلك أكثر، إلا أن هنالك طرقاً عربية كثيرة لا يمكنك التخلي عنها لأنها مبنيّة في داخلك. وأميل إلى التصرف أكثر كإنكليزي عندما أكون مع جماعة من الإنكليز ولكنني أحتفظ بأساليبي العربية الصغيرة».

باستثناء حالة واحدة كان هنالك اعتراف بأن الهوية العرقية هي مصدر لبعض الارتباك. والتفاعل مع كلتا الجاليتين، أي البريطانية والعربية، كان أحياناً غير مريح، والشعور بأنك لا تتلاءم كلياً مع أحد المعسكريْن في الوقت الذي تعرف فيه أنك لستَ بريطانياً بالكامل. والورطة المتمثلة في انتمائك إلى اثنينْ من دون انتماء كلي كانت لافتة.

«لا، لا أظن أن لدي شعوراً بما هو بلدي. ولا أعرف بأني أشعر في وطني في معظم الأماكن حيث أنا مرتاح ومستقر. وحيث اني عشتُ في انكلترا فإن لديّ تجربة إيجابية ولكن «ليس لدي حقيقة ذلك الشعور بأن هذا هو وطني»».

«وأنا لا أشعر حقاً بأني أنتمي إلى هنا كلياً... أشعر بالوطن في لندن أكثر من أي مكان آخر، أشعر كأني في الوطن. لا أظن أن هنالك مكاناً آخر يمكن أن أدعوه حقاً وطناً. ولكن إذا سافرت بعيداً فإني أحب أن أعود إلى هنا، أكثر من أي شيء آخر».

وقال شخص آخر من الذين جرت المقابلات معهم: «الهوية تبدو متناقضة كلياً، ولا أفهمها حقيقة أحياناً، انهم يفكرون أنك شيء أصلي لأنهم يفترضون أنك بريطاني، ولكنك تريد أن تكون مختلفاً، إنك لا تريد أن يطلق الناس افتراضات... إنك تريد أن تؤكد أنك فرد وأنك مختلف، إنك تريدهم أن يعترفوا بذلك، لأنك أنت ذاتك لا تشعر بأنك بريطاني كلياً، أنا لا أشعر بأني بريطاني مائة بالمائة، وأنت تشعر بأنه أمر غريب إن عاملك الناس كما أنت عندما لا تكون معظم تجربتك بريطانية في الأساس. تشعر بأن هنالك خطأ ما في هذا، نوعاً من عدم التوازن».

وتردد صدى هذا الكلام في مقابلة أخرى:

«لأني أبدو انكليزية والناس يقبلونني لأني انكليزية، وهذه هي نهاية القصة... وأتلقى الأسئلة من العرب الذين يسألون ما إذا كنتُ عربية أو لا وكيف أنتسب إليهم».

«إنني أشرح للناس الذين يختلط الأمر عليهم... والعرب لا يتوقعون أبداً انني سأتحدث بالعربية لأني لا أبدو، كما تعرف، إن كنت من ذلك الجزء من العالم. وهكذا فعليّ دائماً أن أشرح، بسرعة، وعادة ما يبدون من البداية مندهشين جداً، ويستغرق الأمر بعض الوقت لاستيعاب الأمر، وهم (العرب) يريدون دائماً أن يعرفوا... يريدون دائماً أن يعرفوا ولكني مع الأشخاص البريطانيّين لا أقول ذلك... إنهم عادة يسألون من أين جاء اسمك، وعندها عليّ أن أشرح ذلك. وهكذا، أظن أن هذا هو ما تجري عليه الأمور».

وربما كانت حالة البينْ بيْن المجربة تتحدث أكثر عن المطالب المقدمة إلى ذوي «التراث المزدوج» لاختيار أحد الجانبيْن ولإظهار ولاء لجماعة أو لأخرى.

«نعم لقد كنت أدافع بقوة عن كلا الجانبيْن. هناك (السودان) إذا تفوه أحدهم بكلمة عن الشعب الانكليزي أو أي شيء كنت أشعر بالضيق حقاً. ولكنني أشعر بالشيء ذاته إذا تحامل أحد على السودان أو العرب أو المسلمين».

«لقد كان عليّ دائماً أن أتساءل من أنا، لم أكن من اللون نفسه كسائر أفراد العائلة. لم يكن الأمر حادثة واحدة بل كان أشبه بسلسلة متّصلة، لقد كان راسخاً دائماً في المخيلة مهما حاولت أن أسدل الستائر والتظاهر بأن

الأمر ليس مهماً، وبأنني مصابة بعمى الألوان ويجب أن يكون كل إنسان كذلك».

وكان انعكاس البينْ بيْن هذا واضحاً في ملاحظات أُبديت حول «الانتماء». وبرز موضوع القبول خلال أحاديثنا. وقالت إحداهن حول علاقتها مع تراثها العربي: «... إنها نوع من علاقة حب ـ كراهية على ما أظن».

سيدة أخرى قالت:

«يتوقعون منك أن يكون بمقدورك التحدث بالعربية ـ هذه قضية بالنسبة إليهم ـ ثمانون بالمائة ـ لاحظتهم ينسحبون أمامي بوضوح ـ وينظرون إلي تحت ضوء آخر...».

ووصفت إحدى النساء ذكرياتها حول الحالات التي لم تكن فيها مقبولة كلياً عندما ترعرعت في بلدة انكليزية صغيرة وقارنت هذا برحلة قامت بها وهي مراهقة شابة مع آسيويين بريطانيين وشعرت فيها انها مقبولة «كواحدة منهن». وقالت:

«لم أكن مررتُ بمثل تلك التجربة من قبل، لقد شعرت بالراحة». ومع ذلك: «كان هنالك تغيير كلي في السلوك عندما عُرف انني لم أكن آسيوية. إنه شعور جميل أن تكون مقبولاً من جماعة... وأنا لا أشعر حقاً انني مقبولة من الناس البيض... لقد أرادوني (الآسيويون ـ البريطانيون) والشعور بأنك مرغوب فيك كجزء من جماعة هو شعور لطيف جداً. وكلما كنتُ في سياق جماعة، مهما كانت تلك الجماعة، كنتُ أحب ذلك الشعور بالقبول والدفء».

وقالت امرأة أخرى: «... في انكلترا أدرك دائماً انني لست انكليزية ولذلك هناك دائماً حاجز».

وكانت زياراتها للبنان على عكس هذا. «انهم الناس ـ يمكنني أن أدخل إلى أي متجر وأجدهم يعرفون أنني لبنانية. إنهم يقولون أنتِ لبنانية وقد عدتِ لتوكِ لزيارة بلدك ألستِ كذلك؟ إنه مجرد التجاوب الفوري والدافئ والتعرف، وكان ذلك جميلاً».

صلة النسب: روابط مع الثقافة العربية

وعلى الرغم من هذه الارتباكات البادية، تحدث معظمهم عن أهمية صلة النسب مع تراثهم العربي. وقد وُصف هذا وتمثل بطرق متنوعة.

وكان التمثل للبعض عبر اللغة والدين:

«إنني لا أزال أشعر بحنين شديد تجاه الإسلام، إنني أصغي إلى القرآن لأن ذلك في خلفيّتي. إن له نوعاً من التأثير العاطفي... وكذلك العربية والثقافة العربية وكل شيء، إن الأمر يمدني بالقوة حقاً...».

كذلك كانت الدراسة والعمل والولاء السياسي نواحَي ملحوظة في ارتباطهم أو صلات نسبهم. وثلاثة ممن جرت المقابلات معهن عملن في جلسات مع صلة عربية، وتحدثت إحداهن عن دعمها للقضية الفلسطينية.

«لقد تتبّعتُ دائماً القضية الفلسطينية، وكان ذلك بالتأكيد بسبب صلتي العربية ـ والدي».

«إنني معجبة كلياً بكل شيء عربي، إنه ليس مجرد عمل، إنما هو أمر كنت مهتمة به دائماً. إنني مأخوذة».

والسفر إلى أقطار عربية برز بوضوح كذلك في حياة أولئك الذين جرت مقابلتهم:

«كان عليّ فقط أن أذهب إلى المناطق العربية في باريس لأشعر بفيض من السعادة».

«نعم، رحلتي إلى مصر... لم أشعر بأني قادرة على الذهاب إلى السودان... لقد لاحظت كذلك مقهى يديره سوداني في مصر... لقد كان ذلك رائعاً».

وقالت أخرى معلّقة على زيارتها لمصر الموطن الأصلي لوالدها: «لقد كان أمراً رائعاً الذهاب إلى مصر أخيراً ورؤية ما هي عليه».

وحتى مع أولئك الذين كان لهم اتصال مباشر أقل مع الثقافة العربية ولا يتحدثون العربية على سبيل المثال، كان هناك ارتباط قوي أو صلة نسب قوية. وفي هذا الصدد كانت الموسيقى العربية مهمة جداً لاثنتين على الأقل ممن جرت مقابلتهم، وتحدثت إحداهن بحماس عن حبها لكل الموسيقى العربية من كلاسيكية، أم كلثوم، إلى موسيقى الراي الشمال أفريقية المعاصرة

للشاب خالد والشاب مامي.

«لدي شعور خاص نحو الموسيقى العربية مختلف عن ذلك الذي أشعر به عندما أستمع إلى موسيقى غربية، ولا أدري لماذا».

ربما كان هذا دليلاً على «هوية رمزية»، بحسب التعبير الذي صاغه علماء النفس. وهذا يظهر عندما تظل هناك هوية «عرقية» حتى ولو كان هناك قليل من الاختلاط الثقافي المباشر(١١).

ومع ذلك فإن صلة النسب هذه تضمّنت درجة من تكافؤ الضديْن وبخاصة بالنسبة إلى قضايا الجنس، وأعربت إحدى النساء عن ذلك على الشكل التالي:

«أشعر بأن عائلتي هناك لا تقبل بي وبطريقتي - انهم لا يوافقون أبداً. وهكذا تخشى إن أنت ذهبت إلى هناك أن تصاب بخدوش».

بينما قالت أخرى: «أفكر بتجاربي ولا أثق دائماً بالعالم العربي، وأنا أتساءل إن كان سيواجهني ويلكمني في أسناني، وأقول لا يمكنك أن تفعلي ذلك، لأنني امرأة - هنالك شيء من الاحتراس بسبب أنانيتك - لأنهم لا يحترمون الفضاء الشخصي - (ضاحكة) انك سيُداس عليك».

«صنع» ازدواجية التراث

كانت إحدى العلامات اللافتة لعمل اتصالات ناشطة مع الثقافة العربية، وأعني بهذا أن أولئك الذين أجريتُ معهم المقابلات لم يكونوا متلقّين سلبيّين لهوياتهم. وعلى العكس من ذلك، وبدرجات متنوعة، لم يكونوا ناشطين ومستطلعين عن سابق قصد وتصميم ومتداخلين بهويتهم. وهذه المحاولات الناشطة لصنع اتصالات تتطلب غالباً بناء جسور بين العربي و«البريطاني - الانكليزي».

وكما وصفت ذلك إحدى اللواتي جرت مقابلات معهن: «نعم أنا أحاول أن أقيم اتصالات... أظن أنني أقوم بذلك... (ثم تصف دراستها الأكاديمية السابقة عن السياسات الشرق أوسطية)... لقد أصبحت جزءاً من

(١١) S. Keefe, «Ethnic Identity: The Domain of Perceptions and of Attachment to Ethnic Groups and Cultures,» *Human Organisation*, vol. 51 (1992), pp. 35 - 43.

عملي. . .ولا تزال لديّ الرغبة بالذهاب إلى أقطار عربية».

والطريقة الأكثر وضوحاً التي يمكن شرح هذا الأمر بها كانت في المحاولات المتنوعة التي بُذلت لتعلم العربية وتحسين المعرفة بها والحفاظ عليها. «لقد حاولتُ جاهدة جداً أن أتعلم اللغة من جديد. . . انه شيء أشعر بأني بحاجة إليه. إن اللغة مثل بحر هادئ ضخم فيه كل المعلومات التي أريد أن أحصل عليها وأحياناً تخرج منها عبارات صغيرة. . . أريد أن أتعلمها».

«أظن إنني أريد ارتباطاً بشيء عربي ولكنني لا أريد أن أقطع صلتي ببريطانيا كذلك. . .».

الهويات المؤقتة ـ المتغيرة

لم تكتف هذه المقابلات بإظهار دليل فقط على الاهتمام «الناشط» بالهوية ولكن الذين جرت مقابلتهم علّقوا كذلك على الطبيعة المؤقتة لهويتهم، وكيف تغيرت مع الزمن. ووصفت إحداهن هذا البعد المؤقت بوضوح قائلة: «إنه يتغير مع الزمن، كنتُ أنظر إلى نفسي كسوداء حتى بضع سنوات خلت، ولكن الناس كانوا يقولون إنك نصف بيضاء».

وردد آخرون هذه المشاعر: «أساساً كنت دائماً أعتذر. . . الغالبية منهم تقول صفي نفسك عربية. وكنت أشعر بنفسي وكأني مدّعية ولست أصيلة. وثمانون بالمائة كانوا يفقدون الاهتمام كلياً بإجراء المقابلة. . . والرجال كانوا في الغالب أكثر وضوحاً. أما الآن فقد تجاوزتُ الاهتمام إذا كان الناس يريدون إصدار حكم عليّ في خمس دقائق، يكونون عندئذٍ قد خذلوا تجربة صداقتي ولا أعود مهتمة بهم. . .وفي السابق كنتُ كثيرة الاعتذار، شاعرة بأنهم سيعرفون حالاً انني انكليزية أكثر مما أنا عربية. . .».

وقالت أخرى: في أواخر العقد الثاني من عمري. . . لم أكن أريد، ولوقت طويل، الاختلاط مع السود ومع كل ما يعنيه ذلك من متاعب. وكل السلبية كانت في انني لم أشأ الاختلاط. ومررتُ في مرحلة أصبحت فيها، كرد فعل، سوداء متحدية، وكذلك راضية بأن هذا ما يراني عليه الآخرون. وبدأتُ أدخل في حركة القوة السوداء وأشعر بالراحة لكوني سوداء وأشعر أيضاً بالغضب لاضطهاد الناس».

وكان هذا بالنسبة إلى بعضهم حذراً متزايداً أو نشاطاً لهوياتهم مرتبطاً بأحداث خارجية، شخصية واجتماعية وسياسية.

«أغلقتُ مشاعري في الماضي إلى حدٍ ما، وكنتُ منشغلاً بعيش حياتي وأغلقتُ الباب أمام الأشياء الآتية من ماضيّ لأنها كانت بمثابة إضافة على الأشياء التي أحتاج إليها للبقاء. وعندما توفيتْ جدتي هزتني وفاتها كما كانت الهوية مهمة بالنسبة إليّ... بذهابها فقدتُ تلك الرابطة القوية، رابطة الحب، لقد كانت بمثابة والدتي... وبالألم لفقدها فَتَحت من جديد تلك الرابطة (مع التراث العربي)... كنتُ بحاجة إلى إعادة تأسيس هويتي العربية عندما توفّيت جدتي ـ لم تكن شيئاً حاولتُ مطلقاً إخفاءه، إنما كانت في الحقيقة اكتشافاً لما تعنيه الهوية لي: في ما يتعلق بما فعلتُ وبمن أنا. وكذلك ماذا عنى ذلك للناس وكيف كان رد فعلهم. وعلى الرغم من أني أقول ودائماً ما قلتُ اني عربي. لقد كان أسهل عليّ أن لا أواجه هذه التوترات، ولهذا تجاهلتهم ودفعتُ بنفسي جانباً إلى أن أيقظني شيء ما تجاه الهوية. ولكن كنتُ عندها في سن الأربعين من النضج إلى حد كاف، متمتعة بالكفاية من الخبرة والثقة بحياتي الخاصة بحيث أقدر على التكيف مع هذه الأمور».

«أظن انني لا أزال أشعر بشيء من الذنب بشأن السنوات التي لم أكن أريد فيها أن أعرف حتى عندما كنت طفلة يمكنني أن أرى اني لم أكن ناضجة إلى حد كاف للتعامل معها. لقد كانت آلية بقاء ـ أنا أفهم كل ذلك ـ ولا أزال أشعر بالذنب لأنني قمت بإدارة ظهري... عندما كنتُ أصغر سناً لم أرد التعامل معها على أي نحو، ولم أُرد معرفة شيء عن السودان، لم يكن ذلك يهمني. لم أُرد أن أتعلم العربية. الأمر الذي يمزقني الآن، ولديّ الآن رغبة قوية في الذهاب إلى السودان».

اختلاف التواصل

لقد كانت هناك حاجة لدى بعضهم لنقل صلة نسبهم بتراثهم العربي علانية وكذلك الشعور بالاختلاف. لقد اعترف بالبُعد الأدائي للهوية العرقية: نقل خبرتهم الداخلية وعالمهم إلى الآخرين ـ لجعلها مرئية: «كيف يمكنني أن أجعل الآخرين يعرفون أنني لستُ هُم... ولأني لم أشعر بأني انكليزية أردتُ أن أكون مختلفة بشكل ما. لم أُرد أن يُنظر إليّ كانكليزية لأنني لم أكن كذلك وهكذا كنتُ سعيدة لارتدائي الحجاب لفترةٍ ما... إنه لأمر مضحك في الحقيقة لأنك من ناحية تريد منهم أن يُدركوا أنك لست هُم، أنك مختلف نوعاً ما. وتعتقد ثانية أن ليس هناك من بديل».

«أشعر بأنك تؤذي نفسك سواء بإخفاء أو نكران شيء... ومن المهم

جداً في حفل أو مجتمع عام أن تُعلن عن نفسك... فهنالك طرق نمطية لتقديم أنفسنا كمنتمين، وأعرف أنني أحياناً أريد أن أجعل نفسي أبدو عربية أكثر. وهكذا أضع كُحلاً كثيفاً حول عينيّ. وأتحلّى بأقراط ثقيلة أو ما شابه. أتمنّى بعض الأشياء التي تبدو نمطية لذلك النوع من الثقافة، سواء كانت صحيحة أو لا، فإنها كلها معبّرة».

إلا أن هذا ليس خياراً بسيطاً، ولكن يبدو أنه يتفاعل مع «هويات» واهتمامات أخرى، كانت لهذا الاهتمام بالنسبة إلى إحدى النساء علاقة بجنسها.

«لم أتصور أبداً انني سأرتدي ملابس امرأة عربية، ولا أظن أنه مناسب، انه ليس لي... أنا أربط بينه وبين الجنس. أنا لا أقول إن هذا صواب أو خطأ. إنني أصاب بالغضب حول الحجاب. إنني أراه كشيء جنسي، جزء ما مني يصاب بالغضب».

«عرب» و«هوية عربية»

أكد اثنان فقط من المشاركين هويتهم الوطنية «العربية». وفي هاتين الحالتين كان الاثنان قد قضيا الجزء الأكبر من طفولتهما ومراهقتهما في ذلك القطر المعيّن. وعلى العكس من ذلك أعرب معظم المشاركين عن انتساب أكثر عمومية إلى هوية «عربية» أوسع.

ومع ذلك فقد كان هنالك تكافؤ ضديْن حول ما إذا كان تعبير «عرب» ذا معنى كامل. وشعر أحد المشاركين بأن هذا التعبير مضلل في الغالب لأولئك الذين على معرفة قليلة بالجاليات العربية.

«إنه ليس غير ذي معنى، ولكنه مضلل؛ ان له هنا دلالة سلبية انتقاصية».

«لقد تغيرت أفكاري، لقد اعتدتُ أن أكون بسذاجة عربياً قومياً أما الآن فإنني أدرك أن كوني عربياً لا يعني ذلك القدر... إن الأمر ليس مهماً بالقدر الذي كنتُ أظنه».

وعلى العكس من ذلك شعر بعضهم بأن الاختلافات القطرية بين العرب لا تقلّل من علاقة أكثر عمومية بالثقافة «العربية» بمعنى أوسع: انتساب عام لأقطار تتكلم العربية.

«هنالك تشابه، لا تزال هناك صلة بكونك عربياً على الرغم من الاختلافات. وهكذا فلو كنتُ شخصاً من المغرب وقلتُ أنا من الأردن فسيقولون إنني أيضاً عربي».

وقال آخر: «قد يكون نوع مختلف من العربية من الأردن إلى مصر ولكنها لا تزال عربية الثقافة ليست فرنسية وليست تركية، أليس كذلك؟».

أنماط ووضع أقلية وتحامل

اعترف الجميع بوجود أنماط من العرب، ولم يعترض أحد على أن هذه الأنماط سلبية، بمجملها إن لم تكن كلها.

«سلبية، عنف، وإرهاب، وفساد ورغبة جنسية وتعدد زوجات وأصول، إنهم أقوياء، صورة قوية... ليس الجميع يحملون هذه الأفكار فبعضهم لا يزال يحمل صورة رومنسية عن الشرق... سلبية بوجه عام... حسب تجربتي».

«من الناحية السلبية ـ أشياء مثل «عربي سارق» و«عربي قذر» ليست لطيفة، هنالك جانب غير مريح لأن تكون عربياً... لا أظن أن هنالك سمات تعوّض عن الجانب السلبي ـ أن تكون غنياً.. أن تكون ثرياً... ولكن بصورة تفاخر ومباهاة، عمر الشريف، أظن أن هنالك هذا الرابط الرومنسي ولكن هذا كل ما أقدر أن أفكّر فيه».

وتحدث مشارك آخر عن: «دعاية مفضوحة ضد العرب» وكان هذا مرتبطاً بعمليات سياسية أوسع.

«الافتراض هو أنك مناوئ لليهود أو مناوئ لإسرائيل. هذا هو أول نمط. النمط الثاني هو أنك إن كنت عربياً فيجب أن تكون مسلماً، والمسلمون بوجه عام يتركون انطباعاً سيئاً. ويُنظر إليهم كأنهم يعزلون أنفسهم عن سائر المجتمع وكأنهم متعصّبون أيضاً. وهم دائماً يُصوَّرون على أنهم متطرفون في أعمالهم وليسوا مفاوضين، بل كالجرافات إن شئت. بينما تستمر الصحافة البريطانية في الترويج لمثل هذا التصوّر فإن أدوار تعبير «عرب» لن تفهم بمعنى أفضل. أظن ان الناس سيشعرون أن العربي يمثّل شيئاً سلبياً». وتردد صدى مثل هذا في مقابلة أخرى.

«الإسلام بوجه خاص له صورة سلبية جداً بالطبع، وهذا لا يزعجني.

إن الناس جاهلون وكل ما يعرفونه عنه هو ما يفعله الأصوليون وهم يفترضون أن كل الآخرين مثلهم».

وكان هنالك إجماع على أن هذه الصور النمطية السلبية لم تكن تقابلها أبداً أي صور إيجابية عن العرب والثقافة العربية.

«كل ما تسمعه هو عن الجانب السيئ... الإسلام الأصولي.. سلمان رشدي.... ضد بريطانيا».

ولوحظ التصوير المختلف للنساء والرجال العرب.

«وكذلك فالأنماط الأكثر إيجابية هي للنساء. ينظر إليهن باعتبارهن أكثر خضوعاً وأكثر ميلاً للجنس وما شابه. وهكذا نجد هنا تفريقاً للجنس، فإن كنتَ ذكراً عربياً يُنظر إليك كحامل لتهديد ما، أكثر مما لو كنت أنثى».

إلا أنهم اختلفوا في المدى الذي كانوا يشعرون به بأنهم تأثروا مباشرة بمثل هذه الأنماط وبالتمييز. وكان هذا بالنسبة إلى بعضهم مفضوحاً وفجاً. وكان أقل من ذلك للآخرين.

«عندما وصلتُ إلى هنا قابلتُ أناساً يبصقون عليّ في الشوارع ـ لقد قاسيتُ من العنصرية بأعنف طريقة شخصية».

«عندما كنتُ أرتدي الحجاب صادفتُ هذا بشكل أكثر ـ صادفت أناساً يحملقون بي ولاحظتُ حينما تخليتُ عن الحجاب أن حياتي أصبحت أسهل بكثير. وفي البدء لم أتخلّ عن الحجاب لفترة طويلة لأني ظننتُ بأن نزعَه سيكون الخيار السهل وهكذا كان ـ من وجهة نظري يصبح العيش في هذا المجتمع أفضل. ولكني أتذكّر أن أحد الأشخاص قال لي إنكِ امرأة شرقية غامضة، وكدتُ أن ألطمه. لقد وجدتُ أن الافتراضات التي يحملها الناس مزعجة إلى حد كبير وبخاصة حول الحجاب...».

وتجربة إحدى الذين جرت معهم المقابلات عن التمييز بدت متصلة بكونها «سمراء» أكثر من عرقها «العربي».

«لم أُنعت بصفات أبداً لكوني عربية، بل كنتُ دائماً أُوصف «زنجية» وما شابه».

وهذا يدل مرة أخرى على تعقّد «الهوية» وكيف أنها تتأثر بالمضمون الاجتماعي الأوسع.

وترددت نغمة أخرى عن تآلف مع «أقليّات» عرقية أخرى في بريطانيا. وتحدث ثلاثة من الذين جرت المقابلات معهم عن تعاطفهم مع جماعات معرّضة للتمييز. وقالت واحدة يمكن اعتبارها انكليزية شكلاً: «لقد شعرتُ دائماً بقوة بأن لديّ قدراً من المشاعر العنصرية. بالنسبة إليّ لأني أشعر بكوني مختلفة على أي حال، ولكن بالنسبة إلى الآخرين ـ ولأي شخص مختلف، بما في ذلك الآسيويون والسود ـ لقد شعرتُ دائماً بنوع من التواصل معهم. ولا أدري لماذا كنتُ أشعر دائماً بأن العنصرية جزء من حياتي حتى ولو أني شخصيّاً لم تكن لي تجارب كثيرة فيها. وهكذا فأنا على الأرجح لا أعرف ما هي العنصرية ولكنني كنت أشعر بها في الوقت الذي كنت أرتدي فيه الحجاب. وأظن أن ما تصفه هو أنكَ تتعامل مع الناس مثلما يتعامل أي شخص من أبوين إنكليزيّين... إنه شعور شخصي».

«... إننا لسنا فقط أناساً بيضاً بل لدينا شيء مشترك مع جماعات أقلية أخرى».

وتحدثت واحدة أخرى عن شعور بالغضب:

«يمكن أن أصبح شديدة الغضب عندما أرى ظلماً... أن تكون الثقافة الغربية والعرق الأبيض الأوروبي هما الطاغيين تاريخياً وراهناً وتعود إليهما الغالبية... ولهما السيطرة».

وجرى الحديث أيضاً عن إدراك عام بما يمكن وصفه بالضمير السياسي.

«عندها تفهم أكثر قليلاً وتدرك أنه يمكنك أن تكون أسود سياسياً وأن تُعرّفَ بالمعنى الأوسع بالأسوَد... وكأن هذا يشمل كل ما ليس أبيض... وهكذا فإنني أعرّف عن نفسي بعد صراع طويل لأنه يُنظر إلي على أنني لستُ أصيلة في هذا البلد.».

ويجب أن نعترف بأن الحياة تعاش وسط أحداث شخصيّة (تجربة الخسارة الشخصيّة بسبب الوفاة أو الطلاق أو الهجرة)، وكذلك وسط أحداث تاريخية رئيسيّة كالحرب، وأربعة من الذين جرت مقابلتهم لم يكن لهم اتصال كبير مع أسرهم العربية إما بسبب طلاق الأب أو الأم العربية أو الوفاة أو بسبب أحداث سياسية.

وتحدثت واحدة من أصل لبناني عن أثر أحداث لبنان خلال السبعينيّات والثمانينيّات فيها وفي حياة أسرتها. وتحدثت أخرى عن حرب الخليج في عام ١٩٩٠ وآثارها.

ويُثير هذا سؤالين مهمّين على الأقل. أولاً، إلى أي مدى تؤثر أحداث مثل الحروب والنزاعات وغياب الآباء في تجربة حياة الناس؟ وثانياً، هل تأثير ذلك أكبر في الأفراد ذوي ازدواجية الإرث والأبوة المختلطة؟

وكما قالت إحداهن في كلامها عن والدها الراحل «لا أزال أشعر بالذنب... حول الرغبة في الاقتراب أكثر من والدي... كان ذلك هو مكانه، ومضمونه. أريد أن أعرف».

كما ذكرت سابقاً، ليس من الدقة تصنيف الأفراد ذوي التراث المزدوج كمشكلة لا مفر منها، وبالتالي محرومون. وعملية إعطاء معنى للهوية الشخصية يمكن أن توفر ثراء في التجربة، وقد توفّر فرصة لفهم حاجة الإنسان للانتماء. وبهذا يمكن أن تؤدي إلى تعمّق أكثر في التفكير وانفتاح وقبول أكبر.

وقد أعرب عن هذا اثنان من الذين جرت مقابلتهم:

«أظن أن ما تحصل عليه من فائدة هو أنك تلتقط أفضل ما يمكن منهما... إن لديك كلا الجانبين لتعود إليهما... وعليك أن تُعمل رأيك في ذلك ولا تأخذه كأمر مفروغ منه».

«كان هنالك بعض أشياء صعبة جداً ـ أن تكون مرفوضاً أو تكون أسمر وسط محيط كله أبيض، أشياء مؤلمة. لقد حملني ذلك على التساؤل لماذا أتألم؟ ومن أنا؟ ماذا تعني الجنسية؟ لماذا يوجد أناس عنصريون؟ ما هو العيب في البشرة السوداء؟ بالعرب؟ من أين تأتي كل هذه الأشياء؟

لقد كنتُ في وضع كان عليّ فيه أن أتحدى هذا كله. وأظن أن هذا كان مفيداً لي... لقد فُتحت عيناي على شيء حقيقي في العالم كان من الممكن أن لا ينكشف، ذلك الأمر الحقيقي: الجنسية، القومية، العنصرية. وكلها حول هذه المنطقة العائدة إلى أين أنتَ ومن أنا. لم أفكر بعمق أبداً بأنني كنتُ على خطأ حول لوني واسمي... وكان عليّ بسبب هذه المصاعب أن أفهم لماذا. وأنا أدرك أن الجنسيات من صنع الإنسان وأن الحدود كيفية، ويميل الناس هنا إلى النظر إلى البلدان كأشياء مطلقة وإلى الجنسية كشيء

مطلق، وأنا أعرف أنها ليست كذلك. . . إن لنا اتصالات مع أكثر من موضع واحد ونحن منفتحون».

رابعاً: انطباعات واستنتاجات

هَل كنت أريد أن أبحث وأحلل هذه النتف من التجارب التي تم اختيارها لشرح الأمور؟ لم يكن هذا قصدي في الحقيقة، وكما أوضحتُ في المقدمة كانت الأولوية لدي إسماع «الصوت»، وأن أكون صادقاً للسرد قدر الإمكان. فلنعط وقتاً للتفكير ولتمحيص هذه «الأصوات». وقد يكون هناك في الغالب استعداد للبحث والتحليل والخروج باستنتاجات متسرعة. ويمكن أن يزودنا هذا بالأمان، وبوضوح نفسي. والقضية بالنسبة إليّ في هذا المشروع كانت الإصغاء والاستكشاف. وفي النهاية فإنها قدرتنا على قبول «اختلاف عن ما هو معروف ومألوف لدينا. والقبول «بالاختلاف» هو دائماً عمل شجاع.

وهنالك مع ذلك بضع نقاط تحتاج لتسليط الضوء عليها وأسئلة يجدر طرحها:

من الواضح أن الهوية المتعددة الوجوه العرقية/العنصرية مع ما قد يكون لها من أهمية ليست سوى مصدر واحد من الهوية الشخصية. فالجنس (ذكر ـ أنثى) والأدوار الاجتماعية (أن تكون أماً مثلاً) والطبقة الاجتماعية وغير ذلك كلها مصادر إضافية كامنة. وكان واضحاً خلال المقابلات مع النساء أن للجنس أهميته بوجه خاص في هويتهن. والتفاعل بين الجنس والهوية العرقية/ العنصرية أمر مهم بوضوح.

وتجدر كذلك ملاحظة الشعور بالواسطة، التي أظهر فيها هؤلاء الأفراد هويتهم عن طريق اختيارهم للأزياء من حجاب وكوفية، وتعلم العربية والسفر وغير ذلك. وكانوا منهمكين بعض الشيء في عملية إقامة اتصالات أو بناء جسور تظهر الانتساب وكل واحد كان يفصّل لنفسه ذاتية من المواد المتوفرة له.

وكانت إحدى الملاحظات اللافتة مدى الاختلاف الطبيعي بين الذين جرت مقابلتُهم. لقد تراوح الاختلاف في المظهر من جنوبي آسيا إلى منطقة البحر المتوسط إلى شمالي أوروبا منعكساً في لون البشرة أو الشعر أو سمات الوجه. ولم يكن هناك مجرد طابع مركّب، لقد كان من المستحيل تنميط الفريق طبيعياً.

وقد يعكس هذا في جزء منه التنوع الطبيعي في العرب. وباختصار فإن الفريق الذي جرت مقابلته لم يكن متناسباً كلياً مع الأنماط البريطانية «للآخر» أو «الأجنبي»، أي بريطاني كاريبي أو بريطاني آسيوي. وهذا على عكس إدراك البريطانيين لأنماط العرب والتمييز بينهم.

وأكثر ما يلاحظ هو ثراء التبصّر وتنوع الرؤى المعبَّر عنها.

ونحن جميعاً كأفراد نحمل تواريخنا سواء الشخصية أو الجماعية. ويبدو أن هذه المقابلات لم تدفن أنفسها في هذه التواريخ بل انهمكت بدلاً من ذلك بنشاط في سيرورة، ومن الواضح أن هذه السيرورة لم تكن سهلة دائماً، وكان هنالك في الحقيقة شعور بأن العديدين ناضلوا مع هويتهم الشخصية، إلا أنه بدا أنهم جميعاً تعلموا ونضجوا معها، ونموا بدءاً من هذه التواريخ.

ونحن ننسى غالباً كم أن التغيير سريع، ونحن نعيش في مجتمع تقاليد متنوعة. والتزاوج بين الأعراق والثقافات آخذ بالازدياد. والحصيلة هي ازدواجية التراث التي تحمل الكثير مما يهمنا جميعاً أن نتلقى دروساً منه.

وقد تكون الرسالة الأكثر قوة أو الموضوع الأبرز الذي استنتجته من هذه المقابلات هو الانهماك الناشط لأفراد يقاومون الضغوط للاختيار بين هذه التقاليد، والأكثر من ذلك عملهم نحو شعور كلي بالذات.

الملحق (أ)

اللغة والعبارات الوصفية، كما نعلم، ليست محايدة. فهي تساعد في بناء العالم الذي نعيش فيه، ولهذا السبب يجب أن يتم اختيار مثل هذه الأوصاف بتمعن وتفكير.

إن عنوان هذه الورقة يشير إلى ازدواجية التراث، وقد استخدمتُ هذه العبارة كعنوان عام لورشة العمل مع انني فكرتُ في استخدام عبارة التراث المختلط والأبوة المختلطة. وقد اخترت العبارة الأولى لأنها في رأيي إيجابية. إنها تعطي معنى أكبر ينسحب إيجابياً على أكثر من تقليد ثقافي أو إرث واحد. وما يقلقني من الصفات التي تتضمّن كلمة «مختلط» هو ما توحي به من انتقاص القدر.

وعبارة ازدواجية التراث لا تخلو من جانب يحمل معنى جذرياً. **أولاً** يمكن لكلمة ازدواج أن تعطي معنى انقسام إلى قسمين ـ يفهم في الغالب

كأنه «أبيض وأسود» أو «شرق وغرب» - **وثانياً** لأن للعديد من الأفراد بمن فيهم الذين جرت مقابلتهم أصولاً ترجع إلى أكثر من أصلين ثقافيّين أو عنصرين واضحين، **وثالثاً** أنها قد تعتّم على الطبيعة الهجينة والمركبة لكل الثقافات والأعراق.

ويعود قلق آخر إلى رغبتي في تجنّب إضفاء صفة مادية على التعبير. واحد مثل هذه المفاهيم المادية هو كلمة «عرق» وقد سعيتُ بوجه عام لتفادي هذا التعبير، والسبب في هذا هو الاعتراف بأن العرق بناء اجتماعي - نتاج سيرورات اجتماعية وتاريخية - أكثر منه كياناً بيولوجياً قائماً.

والأهم من هذا هو الاعتراف بأن النقاش القائم بين الناس ذوي التراث المزدوج أو الأبوة المختلطة أو العرق المختلط حول أسماء لوصف أنفسنا، وبوصف أنفسنا نصبح مرئيين وبذلك نكتسب «صوتاً»[١٢] ويمكن القارئ أن يأخذ فكرة من هذه النقاشات من شبكة الانترنت.

وقد نكون في طريقنا إلى الوصول إلى نقطة نحتاج فيها إلى تطوير تعبير جديد للإعراب عن تنوع تواريخنا وثقافاتنا.

الملحق (ب)

كيف ترى ذاتك؟

ما هو أكثر ما تشعر براحة معه؟ هل هذا قرينيّاً سياقياً - وضعياً؟ أي هل يعتمد على من أنت معه؟ هل يعتمد على المحيطات الطبيعية؟

إدراك الآخرين

كيف تظن أن الناس الآخرين يرونك؟ هل هنالك أي تباين أو تناقض؟

الانتماء

أين هو «الوطن»؟ هل هذا مرتبط بالمعرفة الثقافية - أن تكون مرتاحاً بالثقافة العربية أو الانكليزية؟ وماذا حول الديانة؟

الأصالة

أن تكون عربياً؟ بماذا ترتبط كلمة «عربي» في فكرك؟

---

(١٢) Hall, *New Ethnicities.*

أن تكون أسود؟ بماذا ترتبط كلمة «عربي» في أفكار الآخرين؟

أن تكون «الآخر»؟ أي خارج المجتمع البريطاني الأبيض السائد؟

أن تكون انكليزياً؟ بماذا يرتبط الإنكليزي في فكرك؟

أن تكون بريطانياً؟ بماذا يرتبط الإنكليزي في أفكار الآخرين؟

علامات الهوية

الصفات الطبيعية: لون البشرة ـ سمات الوجه ـ الشعر الخ.

الصفات الاجتماعية: أسماؤنا ـ ملبسنا ـ اختيار مأكولاتنا الخ. . .

المعرفة الثقافية وملحقاتها: معرفة الوطن العربي: تاريخه، جغرافيته، تقاليده، اللغة.

الآباء الأسرة والنظراء

ماذا عن الاتصالات مع الوالدين والأسرة وغير ذلك؟

مشاريع هوية شخصية ـ بناء جسور

ماذا صنعتَ للارتباط بجانبك العربي؟ ماذا تفعل في الوقت الحاضر؟

الفصـــل الثالـــث

عوامل التكامل في تجربة الجالية العراقية

عبد الإله توفيق(*)

تعتبر الجالية العراقية في بريطانيا حديثة التكوين مقارنة ببعض الجاليات العربية والأجنبية، كالجالية اليمنية، والمغربية، والتركية أو القبرصية. فقد بدأ تشكل ملامحها في العقدين الأخيرين من هذا القرن.

وعلى الرغم من أن العلاقات العراقية البريطانية تمتد إلى عقود سابقة، وإلى ما قبل تشكيل الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١، إلا أن وجود العراقيين في بريطانيا ظل محدوداً طوال تلك العقود (وهو صحيح بالنسبة إلى أي بلد آخر) وكان أغلبهم من الطلبة جاءوا لإكمال دراساتهم، وبخاصة في مجالي الطب والهندسة، أو تجاراً، سائحين، أو للعلاج. واستقرت قلة منهم لغرض الإقامة والعيش إما بفعل الزواج من بريطانية/بريطاني، أو لأن متطلبات العمل تقتضي الإقامة لفترات طويلة في هذا البلد.

ويقتضي التعرف على الأسباب التي جعلت العراقيين غير ميالين للهجرة أو مغادرة البلد لفترات طويلة دراسة وتحليلاً. ومن المؤكد أن العوامل التي تدفع الإنسان إلى الهجرة عديدة، فهي إما اقتصادية، أو اجتماعية، أو سياسية، أو بيئية... الخ، ويلاحظ أن العامل السياسي بدأ تأثيره يزداد في العقود الأخيرة، وبخاصة في حالة العراق. في حين كان الاستقرار النسبي للعوامل المذكورة في فترات ما بعد تشكيل الدولة العراقية قد أدى إلى عدم

(*) رئيس المنتدى العراقي ـ لندن.

وجود جاليات عراقية في الخارج. فمثلاً، على رغم قوة الروابط أو الوشائج الدينية بين العراق وإيران، أو القومية بين سوريا والعراق فإن وجود العراقيين في هذين البلدين وفي تلك الفترات لا يعكس تشكيل ملامح لجالية عراقية لها خصائصها المتكاملة.

إن تشكل الجالية العراقية في بريطانيا كان حديثاً مقارنة مع الجالية اليمنية مثلاً، فلقد شكل البحارة اليمنيون الذين جاءوا في بداية القرن للعمل في الموانئ البريطانية النواة الأولى لتلك الجالية، كما كان استقدام سائقين للباصات من منطقة الكاريبي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية للعمل في بريطانيا مؤشراً على أن العوامل الاقتصادية هي السبب الرئيسي وراء تشكل مثل هذه الجاليات.

ومع أن العراقيين لم يكونوا ـ كما ذكرنا ـ ميالين إلى الهجرة، إلا أن هناك استثناءين حدثا في العقد الرابع. الأول كان هجرة عدد كبير من الآشوريين (المسيحيين)، أغلبهم استقر في أمريكا وبريطانيا واستراليا. والآشوريون يشكلون إحدى الأقليات الرئيسية في العراق. والاستثناء الثاني هو هجرة يهود العراق بعد قيام الدولة العبرية، وتشير الدلائل التاريخية إلى أن عملية الهجرة تمت بالتواطؤ بين حكام العراق آنذاك والصهيونية العالمية، فقد جرى إسقاط الجنسية العراقية عنهم وهُجّروا بالقوة.

خصائص الجالية

إن عنصر الوجود البشري المحسوس المستقر لجيل واحد أو أكثر لمجموعة عرقية، يعكس أهم خصائص تكوّن الجالية. ويفترض أن يعكس هذا الوجود البشري ثقافة البلد الأم وعاداتها، أي انه مرآة لها. ويشكل الدخول في سوق العمل والتناغم والتفاعل مع المحيط الجديد عوامل الاستقرار والتمايز والديمومة لهذه الجالية أو تلك.

وتشكل كثافة الوجود البشري في بقعة محددة (مدينة، حي، قطاع)، أحد عناصر سمات الجالية، فيمكن القول إن تجمعاً بشرياً لعشرة آلاف شخص متمركزين في حي أو قطاع محدد يعكس ملامح الجالية، وإن ضِعْف هذا الرقم لا يشكل جالية، إذا كانوا منتشرين في مدن عديدة وبذلك يضيع تمايزها.

وبمقدار ما تظهر البيئة الجديدة مشاعر «ترحيب» إزاء عناصر الجالية

الناشئة، فإن التأقلم والتفاعل وحتى الاندماج مع المجتمع الجديد يكون أيسر وأسرع، والعكس صحيح حيث تولّد المواقف السلبية روح الانعزال والتضاد وازدياد الشعور بأن المجتمع الجديد هو «معاد» لها.

أشرنا في البدء إلى أن نشوء الجالية العراقية في بلدان المهجر يعتبر حديثاً، وبدأ هذا التشكل قبيل وأثناء حرب الخليج الأولى عام ١٩٨٠ (الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨))، حيث هاجرت عشرات الألوف من العوائل العراقية وجلهم من الأكراد الفيلية الشيعة، وتفاقمت عمليات التهجير بعد بدء الحرب. ولجأ الآلاف إلى بلدان الجوار. وتضاعفت الأرقام بعد حرب الخليج الثانية وفرض الحصار الاقتصادي الدولي حتى بلغ عدد العراقيين الذين اضطروا إلى مغادرة وطنهم خلال السنوات العشرين الأخيرة ما يقارب المليونين.

كانت البلدان المجاورة للعراق هي المحطات الأولى الأساسية للعراقيين مثل إيران وسوريا واليمن وتركيا، وأصبحت هذه البلدان نقاط وثوب إلى بلدان أوروبا وأمريكا واستراليا وغيرها من بلدان العالم، لأن المحطات الأولى لم تعد توفر شروط الأمان والحماية أو إمكانية الاستقرار والعيش الملائم. ومن الواضح أن العامل الاقتصادي لم يكن وحده السبب وراء هذا الخروج الواسع.

ومنذ منتصف الثمانينيات بدأت أعداد كبيرة من العراقيين تصل تباعاً إلى بريطانيا. وتشير الإحصاءات البريطانية إلى أن العراقيين كانوا ضمن مواطني البلدان العشرة الأولى التي يأتي منها المهاجرون. ورغم أن السلطات البريطانية أجرت تعديلات وفرضت قيوداً واسعة على الهجرة واللجوء إلا أن ذلك لم يمنع تدفق اللاجئين أو الحد من قدومهم إلى بريطانيا سواء بطريقة شرعية أو غير شرعية.

وكان تمركز العراقيين أساساً في لندن، واحتضنت بعض المدن أعداداً منهم مثل برمنغهام، ومانشستر، وكاردف.. الخ. وكانت هذه المدن وغيرها في الكثير من الحالات المراكز التي درسوا فيها قبل أن يضحوا مهاجرين لاحقاً.

مراحل التشكيل

لم يضيع العراقيون وقتهم، فقد شرعوا حال وصولهم وبمساهمة ناشطة

من بعض العراقيين القاطنين في تشكيل مراكز متنوعة سواء أكانت سياسية أم دينية أو ثقافية أو مهنية. وأقيمت نواد اجتماعية، ومن الأمثلة على ذلك، جمعية الكندي للمهندسين العراقيين، ورابطة الأكاديميين العراقيين، وجمعية الأطباء العراقيين، ورابطة الفنانين العراقيين، ورابطة الكتاب والصحافيين العراقيين، وديوان الكوفة، ومركز أهل البيت، كما أقيمت مراكز ثقافية كردية وآشورية مثل المركز الثقافي الكردي والمركز الثقافي الآشوري.

كما تشكل عدد من المراكز الخيرية الطوعية التي تهدف إلى تقديم النصح والإرشاد وتوفير التدريب وغير ذلك من الخدمات. ومن هذه المراكز المنتدى العراقي، وجمعية رعاية العراقيين.

المنتدى العراقي

يعتبر المنتدى العراقي من أكبر مراكز خدمات النصح والإرشاد، وقد تأسس عام ١٩٨٧ وسُجل كمنظمة خيرية، واتسع نشاطه خلال السنوات الماضية من ناحية عدد العاملين فيه وعدد الخدمات التي يقدمها ونوعيتها. فهو يقدم خدماته في مجال الرعاية الاجتماعية والسكن والهجرة والصحة والعمل والتدريب، كما يدير صفوفاً تقع في ثلاث بلديات لتعليم اللغة العربية الأم. وينظم المنتدى سلسلة من الندوات الثقافية، الاجتماعية والصحية، وينظم مهرجانات ورحلات اجتماعية إضافة إلى الاحتفال بالأعياد. ويصدر المنتدى جريدة **المنتدى** التي توزع مجاناً على أكثر من ثلاثة آلاف عنوان. وتدير المنتدى هيئة إدارية تُنتخب سنوياً إضافة إلى عدد من الموظفين الذين يديرون مكتب المنتدى يساعدهم جمهرة من المتطوعين.

من الصعب للغاية تحديد عدد أفراد الجالية العراقية في بريطانيا، فحتى إحصاءات دائرة الهجرة لا تعكس الصورة الدقيقة. إلا أن التقديرات، ومنها تقدير المنتدى العراقي، تشير بأن العدد هو حوالى ١٠٠ ألف، وهناك من يضع أرقاماً أعلى أو أقل من ذلك.

وبهدف التعرف على واقع الجالية العراقية في بريطانيا وتركيبها واحتياجاتها قام المنتدى عام ١٩٩٦ بإجراء دراسة ميدانية (استبيان)، وهو أول عمل من نوعه تقوم به مؤسسة لجالية مغتربة. وجرى إصدار النتائج في كتاب يحمل عنوان **نحن الآن هنا** *(Now We are Here)* وأشارت نتائج الاستبيان إلى أن:

١ ـ الجالية العراقية تتمركز بشكل أساسي في البلديات الواقعة في وسط وغرب لندن.

٢ ـ يشكل قطاع الشباب نسبة عالية ٥٨ بالمئة تحت سن الثلاثين، و٤٧ بالمئة هم فوق سن الستين.

٣ ـ شكل المتزوجون نسبة ٦٠ بالمئة، وغير المتزوجين ٣٠ بالمئة، وكانت نسبة المطلقين والمطلقات والمنفصلين وغيرهم من أشكال الوحدات العائلية منخفضة جداً. إلا أن المؤشرات للفترة التي أعقبت الاستبيان تشير إلى ارتفاع ملحوظ لحالات الطلاق والانفصال.

٤ ـ المستوى التعليمي والثقافي عال، فإن نسبة ٣٠ بالمئة يحملون شهادة جامعية.

٥ ـ الحاصلون على صفة اللجوء الكامل والإقامة الاستثنائية يشكلون النسبة الأكبر من ناحية نوع الإقامة، كما يزداد بنسب مطردة عدد الحاصلين على الإقامة الدائمة أو الجنسية البريطانية.

٦ ـ بلغت نسبة البطالة ضمن العينة خمسة أمثال المستوى السائد في بريطانيا.

٧ ـ السكن: ٥٠ بالمئة يعيشون في سكن خاص، ومن المحتمل أن غالبيتهم يتسلمون معونة السكن، و٢٠ بالمئة يقطنون في سكن تابع للسلطات المحلية.

٨ ـ المضايقات العنصرية: الرجال الذين تعرضوا للمضايقات ١٥ بالمئة، والنساء ١٠ بالمئة. وتأخذ المضايقات أشكال الاعتداء أو الإزعاج من قبل الجيران. كذلك طلب عدد من المؤسسات (دوائر الضمان الاجتماعي، بعض المستشفيات) إبراز جوازات السفر لغرض تقديم الخدمة، مع العلم بأنه ليس من المعتاد طلب مثل هذه الوثائق الشخصية من جميع المراجعين. ولكن، بشكل عام، لا يوجد عداء موجه ضد العراقيين على الرغم من أن بريطانيا دخلت في حرب ضد العراق، بل على العكس فهناك تعاطف من عامة الناس مع العراقيين.

التكامل في الجالية العراقية

١ ـ **التكامل الداخلي**: ويراد به تعزيز الوشائج بين أفراد الجالية وتعزيز الروابط والتنسيق بين القطاعات المؤلفة للجالية، وصولاً إلى أن يكون للجالية

مجلس عام منتخب يمثلها ويدافع عنها ويسعى للحفاظ على هويتها وتقاليدها ويسهم في تطوير إمكاناتها.

لقد أدت ظروف العراق اللاانسانية والحروب والحصار الاقتصادي والفاقة والمرض الذي شمل جميع نواحي المجتمع العراقي إلى تمزق واسع لنسيج المجتمع العراقي وتراجع العديد من القيم الحضارية، وسادت عادات وممارسات بالية ومتخلفة.

إزاء خلفية كهذه وتركة ثقيلة كهذه كان على الجالية العراقية، سواء في بريطانيا أو دول المهجر، أن تصحح وتعيد بناء لحمتها. انطلاقاً من ذلك تحركت عناصر كثيرة في الجالية وبنشاط لعكس المثل والأخلاق والتقاليد الحقيقية الأخرى للمجتمع العراقي وللنهوض والإسهام بقدراته الكبيرة.

ويمكن القول بأن خطوات كبيرة قد تحققت في مضمار التكامل الداخلي، وربما كان السبب الأساسي لهذا النجاح هو أن الغالبية العظمى من أفراد الجالية العراقية كانت الضحية لتلك السياسات اللاانسانية ولديها هموم واقتناعات مشتركة. كما أن التضحية ونكران الذات من جانب العديد من الأفراد الذين نشطوا في تشكيل المؤسسات الخيرية والخدمية والمراكز المهنية ساعدت على تمتين الروابط من جديد. ومن المألوف اليوم أن نلاحظ أن العديد من المنظمات الخيرية والطوعية العراقية تقيم نشاطات مشتركة، سواء في تنظيم المهرجانات (مهرجان الجالية العراقية، والحلقات الدراسية والندوات المشتركة، ولقاءات التشاور والتنسيق.. الخ)، وعلى المستوى الاجتماعي زادت اللحمة بين الأفراد. ويتجلى ذلك في اللقاءات الاجتماعية العامة مثل الحفلات التي بدأ يحضرها المئات. ونظّم المنتدى 'العراقي مؤخراً سفرة عائلية شارك فيها ٥٠٠ شخص. كما تزايدت الزيجات بين أفراد الجالية، وبعض المراكز مثل «ديوان الكوفة» أصبح ملتقى للعراقيين يحضرون البرامج الثقافية التي يقيمها هذا الديوان.

مع ذلك فإنه لم تتبلور بعد الشروط لإمكانية إنشاء مجلس الجالية العام، وهو ما يمكن أن يدرج كإحدى المهام التي يتعين على الجالية العراقية دراستها مستقبلاً.

٢ ـ **التكامل الخارجي**: تمتاز الجالية العراقية حالياً بشكل أساسي بوجود جيلين: جيل الآباء وجيل الأبناء. جيل الأبناء ولد في العراق أو خارج العراق (بلدان الجوار) وقلة منهم ولدت في بريطانيا. ويواجه جيل الآباء

صعوبات جمة مع مشاكل المجتمع الجديد. فقضايا الإقامة يمكن أن تستغرق سنوات طويلة للحصول عليها، إضافة إلى مشكلة الحصول على السكن المناسب. ويعتبر عامل اللغة من العوائق الأساسية في دفع عملية التكامل، وكذلك مشكلة الدخول إلى سوق العمل والتنافس وتوفير الفرص أو مشكلة العمر. ورغم تلك العوائق الأساسية إلا أن جيل الآباء قد استطاع أن يخطو خطوات إيجابية، فالعديد منهم دخل دورات اللغة والتدريب وإعادة التأهيل. وتمكن عدد منهم، وإن كان قليلاً، أن يدخل إلى سوق العمل، إما عن طريق إقامة المهن الحرة أو العمل في المؤسسات الأخرى. وكان حظ الرجل أوفر من حظ المرأة في هذا المجال. أما الأبناء فإنهم واجهوا صعوبات أقل ولكنها لا تخلو من التشابه مع بعض المشاكل السابق ذكرها. وبحكم كونه جيلاً ناشئاً استطاع أن يتخطى بعض العوائق بسرعة، مثل تعلم اللغة والاختلاط والتأقلم (من خلال المدرسة) مع أقرانه من البريطانيين أو الأجانب، حتى أن بعض المشاكل بدأ ينجم عن ذلك، منها أن قسماً من هذا الجيل الذي جاء في سن مبكرة أخذ لا يتحدث بلغة الآباء، أو أن أفكاره وتصرفاته ورؤيته للمستقبل أخذت تبدو أحياناً غير منسجمة مع أفكار الآباء. إن ما يمكن تسميته بالصراع بين الأجيال بدأت تتجلى ملامحه. والأمر مرتبط برؤية العائلة ونظرتها إلى المجتمع الجديد.

وفي هذا الخصوص هناك طيف واسع من الآراء والرؤى لقضية الموقف من المجتمع الجديد يمكن تلخيصها في الاتجاهات الثلاثة التالية:

أ ـ اتجاه يعتبر هذا المجتمع فاسداً وشريراً وعليه واجب الحفاظ على الأبناء من شروره.

ب ـ اتجاه يرى أن هذا المجتمع هو مجتمع راق ومتحضر ومن المهم الاندماج فيه كلياً وحتى الدعوة إلى قطع الجذور بأرض الآباء والانعزال عن محيط الجالية.

ج ـ الاتجاه الوسط، وهو الأوسع والأكبر، والذي يرى في هذا المجتمع ما هو متحضر ونافع ومتطور وينبغي الاستفادة من هذه الجوانب الإيجابية. كما يرى في الوقت نفسه شرور هذا المجتمع ومساوئه وسلبياته ويسعى لتحصين أبنائه ضده. وهو لا يدعو إلى الانعزال كما لا يدعو إلى الاندماج والذوبان. بل يدعو إلى التفاعل والانسجام وعكس التنوع الحضاري والثقافي الذي يشكل «موزاييك» المجتمع البريطاني. وهذا الاتجاه لا يدعو إلى

قطع العلاقة بالجذور، وإنما يدعو إلى الحفاظ على الهوية ويسعى لنقلها إلى أبنائه والأجيال المقبلة. إن فرص التكامل للجالية العراقية متاحة، وهي مرهونة بالجيل اللاحق الذي سيولد هنا، وسيحمل على الأرجح الجنسية البريطانية. وآفاق العمل ستكون مفتوحة بالكامل أمامه. وفي مثل هذا الظرف يمكن أن يتحقق التفاعل الإيجابي المنشود.

الفصل الرابع

عقبات في وجه الاندماج: الجالية اليمنية ــ دراسة حالة

عبد الجليل الشايف(*)

مقدمة

نتوي في هذا البحث تزويد القارئ بتحليل لأوضاع الجالية اليمنية، ونناقش على نحو موضوعي ونقدي سبب عدم قبول الجالية في شفيلد بعض الخدمات المتاحة المقدمة من المجلس المحلي، وما ينبغي القيام به لضمان أن تلبي الخدمات حاجات الجالية. وسنتناول **أولاً** هذا بتقديم وصف موجز لسبب قدوم اليمنيين إلى هذه المدينة (لندن) والبيئة الاجتماعية التي يعيشون فيها. وفي حين أن الجالية اليمنية لا تدرك الخدمات المقدمة من السلطة المحلية فإن السلطة المحلية نفسها تجهل عموماً حاجات الجالية. ويثير هذا طبعاً بعض المسائل المهمة التي تحتاج إلى تمحيص.

ثانياً، سنركز على كيفية قيام الجالية اليمنية في العقود الماضية بالغوص عميقاً في مواردها الثقافية لتوفير الحد الأدنى من الخدمات، ولا سيما في غياب الخدمات التي تقدمها الدولة. إن من المثير للاهتمام في هذا الجزء من البحث ملاحظة الأهمية الكبيرة للجالية العاملة على النقيض من الجالية العاطلة عن العمل.

(*) مدير تربية مقاطعة شفيلد.

أخيراً سنبيّن أنه، على أساس علاقات الشعب اليمني التاريخية بقطاع الدولة، من المفهوم أنه يتعين على الدولة والقطاع التطوعي أن يعملا معاً تشييداً على البنى التحتية للجالية وليس تطوير خدمات لا علاقة تذكر لها بالحاجات. ونختتم بعرض اقتراح لطريقة تمكّن الجالية والمجلس المحلي من العمل معاً.

خلفيـة معلومـات

اتسمت العلاقة بين بريطانيا واليمن تاريخياً بالمواجهة السياسية والعسكرية. وكان الحكم الاستعماري والثورات اليمنية دالّين على هذه العلاقة، غير أن أشخاصاً قليلين يدركون أنه خلال عملية المواجهة تلك عمل آلاف اليمنيين واستقروا في بريطانيا.

اتسمت هجرة اليمنيين إلى بريطانيا بالطلب على العمال في صناعة السفن في القسم الأول من القرن العشرين وفي صناعة الفولاذ في عقد الخمسينيات. وكان هذا الطلب جزءاً من استراتيجية الهجرة البريطانية لدعوة العمال إلى تولي المهام الأقل أجراً في مجتمع صناعي متقدم. كانت تلك الأعمال قذرة وصاخبة وخطرة وذات أجور منخفضة وكان أفراد الطبقة العاملة الأصليون قد أصبحوا بصورة متزايدة يترددون في توليها.

يحصل اليمنيون في شفيلد لأسباب خارج إرادتهم على القليل من دعم الرعاية الاجتماعية المنظم من السلطة المحلية. وفي ما عدا العمل المتفاني لمتطوعي الجالية اليمنية وعمل فريق مهم من الجالية تولى دوراً مهماً في الحصول على الحد الأدنى من الدعم والمساعدة في زيادة الوعي في السلطة المحلية، لم يكن هناك سوى دعم لقليل من خدمات الأسرة والجالية وأقسام المجلس المحلي الأخرى.

إن أسباب هذا الإهمال معقدة ومثيرة للاهتمام معاً، وهي متصلة بالوعي والمال وسياسات السلطة المحلية وبالعنصرية. وسنركز قليلاً على كل من هذه بالترتيب:

أ ـ انشغال الجالية اليمنية التاريخي بالسياسات الدولية والشرق أوسطية والسياسات الداخلية للمجموعة ذاتها منذ أواخر عقد الخمسينيات يعني قلة الاهتمام بالضغط على الحكومة المحلية من أجل المساواة في الفرص أو المزيد من الموارد لليمنيين.

ب ـ تجاهل مجلس المدينة الجالية طويلاً. وكان المجلس يميل إلى ذلك في غياب التمويل لليمنيين والضغط المباشر من الجالية. ولم يكن هناك ميل لاستعمال الأموال المحلية من أجل العرب الذين اعتبرهم كثيرون في السلطة المحلية لغزاً، وكانت لدى الآخرين وجهة نظر نمطية عنصرية سهلة عنهم. وخلافاً للاعتقاد الرائج لم يضم العرب في بريطانيا إرهابيين أو شيوخ نفط أو أصوليين إسلاميين!

ج ـ تميل سياسات السلطة المحلية إلى النظر بعين الريبة إلى أية مجموعة من السود لا تهتم بطلب المساعدات من السلطة المحلية، وتنخرط بدلاً من ذلك في تطوير جاليتها والمشاركة في السياسات والتضامن الدولي. وقد ساء الوضع بسبب حقيقة أن كثيرين من العمال اليمنيين انخرطوا على نطاق واسع في سياسات وطنهم مؤيدين للثورة اليمنية في عقد الستينيات وتطورها في عقد السبعينيات.

لقد عززت قوة الشبكات الداخلية اليمنية عملية كان لليمنيين بموجبها اتصال محدود للغاية ببقية المجتمع. ومنع هذا، إلى حد ما، أي اتصالات ممكنة بالمؤسسات الحكومية التي ربما كان تطورها ممكناً.

صورة الجالية اليمنية

تولت جمعية الجالية اليمنية ومجلس مدينة شفيلد في شباط/فبراير ١٩٨٧ إجراء مسح للعمل والبطالة في الجالية اليمنية في شفيلد. جرت مقابلة ٢٦٧ رجلاً و٨٧ امرأة في هذا المسح. كان ذلك فحصاً فريداً لجالية من العمال العرب في المملكة المتحدة، وقد وفر معلومات واضحة عن انتشار البطالة على نطاق واسع. ويكشف الجدول رقم (٤ ـ ١) مدى انتشار البطالة في علاقتها بتاريخ الاستيطان.

الجدول رقم (٤ ـ ١)

الاستيطان والبطالة بين الرجال بحسب سنة الوصول إلى شفيلد
(تحليل ٢٦٧ مجيباً ذكراً على مسح الجالية اليمنية)

	عدد المستقرين في شفيلد	النسبة المئوية للعاطلين
قبل عام ١٩٣٩	٣	ـ
١٩٤٠ ـ ١٩٤٤	٠	ـ
١٩٤٥ ـ ١٩٤٩	٢	ـ
١٩٥٠ ـ ١٩٥٤	١٤	٧٩
١٩٥٥ ـ ١٩٥٩	١٢٥	٧٣
١٩٦٠ ـ ١٩٦٤	٣٩	٨٧
١٩٦٥ ـ ١٩٦٩	٢٤	٥٤
١٩٧٠ ـ ١٩٧٤	٢١	٧١
١٩٧٥ ـ ١٩٧٩	٧	٥٧
١٩٨٠ ـ الوقت الحاضر	١٣	٦٢
المولودون في المملكة المتحدة	١٩	٧٩

المصدر: مسح الجالية اليمنية ([اليمن]: جمعية الجالية اليمنية؛ مجلس مدينة شفيلد، ١٩٨٧).

شهدت أواخر عقد السبعينيات وأوائل عقد الثمانينيات تدهور صناعة الفولاذ وجاءت معه عمليات التسريح الواسعة لعمال كثيرين. وعانت الجالية اليمنية في شفيلد على نحو غير متناسب معدلات عالية للبطالة والمشكلات المصاحبة لها: الفقر وسوء الصحة وسوء أو غياب الرعاية الاجتماعية وانقسام الأسر والأمية. وعلى الرغم من تقديم الجالية مساهمة اقتصادية للمجتمع البريطاني فإن صورتها كانت غير ظاهرة، ويمكن القول إلى حد ما إنها تعد «غير مرئية» للجمهور البريطاني.

الهوية الثقافية اليمنية في المجتمع البريطاني

يكشف وصف وثيق لهذه الجالية عن هوية ثقافية فريدة حافظت على نحو يسترعي الانتباه على قوة اليمنيين ووحدتهم. ويوفر تمحيص هيكل الجالية الاجتماعي منظوراً مفيداً في حركية (دينامية) الجالية اليمنية وأعمالها.

لقد شغل اليمنيون موقع الفقر في المجتمع البريطاني فضلاً عن غياب الفرص الاجتماعية. وعلى الرغم من الحاجة إلى دعم الدولة في حقوق الرعاية الاجتماعية والتعليم والصحة وحقوق العمل لم يُظهر اليمنيون أنفسهم سوى

اهتمام قليل بفهم سياسات الحكومة المحلية أو السياسات الوطنية البريطانية. واستُعمل كثير من وقتهم في العمل واقتصر الوقت الباقي على اجتماعات حول السياسة الدولية ولعب الورق في المقاهي. ويقدم وصف جان سوانسن اليمنيين في الولايات المتحدة نظرة إلى هذه العملية:

«يقسم المهاجر في أميركا وقته بين منزله ومقهاه وعمله. ونادراً ما لا يكون بصحبة رفاقه في أي من هذه الحالات. والواقع أن حياته قد تكون معزولة جداً عن بقية المجتمع الأمريكي بحيث إنه قد يعيش عدة سنوات في قلب المدينة ولا يحصل إلا على أبسط الفهم السطحي للثقافة التي هو جزء منها»[(١)].

ومن المثير للاهتمام ملاحظة أن اليمنيين في شفيلد، في ما عدا العمل في الصناعة، بقوا منعزلين عن نشاطات اجتماعية وتعليمية وسياسية مهمة كثيرة. ولم يستفيدوا من الخدمات التي يتيحها التعليم والسياسات المحلية ونقابات العمال والأدب والرياضة، الخ. ويصف سالم حميد، الناشط في الجالية، ذلك على النحو التالي:

«شعرنا كيمنيين بالأمان في بقائنا كأسرة واحدة وكوحدة واحدة، نتشاطر اللغة نفسها والعقائد الثقافية والدين. واهتمت نشاطاتنا السياسية بوطننا وليس بما كان يحدث في بريطانيا. واعتقدنا بإخلاص أننا هنا لنعمل وليس لنستقر. لقد علّمنا التاريخ أن استراتيجيتنا كانت غير صحيحة».

لقد شعر كثيرون في الجالية اليمنية بأنهم لو حاولوا الانصهار في المجتمع البريطاني لأصبحوا مرئيين أكثر وهدفاً سهلاً للعنصرية. ويرى الباحث داهيا (Dahya) الذي يكتب عن اليمنيين في بيرمنغهام أنه:

«لو شارك اليمنيون في عملية الانصهار لبدوا أنهم يتحدون السكان المحليين في ثلاث مسائل: الأعمال والإسكان والنساء. لقد اختاروا بدلاً من ذلك عدم الانصهار وفضلوا التكيف وحافظوا بذلك على هويتهم المستقلة،

---

(١) Jon C. Swanson, «Sojourners and Settlers in Yemen and America,» paper presented at: *Sojourners and Settlers: The Yemeni Immigrant Experience* (Exhibition), edited by Jonathan Friedlander; associated editor Ron Kelley (Salt Lake City: University of Utah Press; [Los Angeles]: G. E. von Grunebaum Center Near Eastern Studies, University of California at Los Angeles, 1979).

وحاولوا تجنب الصراع من خلال عملية الفصل الاختياري... إن المهاجرين اليمنيين يقيدون اتصالاتهم بأعضاء المجتمع المضيف إلى الحد الأدنى، ويتولون أدواراً يعدها المجتمع المضيف ملائمة لهم. أي أن المهاجرين لا يَظهرون في عيون المجتمع المضيف كمنافسين، ولذا يتجنبون حالات الصراع»(٢).

زود اليمنيون الواحد منهم الآخر، عبر شبكاتهم الخاصة بهم، ليس بالدعم الاجتماعي والاقتصادي فحسب، بل نظموا كذلك صفوفاً لمحو الأمية بالعربية والانكليزية، وأسسوا مدرسة لغات لأطفال الجالية. لقد تباهوا بهذه النشاطات ولم يطلبوا المساعدة من المجلس المحلي أو أية وكالات أخرى. وأسسوا هذه المشروعات بأنفسهم من خلال مساهمتهم المالية وتولوا إدارتها عن طريق المتطوعين. ولم يظهر المجلس نفسه سوى اهتمام قليل، ونتيجة لذلك لم تحقق هذه المشروعات إلا نجاحاً محدوداً. غير أن اليمنيين شعروا بالاعتزاز بدعم أنفسهم عبر الوسائل الثقافية، وتعاونوا ونظموا أنفسهم لتلبية تلك الحاجات على الرغم من غياب الدعم من الدولة.

في عقد التسعينيات أصبح اليمنيون مندمجين في المجتمع إلى حد ما. ويعود ذلك بخاصة إلى التطورات التي حدثت مؤخراً عن طريق تحسن العلاقات بين المجلس والجالية. ويبرز ذلك تعيين مستشار وموظف لشؤون الجالية. وفضلاً عن ذلك ثمة جيل جديد من الشباب القادر على تحديد حاجات اليمنيين الملحة في شفيلد. وأصبحت الحملة اليمنية لمحو الأمية، والمشروع اليمني للتدريب، والمراكز الاقتصادية والتدريبية اليمنية، وسائل مهمة لتحقيق تطور في الجالية.

الثقافة كمورد قوي

على الرغم من الجهد الواسع لا تزال إدارات كثيرة تتولى مسؤولية تقديم الخدمات الاجتماعية في بريطانيا تخفق في منح الدعم المناسب للسود. وفي ضوء الحاجات الأكبر إلى هذه الخدمات في هذه الجاليات يصبح عدم تقديمها هذا إهمالاً خطيراً. والواقع ان اليمنيين في شفيلد يتلقون دعماً ضئيلاً أو لا يحصلون على أي دعم على الإطلاق.

---

(٢) Bader Ud-Din Dahya, «South Asian Urban, with Special Reference to Asian Muslim Immigrants in the English Midlands,» (Ph.D. Thesis, no. 576, London, 1967).

وتثير هذه الحالة، وفي غياب الدعم من الدولة بعض الأسئلة:

أ ـ ماذا تفعل هذه الجاليات؟ هل تقدم الدعم المشترك/الطوعي؟

ب ـ هل تحقق نجاحاً محدوداً أم لا تحقق أي نجاح؟

ج ـ إذا ساعدت الجاليات نفسها، هل يعني هذا أن لا تعود الدولة بحاجة إلى الاهتمام بحاجاتهم إلى الخدمات؟

د ـ هل تتوقع نجاحاً أكبر إذا ساعدتها الدولة؟

هـ ـ إذا لم تساعدها الدولة كيف تكون صلة الدولة بهذه الجالية؟

هذه أسئلة مركزية ومعقدة ينبغي الرد عليها، غير أنها أيضاً مسائل تميل دوائر الخدمات الاجتماعية إلى تجنّبها، ربما لأنها تبتعد عنها لضيق الوقت والموارد، وتتطلع مراراً نحو حلول أكثر بيروقراطية. ونتيجة لذلك فإنها تعرض غطاء غير مناسب وتواجه صعوبة في معالجة المسائل السياسية حول أسلوب تحديد البيروقراطية وأولويات الخدمات والإنفاق.

إن إهمال الدولة لجماعات الطبقة العاملة يرغم تلك الجاليات، كالجالية اليمنية، على البحث في مواردها الثقافية الخاصة من أجل إيجاد الحلول. وفي حالة اليمنيين في شفيلد أقامت الجالية لنفسها إطاراً شاملاً من الحد الأدنى من الخدمات الاجتماعية والرعاية الاجتماعية البديلة في حالة غياب الدعم من الدولة. وسننظر في ذلك لاحقاً بمزيد من التفصيل.

أثناء إجراء بحث الجالية اليمنية (١٩٨٧ ـ ١٩٨٩) سُئل كل الرجال والنساء الذين اشتركوا في الدراسة: هل حصلتم على دعم ومساعدة العمل الاجتماعي؟ وممن؟ وكيف كان تقويمهم للمساعدة؟ قال ٨٤ شخصاً إنهم احتاجوا إلى تلك المساعدة غير أنهم أشاروا إلى أنهم قصدوا بالدعم من العمل الاجتماعي العاملين في المركز اليمني، أي ليس العاملين الاجتماعيين في خدمات الأسرة والجاليات.

يعني هذا بوضوح أشياء إيجابية ومثيرة للاهتمام عن الموارد الثقافية لمجموعات سوداء كثيرة في بريطانيا تمكّنهم من الاستجابة لجالياتهم. غير أنه بسبب غياب التمويل في هذه الجاليات لا يمكن أن تحل هذه الموارد محل ما تقدمه الدولة. وعلى الرغم من عدم تقدير الدولة لها يمكنها أن تقدم إطاراً مهماً ومناسباً لإعانة إضافية من الدولة، وتستطيع الدولة أن تبنى استجابة

خدمتها حول ما تقدمه الجاليات.

وبانتهاج مثل هذا الأسلوب تستطيع الدولة، لا أن تضمن فقط وصول خدماتها إلى من تستهدفهم بل أداء ذلك بكلفة منخفضة وعلى نحو فعال أيضاً. غير أن الأمر الأكثر أهمية هو أن هذا النهج يمنح الجالية استقلالاً يمكنها من خلاله تقدير قيمة تقديم الخدمات الذي تستطيع به مكافحة ضغط الدولة البيروقراطي، وبالتالي تغيير الطرق «التقليدية» للإيصال لتصبح أكثر فعالية وأقل بيروقراطية.

إننا نعتقد أنه على الرغم من تفاعل اليمنيين المحدود مع النشاطات السياسية المحلية فإن تنظيمهم السياسي الداخلي مثير للإعجاب. لقد اشتروا ـ باتباع سياسة الاعتماد على الذات ـ مركز الجالية الخاص بهم، وتبرع بعض الأشخاص برواتبهم الكاملة لثلاثة أسابيع، وتبرع آخرون بأكثر من ذلك. كان الهدف تطوير قاعدة سياسية واجتماعية واقتصادية شاملة تعنى بحاجات الجالية وتحافظ على الصلات بالوطن. وفي ما يخص الوطن طور اليمنيون فهماً سليماً للثورة في اليمن، وقدموا تبرعات لبناء المدارس والطرق والمستشفيات وشراء المعدات المفيدة لإخوتهم وأخواتهم هناك. غير أن النجاح كان محدوداً من حيث تلبية حاجات الرعاية الاجتماعية والحاجات الصحية والتعليمية من خلال الإعانات من الدولة. وكان ذلك لعدم وجود فهم للنظام البيروقراطي المحلي، وعدم إتقان اللغة الإنكليزية، وافتقارهم إلى المهارات والخبرة في ميدان الحكم المحلي وتطوير الجالية. ولفهم أسلوب الجالية اليمنية في تطوير هذه الشبكة يحتاج المرء إلى بحث عملية الهجرة.

لم تكن الهجرة اليمنية إلى بريطانيا عملية واسعة ومتزامنة، بل تدريجية. واستقر القادمون الأوائل في المدن الصناعية مثل شفيلد، وحصلوا على وظائف وأسسوا دور الإقامة، ومهدوا لقدوم الأقارب والأصدقاء وانضمامهم إليهم. وحال وصول المهاجرين الجدد كان يتم إسكانهم وتقديم المساعدة لهم في إيجاد العمل وتعرفّهم على المدينة.

وبهذه الطريقة أسست شبكات تضامن صغيرة غير نظامية وأُبقي عليها ضمن الجالية. وأصبحت هذه الشبكات جزءاً فريداً من الثقافة اليمنية مقدِّمة الدعم بالمال والنقل والتوظيف والسكن. وتفاعل اليمنيون الواحد مع الآخر في ثقافة من الاعتماد المتبادل تعني أن علاقتهم بالمجتمع البريطاني محدودة. ولم تسمح لهم طبيعة شبكاتهم الداعمة بتطوير علاقة مع بقية السكان.

لقد عاش معظم العمال اليمنيين في الشوارع نفسها وفي المناطق نفسها في المدينة، وشاطر من جاءوا من القرية نفسها والمنطقة نفسها في الوطن المنازل نفسها وعملوا في المصانع نفسها. ويصف الباحث محمد أنور هذه العملية بأنها عملية «تغليف» (Encapsulation): «هذه العملية، التي تعرف بأنها عملية «تغليف»، تعني أنه بالنسبة إلى معظم ضروريات الحياة عاش المهاجر ضمن «قرية حضرية» تضم مواطنيه»(٣).

كذلك لم يزود اليمنيون الذين عاشوا في شفيلد طوال عدة عقود ضمن قريتهم بأي تدريب لغوي أو دعم من صناعة الفولاذ، ونتيجة لذلك اضطروا إلى مواجهة العواقب اللغوية لهذا الوضع. لم يكن الكثيرون منهم يعرفون سوى بعض العبارات للتعامل مع العالم الخارجي وكان مستواهم في القراءة والكتابة محدوداً للغاية.

لقد شعر اليمنيون أن اللغة المهمة الوحيدة التي يحتاجون إلى فهمها في بريطانيا هي اللغة المتعلقة بأداء العمل في الصناعة، وترتيب تحويل الأموال إلى أسرهم وإنجاز المعاملات المتعلقة بجوازات سفرهم أو البحث عن عمل آخر. يقول غسان ظالي، ممثل المجموعة التربوية الفرعية في مركز الجالية اليمنية:

«لقد اتخذ آباؤنا اختيارات صعبة بالقدوم إلى هذا البلد بحثاً عن عمل. وعلينا حالياً رعايتهم وتزويدهم بالرعاية والتعليم. ليس لنا خيار في ذلك إطلاقاً. إنه واجبنا ومسؤوليتنا، وبخلاف ذلك سيبقون يعانون وهذا أمر غير منصف».

---

(٣) Muhammad Anwar, *The Myth of Return: Pakistanis in Britain* (London: Heinemann, 1979).

الجدول رقم (٤ ـ ٢)
الاستيطان ومعرفة القراءة والكتابة للرجال بحسب سنة الوصول
(أعداد المجيبين على مسح الجالية اليمنية)

	بطلاقة	جيد نسبياً	قليلاً	لا يعرف إطلاقاً
قبل عام ١٩٣٩	٢	١		
١٩٤٠ ـ ١٩٤٤		صفر	صفر	
١٩٤٥ ـ ١٩٤٩		١	١	
١٩٥٠ ـ ١٩٥٤	١	٦	٧	
١٩٥٥ ـ ١٩٥٩	٦	٤٧	٦٧	٥
١٩٦٠ ـ ١٩٦٤	صفر	١٤	٢٤	
١٩٦٥ ـ ١٩٦٩	١	١٤	١٠	
١٩٧٠ ـ ١٩٧٤	١٣	٥	٣	
١٩٧٥ ـ ١٩٧٩	٤	٢	١	
١٩٨٠ ـ الوقت الحاضر	٦	٧	صفر	
المولودون في المملكة المتحدة	١٦	٣		

المصدر: المصدر نفسه.

من حيث الكفاءة في اللغة الإنكليزية المحكية كانت نسبة ١٨ بالمئة من المشمولين بالمسح ويتحدثون الإنكليزية بطلاقة، ممن وصلوا قبل عام ١٩٦٥، ونسبة ٦٩ بالمئة ممن يتحدثون بها على مستوى جيد نسبياً ممن وصلوا قبل عام ١٩٦٥ بالمقارنة مع ٨٧ بالمئة لا يعرفون سوى القليل من الإنكليزية. لذا على الرغم من طول مدة إقامتهم وعملهم والوصول المفترض إلى المؤسسات التعليمية فإن الكفاءة في اللغة الإنكليزية تتناسب عكسياً مع مدة الاستيطان.

وحافظت الجالية اليمنية ـ في غياب دعم الدولة وحواجز اللغة التي واجهت اليمنين ـ على درجة عالية من الحماسة والتصميم في عملية الاستجابة لحاجات الجالية الملحة.

كان اتحاد العمال اليمنيين والاتحاد العام للمهاجرين اليمنيين وجمعية الجالية اليمنية الهياكل التنظيمية التي أصبحت أدوات ومراكز تقديم الخدمات لليمنين.

وقد اتبع اليمنيون في شفيلد ـ من منتصف عقد الستينيات إلى أواخر عقد السبعينيات سياسة مساعدة أنفسهم، وهي سياسة صاغتها إلى حد ما

الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشوا فيها. ودعم أفراد الجالية نوعية التزويد المتاح وفائدته، غير أن من الإنصاف القول إن نجاحه كان محدوداً. كان بالإمكان أن يعزز دعم الدولة ومواردها كثيراً مستوى الدعم المقدم، وفضلاً عن ذلك كان ممكناً أن تتطور الصلات بقطاع الدولة في وقت مبكر خلال تلك الفترة، على أساس توفير مجموعة واسعة من النشاطات التعليمية والثقافية.

عندما وصل اليمنيون إلى شفيلد لم تكن هناك أدلة مادية على ثقافتهم أو طريقة حياتهم في هذه المدينة، سوى الصور التي جلبوها معهم لأسرهم والقرية. وعلى الرغم من غياب الهوية الثقافية، شارك اليمنيون منذ اليوم الأول في النضال لإعادة تشكيل هويتهم الخاصة. وقد فعلوا ذلك مستعينين بذخيرة من الأغاني والطعام واللغة والنشاطات الدينية والسياسية من اليمن. ورفع نضالهم لتطوير نشاطاتهم الثقافية صورة هويتهم، وقدم لهم بنية ووسيلة لمواجهة الصعوبات في مجتمع كان واضحاً أنه يمارس التمييز ضدهم في نواحي الحياة كافة. ولا ريب في أن الكفاح من أجل شراء مركز الجالية في شارع بيرنغريف وإقامة مدرسة لغات للأطفال والكبار تابعة للمركز، وتأسيس عدة مساجد في المدينة، وتطوير هيكل الدعم السياسي، كانت هي وسائل تحديد الهوية الثقافية. ولذا أصبحت ثقافة اليمنيين مورداً قوياً للبقاء. وكانت المرحلة الثانية من هذا الكفاح الحصول على الإعانات من الدولة.

توفير المساعدات الذاتية من الجالية

اتسم عقدا الستينيات والسبعينيات بدرجة من الاعتماد الذاتي ودرجة عالية من التسييس، غير أن اليمنيين شهدوا في أوائل عقد الثمانينيات تحولاً مثيراً في تطور الجالية وفي حياتهم. أصابت البطالة قلب الجالية اليمنية. وبدأ اليمنيون إقامة الصلات مع الحكومة المحلية، وبدأت حقبة جديدة من تطور الجالية:

أ ـ كشفت بطالة اليمنيين بأعداد كبيرة في أواخر عقد السبعينيات وأوائل عقد الثمانينيات الواقع المرتبط بالبطالة، بما في ذلك الفقر والملل وسوء الصحة والعنصرية. وأدرك اليمنيون أنهم كانوا قد شيدوا في وطنهم قصوراً في الهواء، وأصبح عليهم أن يواجهوا الجوانب القاسية في الحياة التي لم يكونوا مستعدين لها.

ب ـ أصبحت البطالة تعني أن أفراد الجالية لم يعودوا قادرين على تقديم التبرعات لنشاطات الجالية، ولذا كان على اليمنيين اتباع وسائل بديلة للتمويل.

ج ـ شجع مسؤولو الحكومة اليمنية الذين زاروا الجالية العمال اليمنيين على البحث عن الدعم من المجلس المحلي، ولا سيما لتطوير مدارس اللغة التابعة للجالية للأطفال والبالغين.

د ـ كانت الجاليات الأخرى في المدينة تطور صلات مع الحكومة المحلية وتحصل على اعتراف أكبر بها.

هـ ـ كان لليمنيين في السابق اتصال محدود بالمجتمع البريطاني، لأن اتصالهم الرئيس اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً كان مع اليمن. وغيّرت آثار البطالة هذا التفكير. واستقدم الكثيرون أسرهم واستوطنوا هنا مدركين أهمية أن يصبحوا جزءاً من هذا المجتمع، فضلاً عن المحافظة على صلات قوية بالوطن الأصلي.

و ـ ساعدت الصلات مع الحكومة المحلية إلى حد ما في تطوير نشاطات كثيرة منها الرعاية الاجتماعية والمشورة ومدارس اللغة التابعة للجالية. وعلى الرغم من هذه العلاقة الجديدة لا يزال دعم المجلس ناقصاً لا يلبي حاجات الجالية اليمنية، ولذا يستمر اليمنيون في استخدام مواردهم الثقافية لتلبية حاجاتهم. ويشرح ذلك أحمد محمد صالح، ممثل لجنة إدارة مركز الجالية اليمنية:

«إنه لواجب أخلاقي على اليمنيين تأمين المستلزمات للجالية، من أجل أطفالهم وشيوخهم. إن تأمين المستلزمات مسألة مهمة والحصول على التمويل أمر ثانوي. ونحن نفكر ونعمل على نحو مشترك وطوعي».

وعلى الرغم من النواقص في الدعم من الدولة يدرك اليمنيون ويقدرون الدعم المحدود الذي يتلقونه من المجلس. ويتحدث عضو بارز في جمعية الشباب اليمنيين عن الدعم الذي يقدمه المجلس على النحو التالي:

«عندما كنا نعمل كان في وسعنا دفع التبرعات، أما الآن فنحن عاطلون عن العمل ولا يمكننا دفع المال. وفي هذه الحالة نحن نرى أن الدعم الذي يقدمه مجلس مدينة شفيلد ثمين ونقدره عالياً. إنه يخفض العبء عن أعضائنا».

ويعتقد اليمنيون أنهم يعرفون حاجاتهم على النحو الأفضل، ولذا يشعرون أن ما تقدمه الدولة إلى سكان شفيلد البيض لم يلب ولا يلبي حاجاتهم. ونحن نذهب إلى أن سبب هذا هو الغياب التام للخدمات التي تستهدف اليمنيين في شفيلد ولها صلة بهم. ويمكن ملاحظة مثال هو حالة هرب فتاة عمرها ثلاث عشرة سنة من منزلها. يستخدم قسم الخدمات الاجتماعية في معظم الحالات إجراءاته ونظمه في معالجة مثل هذه المشكلة، ويفصل نفسه عن شبكة الجالية التي يمكن أن تستعمل على نحو فعال لدعم الخدمات الاجتماعية في حل هذه المشكلة، بحيث تؤخذ بعين الاعتبار الجوانب الثقافية والأسرية والدينية في الجالية. إن الخدمات الاجتماعية ستضطر إلى الاستعانة بذلك المورد في الجالية التي يمكن استخدامها كأداة استشارة ونصح. وكما تفسر ياسمين أنور من جمعية النساء اليمنيات:

«يجهل مسؤولو المجلس في معظم الحالات حاجاتنا وثقافتنا وديننا وقدرتنا على حل الكثير من مشكلاتنا داخلياً. إن بالإمكان استخدام مجموعتنا النسائية على نحو فعال لحل المشكلات الأسرية بضرر محدود وتقديم الدعم الأقصى إلى الأسرة والشابة ذات العلاقة».

المرأة في الجالية

المرأة هي القسم الذي لقي أشد الإهمال في الجالية اليمنية. وبسبب طبيعة الصناعة التي عمل فيها العمال اليمنيون لم تحصل سوى قليلات للغاية من اليمنيات على العمل. وأولئك النساء اللاتي يعملن يتقاضين أجوراً قليلة للغاية. وبالإضافة إلى هذه المشكلة ليست للنساء - لأسباب ثقافية ومنزلية - سوى فرص أقل للحصول على فرص جيدة للتعليم والعمل.

لم يجدد **مسح الجالية اليمنية** (من عينة صغيرة) سوى عشر نساء كن قد استوطنّ في شفيلد قبل عام ١٩٧٠. كانت الجالية اليمنية قبل ذلك، ولا تزال، تضم أغلبية من الرجال وتشير إلى أنماط معينة من هجرة العمال العرب وآثار السيطرة في الهجرة. وكان رجال كثيرون ولا يزالون غير قادرين على استقدام زوجاتهم وأطفالهم إلى بريطانيا.

الجدول رقم (٤ ـ ٣)

النشاط الاقتصادي بحسب الجنس (من النشيطين اقتصادياً) (بالمئة)

	الرجال	النساء
العاملون	٦٦ (٢٦)	٩ (٢٢)
ذوو المهن الحرة	٥ (٢)	١ (٢)
العاطلون عن العمل	١٨٢ (٧٢)	٣٠ (٧٥)
الطلبة	٥	١
المتقاعدون	٩	٣
«ربات البيوت»	صفر	٤٣
المجموع	٢٦٧	٨٧

المصدر: المصدر نفسه.

إن ٧٥ بالمئة من النساء اللاتي تم تعريفهن بأنهن في سوق العمل عاطلات عن العمل، و٧٢ بالمئة من الرجال عاطلون عن العمل أيضاً.

كانت ١٥ امرأة في المسح بيضاوات مولودات في المملكة المتحدة ومتزوجات من رجال عرب. وبين النساء اليمنيات ـ المولودات في اليمن أو في المملكة المتحدة ـ بدا تحديد كونهن يبحثن عن عمل متعلقاً بإتقانهن اللغة الإنكليزية المحكية.

وزاد عدد النساء اللاتي وصلن إلى شفيلد زيادة كبيرة في منتصف عقد السبعينيات وأوائل عقد الثمانينيات، وساهم هذا بدوره في التحولات الإيجابية في مواقف اليمنيين نحو موقعهن ودورهن في المجتمع. فشددن نضالهن للمحافظة على هويتهن الأسرية والثقافية في مجتمع مادي غير مسلم.

الجدول رقم (٤ ـ ٤)

الكفاءة في اللغة الإنكليزية

(تحليل ٧٢ امرأة أجبن عن مسح الجالية اليمنية)

	طليقات اللسان	لا بأس	قليلاً	بلا كفاءة
عاملات	٤		١	
ذوات مهن حرة	١			
عاطلات	١٥	٣	٣	
طالبات			١	
متقاعدات			٢	١
«ربات بيوت»	٩	٥	٢٣	٤

المصدر: المصدر نفسه.

والأرجح أن النساء الطليقات اللسان في اللغة الإنكليزية عاملات. كما أن النساء اللاتي كن طليقات اللسان أو لا بأس بطلاقتهن حددن بأنهن عاطلات عن العمل. وحددت النساء الأقل طلاقة في الإنكليزية بأنهن «ربات بيوت» أي غير نشطات اقتصادياً. وقد يرتبط هذا النمط كذلك بالعمر غير أنه يشير إلى علاقة بالتوظيف تنطوي على مشكلات لنساء الأقليات العرقية.

انتقلت النساء اليمنيات منذ عام ١٩٨٧ من وضع العزلة التامة إلى وضع مشاركة أفضل كثيراً. ويشمل هذا استعمال مركز الجالية اليمنية (كان تاريخياً حكراً على الرجال) وتنظيم أنفسهن للتحكم في حياتهن. وعلى الرغم من هذه التطورات لا يزال هناك قلق حقيقي من أنه لا تزال للنساء اليمنيات حاجات ماسة يتجاهلها المجتمع. ويهدف الاقتراح المطروح لاحقاً في هذا البحث إلى إجراء مناقشة بناءة مع مجلس المدينة يقود إلى زيادة الموارد للنساء وإلى محاولة حقيقية لحل بعض المشكلات.

المسنـون

إذا ركزنا على رعاية المسنين اليمنيين نجد أنه لا يكاد يوجد أي منهم في دور الرعاية التابعة للدولة. وليس السبب هو افتقار اليمنيين إلى هذه الخدمة، بل لأنهم يستعملون الشبكات الأسرية وشبكات الجالية لرعاية المسنين والمرضى والمعوقين. يقول بول حنيشي، مستشار مركز مشورة الرعاية الاجتماعية اليمني:

«هناك مئات من المسنين اليمنيين الذين يلقون الرعاية من الأسر والأصدقاء. إنهم يشعرون أنهم يلقون الرعاية من أناس يفهمون حاجاتهم ويمنحونهم الدعم العاطفي والبدني والنفسي الإضافي الذي لا يمكن تقديمه لهم في ملاجئ الدولة».

ويتناقش اليمنيون منذ عدة أشهر مع مساعد مدير خدمات الأسرة والجالية بهدف إعادة النظر في توجيه الخدمات الاجتماعية الحالية لتلبية حاجات الجالية. وكانت هذه المناقشات مثمرة في تقويم الحاجات التي لم يتم تلبيتها والخيارات الممكنة المتاحة لنا لتلبيتها. إن إعادة تشريع رعاية الجالية تتطلب إشراك القطاع التطوعي في تأمين الرعاية للمسنين. وهذا بدوره يؤمن فرصة ثمينة لليمنيين للعمل بالتعاون الوثيق مع القطاع الحكومي.

لقد عمل أفراد الجيل الأقدم من اليمنيين بجد شديد بكافة السبل لحماية

هويتهم الثقافية. غير أن أفراد الجيل الأصغر سناً يجدون أنفسهم في وضع أكثر تعقيداً. فهم يكافحون من جهة للمحافظة على ثقافتهم، ومن الناحية الأخرى يتكيفون مع الأوضاع والقيم الثقافية البريطانية. ويسبب هذا بعض الصراع بين الجيلين. وتعاني الأسر على نحو مؤلم هذا الصراع. ويتمسك أفراد الجيل الأقدم بثقافتهم، وهم غير مستعدين لأن يروا أبناءهم يتخذون ثقافة ليست لهم. وهذا بدوره يزود الجالية والقطاع الحكومي بنقطة انطلاق مفيدة لحسم الكثير من هذه المشكلات. إن المسنين في الجالية في حاجة حالياً إلى رعاية ودعم أكثر ملاءمة لتمكينهم من حل الكثير من المشكلات التي يواجهونها في الوقت الحاضر.

عمل الجالية اليمنية مع مجلس مدينة شفيلد

ترى الجالية أن مجلس المدينة ينبغي أن يستجيب للحاجات المحددة بطريقتين: أولاً بقيام الموظفين المسؤولين بتطوير فهم حول الحاجات المحددة للجالية وشبكات الدعم فيها، وثانياً بتوجيه موارد المجلس على نحو يُبنى على ما تقدمه الجالية نفسها ودعمها.

بهذه الطريقة يكمل دعم الدولة الدعم الذي تقدمه الجالية على نحو تطوعي. وهذه هي الوسيلة الأكفأ والأكثر فعالية لتزويد خدمة متصلة بحاجات معينة بدلاً من خدمة للجميع لا تصل إلى من هم بأمسّ الحاجة إليها. ومثال على هذا النموذج من العلاقة بين المجلس والجالية واضح في الحملة اليمنية لمحو الأمية حيث تولى اليمنيون مسؤولية تعليم الكبار بإسناد من دائرة التربية في شفيلد وكلية شفيلد وجامعة هالام في شفيلد. ويمكن لخدمات الأسرة والجالية تبنّي هذه المبادرة الناجحة مع بعض التعديلات كما يوضح ممثل الحملة اليمنية لمحو الأمية:

«لقد منحت حملة محو الأمية الشباب فرصة لتحسين مستوياتهم التعليمية، بينما مكّنتهم في الوقت نفسه من تطوير برنامج تعليمي للكبار في هذه الجالية. منحت هذه الخطة ثقة للجالية لتقود وتصوغ سياسة حول حاجاتها التعليمية الخاصة بها».

لقد أنجزت حملة محو الأمية هدفها برفع مستوى الوعي حول التعليم بين أفراد الجالية اليمنية، غير أن الأمر الأهم هو أنها مكّنت اليمنيين من الوصول إلى التعليم الحكومي. وتقوم الكليات حالياً إلى حد ما بتقديم

الخدمات وفقاً لتلك الحاجات التي عبرت عنها الجالية لا تلك الحاجات التي سبق للمهنيين تحديدها. لذا فإننا نذهب إلى أن حملة محو الأمية كانت الأداة المستخدمة لإقامة بيئة تعليمية متكيفة. وقد كشفت خيارات الحملة في الأعوام الثلاثة الماضية نواقص المؤسسة التعليمية، فضلاً عن الإشارة إلى الفجوات في خدمات التعليم. وأبرزت حملة محو الأمية كيف يمكن التغلب على الممارسات العنصرية في مؤسسات الدولة. إن خدمات الأسر والجاليات في شفيلد جهاز بيروقراطي ضخم له ميزانية كبيرة (أكبر بإضافة رعاية الجالية). وعلى الرغم من هذا كله، فإنها تُخفق في تقديم خدمة ملائمة إلى الجاليات السوداء في هذه المدينة. وقد ذهبنا في هذا الفصل إلى أنه في غياب الدعم الحكومي المناسب والكافي في شفيلد أقام العمال اليمنيون، منذ وصولهم إلى هذه المدينة، إطاراً شاملاً لغرض الاستجابة لحاجاتهم الاجتماعية والصحية والتعليمية والدينية والثقافية. غير أن اتباع سياسة الاعتماد الذاتي لا تعني أنه لم تعد ثمة حاجة إلى الدعم الحكومي. على النقيض من ذلك نحن نرى أنه ينبغي أن يُبنى على تلك الخطوات الإيجابية التي تتخذها الجالية بحيث تصبح الدولة مشاركاً نشيطاً في إقامة خدمة شاملة واقتصادية الكلفة وفعالة ومستجيبة. وسيمكن ذلك تنظيم الجالية من الوصول إلى هيكل لصنع القرارات بشأن مسائل تتعلق بالخدمات إلى اليمنيين. ولا ريب في أن العلاقة بين مجلس المدينة واليمنيين قد تحسنت. وتم سد الكثير من الفجوات التي كانت قائمة سابقاً. وكانت للتشاور والحوار نتائج مثمرة، ونشأت الحاجة حالياً لمقترحات محددة لغرض تأسيس إيصال جيد للخدمات. ويعلق ممثل قيادي للجالية:

«لقد أصبحت الجالية، باتباع مناقشات معمقة مع المجلس، أكثر وعياً بأسلوب عمل المجلس والخدمات التي يقدمها. وقد رفع المجلس في الوقت نفسه مستوى الفهم بشأن جاليتنا. إننا أقل جهلاً بعضنا بالآخر».

وقال ستيف جونز، رئيس لجنة خدمات الأسر والجاليات التابعة للمجلس، في خطاب افتتاحي في مركز الجالية اليمنية:

«العمال اليمنيون في هذه المدينة أناس تقدميون، قدموا مساهمة مهمة لحياة صناعتنا ومدينتنا، ويقدر المجلس جيداً هذه المساهمة. إننا ندرك المشكلات التي تواجهها هذه الجالية ونحتاج إلى العمل معاً لتحسين مستويات معيشة السكان المحليين».

وقال مساعد مدير خدمات الأسر والجاليات في اجتماع تشاوري مع

أعضاء لجنة الإدارة: «بإجراء الحوار مع لجنة إدارة الجالية اليمنية استطعنا تقويم حاجات الجالية ومناقشة الخيارات الممكنة التي يمكن استخدامها لتلبية بعض هذه الحاجات».

لقد حاولنا شرح الأسباب الكثيرة لعدم استفادة اليمنيين من الخدمات الحكومية في الماضي، غير أنه حتى في المناخ الحالي لا يزال توفير الخدمات ناقصاً:

أ ـ الحكومة المحلية لا تقدم الخدمات الملائمة لتلبية الحاجات الخاصة المحددة من الجالية. ويؤدي ذلك، في معظم الحالات، إلى تبديد في الوقت والطاقة والمال والموارد البشرية.

ب ـ الافتقار إلى قنوات الاتصال السليمة بين الجالية والمجلس للتركيز على الحاجات والخدمات. ولا بد من أن تأخذ هذه القنوات بالحسبان الطريقة الثقافية في الحياة واللغة والدين للجالية اليمنية للبدء بمعالجة التباينات والتمييز في النظام.

ج ـ ينبغي توجيه المعلومات عن تزويد الخدمات وقبولها ثقافياً لكي يفهم أفراد الجالية المعلومات ويستعملوها لمصلحتهم. وتستطيع السلطة المحلية استخدام خدمة الترجمة فيها للقيام بذلك، أو يتولاها مركز الجالية اليمنية. ولكي تكون المعلومات فعالة لا بد أن تقدم بحساسية وعقلانية.

يجب أن تتحرك السلطة المحلية مع التحول الذي حدث بالنسبة إلى السود. فقد نشأت البنى الراهنة استجابة لحاجات البيض غالباً، على حساب الجالية السوداء. وينبغي فحص ممارسات الماضي بجد بهدف ضمان عدم تصارع القواعد والتعليمات والإجراءات الراسخة مع حاجات سكان شفيلد وحقوقهم وطموحاتهم.

إننا نرى أن حالات اختلال التوازن الخطيرة القائمة فعلاً هي نتاج الجهل التاريخي والعنصرية، وسيدعم تأثير عمل السلطة المحلية مع السكان السود على نحو تعاوني بلا ريب الاستراتيجيات التي قد تقود بدورها إلى تمكين السود من أن يصبحوا مشاركين نشيطين في مجتمعنا.

المشاركة بين القطاع الطوعي وترتيبات الدولة

إننا في حاجة إلى العمل معاً وتأسيس هيكل مشاركة يهدف إلى تطوير ترتيبات الجالية. ومن المهم للغاية لنجاح العلاقة بين الجالية والمجلس أن يسمح هذا الهيكل للجالية ببعض الاستقلال والقيادة لتمكين السكان المحليين

من تقويم إيصال الخدمات وتحديد الفجوات التي لا تلبيها الخدمة. وبعد فحص الموارد القائمة في الجالية سنمضي لطرح اقتراح لعلاقة تعاونية بين الخدمات الاجتماعية والجالية اليمنية.

الخدمات الحالية

تستفيد الجالية اليمنية من مركز استشارات أعيد تجهيزه تماماً وموظف استشارات بدوام كامل بتمويل ومجموعة من المتطوعين الشباب. إن هذه الخدمة رعاية اجتماعية حيوية يستعملها اليمنيون كافة في شفيلد. وقد تجاوزت الخدمات المقدمة معايير الحقوق والاستشارة في الرعاية الاجتماعية، وتم توسيعها أكثر مما ينبغي وأصبح معظم العمل عبئاً. ويفتقر المتطوعون الذين يساعدون في تقديم الخدمات إلى التدريب، وهم غير منظمين وليست لديهم حوافز للقدوم إلى العمل.

غير أن العمل الذي يقومون به يلقى التقدير الواسع، وسيؤدي غيابه إلى انهيار ترتيبات الرعاية الاجتماعية الراهنة. لقد أصبح هؤلاء المتطوعون جزءاً مهماً من البنية التحتية للجالية لإيصال الخدمات لليمنيين. ومن المفيد ـ كنقطة انطلاق ـ تقديم خلاصة بالخدمات التي يؤدونها:

أ ـ حقوق الرعاية الاجتماعية (الوظائف الرئيسة).

ب ـ رعاية المرضى والمسنين.

ج ـ الترجمة التحريرية والشفهية.

د ـ تأمين رعاية الأطفال.

هـ ـ طقوس الدفن الإسلامية.

و ـ النشاطات الثقافية والدينية.

ز ـ العمل مع الشباب.

ح ـ التدريب اللغوي والتدريب على العمل.

إننا نرى أن الطريقة الفضلى لتحسين الخدمات المذكورة وتطويرها هي باستغلال المجلس البنى التحتية للجالية وتطويرها. وبدلاً من الانطلاق من نقطة الصفر يستطيع المجلس العمل من أجل تطوير المهارات والخبرة الموجودة حالياً في الجالية وتنظيمها. وفي الوقت نفسه يمكن المجلس زيادة فهمه

للحاجة إلى الخدمات والاستراتيجيات الأكثر فعالية الضرورية للعمل مع الجالية اليمنية. إننا نرى أن أي نموذج يُستعمل لتطوير العلاقات بين المجلس والجالية ينبغي أن يكون نموذجاً للممارسة الجيدة التي تعزز التساوي في الفرص وتدمج حقوق الوصول إلى كل مستويات التخطيط واتخاذ القرارات.

دعم مجلس المدينة

من الجدير بالملاحظة أن المنحة المحدودة التي يقدمها المجلس متاحة للإبقاء على الخدمات المقدمة من قطاع المتطوعين. وبالإضافة إلى الدعم المالي كان استحداث وظيفة مستشار الجالية اليمنية في عام ١٩٩١ مهماً في المساعدة على إدخال تطورات حديثة كثيرة، منها نادي الغداء، ومشروع التدريب اللغوي، ودعم الرعاية المنزلية للمسنين، وتطوير مجموعات النساء، والعمل مع الشباب في مسائل التوظيف. وإلى جانب المساعدة في تأمين الدعم المالي من مجلس المدينة لهذه المبادرات استطاع مستشار الجالية متابعة الحصول على التمويل الإضافي من مجموعة متنوعة من المصادر الوطنية والأوروبية.

إن تطوير المركز الاقتصادي والتدريبي اليمني وتأسيس الحملة اليمنية لمكافحة الأمية مثالان مهمان للغاية لفائدة التعاون بين مجلس المدينة والجالية.

حاجات الجالية

يبلغ عدد أفراد الجالية اليمنية في شفيلد زهاء ٢٥٠٠ نسمة. ويعاني هؤلاء البطالة وتردي الصحة ورداءة السكن. وقد أبرز مسح الجالية اليمنية المجالات التالية: الصعوبات اللغوية ٧٤ بالمئة، نسبة البطالة ٧٩ بالمئة، الضعف في اللغة الإنكليزية ٧٣ بالمئة، ضعف طلاقة اللسان في الإنكليزية المحكية ٧٢ بالمئة، الأعمال الحرة أقل من ١ بالمئة، تردي الصحة المتعلق بالصناعة بين الرجال ٥٦ بالمئة ومشكلات كبيرة تتعلق بالعزلة وصعوبات اللغة التي تواجهها النساء. وفي ضوء هذه الحاجات توجد بلا ريب حاجة هائلة إلى المشورة والمعلومات والخدمات المستندة إلى الجالية لتقديم الدعم الأساسي والمفيد.

اقتراح لبرنامج تطوعي لرعاية الجالية

بعد مناقشة واسعة في الجالية حول مواجهة هذه الحاجات نطرح الاقتراحات التالية من أجل علاقات جيدة وفعالة. ويمكن المضي في تطوير

هذه الاقتراحات وعرض أي تعقيبات للمناقشة.

نقترح أن تقيم دائرة خدمات الأسر والجاليات والجالية اليمنية مشروعاً يمكن تسميته: مشروع رعاية الجالية اليمنية. تكون أهداف المشروع رفع مستوى فهم الخدمات والحاجات واستعمال الموارد المتاحة لتطوير هذه الخدمات لرعاية اليمنيين. وبهذه الطريقة يصبح القسم في الأمد البعيد حساساً تقنياً لحاجات اليمنيين ومستجيباً على نحو فعال، بينما يدرب ويعزز ويمكن الموارد في الجالية في الوقت نفسه. ويمكن المشروع أن يحدد الصعوبات الكثيرة التي يواجهها اليمنيون حالياً ثم استكشاف الاستراتيجيات التي يمكن تبنيها لتحسين الوضع الحالي.

أهداف المشروع

تكون أهداف مشروع رعاية الجالية اليمنية في تلبية حاجات الجالية هي تعزيز وإغناء عمل تنظيم الجالية اليمنية، ولا سيما في ما يتعلق بالمسنين والشباب والنساء. إن لكثير من الخدمات التي يقدمها التنظيم حالياً تأثيراً محدوداً بسبب الموارد المحدودة والاعتماد الشديد على بعض الأفراد لأداء معظم العمل. ويتولى مشروع رعاية الجالية، المؤلف من عشرة متطوعين يتكلمون الإنكليزية والعربية بطلاقة، دعم تزويد الخدمات وتطويرها بكلفة واطئة وإنتاجية قصوى.

يمكن أن يركز مشروع رعاية الجالية على الجوانب التالية من العمل:

أ ـ تقديم الخدمات للنساء لتطوير نشاطاتهن في الجالية اليمنية وتمكينهن من تنظيم حياتهن والسيطرة عليها.

ب ـ توصيل العمل الاستشاري إلى المسنين والشباب والمعوقين.

ج ـ تزويد المعلومات إلى أفراد الجالية حول خدمات المجلس. ويمكن العاملين في المشروع إصدار نشرة إخبارية شهرية.

د ـ تطوير وتعزيز الخدمات الحالية التي تقدمها الجاليه اليمنية على نحو يرتبط بالخدمات التي يزودها المجلس ويقويها. ويمكن أن ينطوي ذلك أيضاً على جمع المعلومات والبحث في الحاجات والاتصال بالوكالات الأخرى.

هـ ـ الاتصال بالمجلس حول حاجات الجالية. وبرفع وعي المجلس في ما يتعلق بهذه الحاجات يعمل المشروع أيضاً كمورد ثقافي ومرجع

للاستفسارات المتعلقة بالمسائل التقنية والثقافية. ويكون هذا مفيداً للغاية للعاملين الاجتماعيين الذين يعالجون الحالات الصعبة في الجالية اليمنية أو الموظفين الآخرين في المجلس الذين يعالجون المسائل المتعلقة باليمنيين.

هيكل المشروع

أ ـ تشكل مجموعة إدارة تتولى مسؤولية الإدارة الشاملة للمشروع. ويمكن أن تضم المجموعة أربعة ممثلين عن الجالية، وينبغي أن يكون اثنان منهم من النساء، وأن يكون هنالك ثلاثة ممثلين من المجلس، أحدهم عامل اجتماعي مؤهل له خبرة في العمل مع السود ويتمتع بوعي بقضايا السود.

ب ـ تحدد اللجنة الفرعية الاجتماعية والثقافية التابعة لمركز الجالية إطار المشروع وأهدافه بالتعاون مع اللجنة الإدارية للمركز.

ج ـ ينبغي اختيار عشرة متطوعين مع تحقيق التوازن بين الجنسين لتزويد الدعم لأفراد الجالية. (يحتمل أن يكون كثيرون من هؤلاء ممن يساهمون حالياً في الدعم الاجتماعي ودعم الرعاية الاجتماعية بصفتهم متطوعين).

د ـ ينبغي أن يصبح المركز الاستشاري للرعاية الاجتماعية مركز عمليات يعمل فيه مشاور بدوام كامل ويؤدي دوره في المشروعات والعمليات.

هـ ـ ينبغي أن تنظم اللجنة الإدارية لمركز الجالية اليمنية أعضاء الجالية وتعبئهم للعمل كمجموعة توجيه تضمن أوسع تمثيل ممكن للجالية.

و ـ ينبغي استعمال وسائط النقل في الجالية لمساعدة المعوقين ومن هم معرضون لاعتداء عنصري ليلاً. وينبغي البحث عن تمويل لهذا فوراً (يمكن المشروع الحصول على التمويل من الجمعيات الخيرية).

ز ـ ينبغي أن يخصص مرشد اجتماعي بعض وقته لتطوير المشروع وتأمين المشورة والتوجيه المهنيين للمتطوعين والجالية.

ح ـ ينبغي تخصيص منحة لمجموعة الإدارة لتغطية نفقات المتطوعين لأداء عملهم. ونرى أن هذا ينبغي أن يكون في شكل منحة سنوية لقطاع المتطوعين تبلغ ٢٧,٤٦٠ جنيهاً استرلينياً في السنة في البداية. ويمكن البحث عن الموارد من جهات أخرى وتعزيز العمل الطويل المدى للمشروع.

ط ـ ينبغي أن يؤمن القسم التدريب المناسب يوماً واحداً في الأسبوع على الأقل، بهدف تطوير المهارات والخبرة في الجالية. وينبغي أن يحصل ثلاثة

من المتطوعين على الأقل على مؤهلات مهنية. وتستطيع مجموعة التوجيه ومجموعة الإدارة العمل معاً لتطوير برنامج تربوي تعترف به الكلية المفتوحة في ساوث يوركشير أو هيئات أخرى.

ي - ينبغي السماح لعاملي الإرشاد والجالية الحاليين بمتابعة الدراسة لإنجاز المؤهلات المهنية لتمكينهما من توظيف مهاراتهما في المشروع. وفضلاً عن ذلك ينبغي أن يكون عملهما ضمن الجالية على أساس طويل الأمد مع مسار واضح للتدرج فيه.

ك - يحتاج القسم إلى متابعة منتظمة لمنحة المساعدة المخصصة ولضمان فعاليتها.

خاتمة

حاولنا في هذا البحث إبراز الجذور التاريخية للجالية اليمنية في شفيلد وأوضحنا اعتمادها على الذات في العقود الثلاثة الماضية، والتحول الحالي نحو سياسة التعاون مع الحكومة المحلية. وبالطبع فإن النهجين مرتبطان جوهرياً، ويمكن استخدام مشروع رعاية الجالية التطوعي كنموذج لتقديم الخدمات الفعالة للسود في شفيلد.

من المهم أن نلاحظ في هذه الخاتمة أن كفاح اليمنيين في شفيلد نحو التقدم يشبه كفاح مجموعات عرقية أخرى كالباكستانيين والبنغاليين، وإلى حد ما الأفارقة الكاريبيين. وقد شاطرهم اليمنيون الأسباب نفسها للقدوم إلى المملكة المتحدة، وإلى شفيلد بالذات، وأنماط الاستيطان نفسها والظروف الاجتماعية والاقتصادية ذاتها. ولذا فإن الكفاح أمام اليمنيين مرتبط جوهرياً بكفاح السود عموماً. كان السود في عقدي الخمسينيات والستينيات يعملون جميعاً تقريباً في قاع الهرم الصناعي ويؤدون الأعمال التي لم يكن يريدها العمال من السكان الأصليين. وفي عقد التسعينيات تفشت البطالة، والأرجح أن عدد السود العاطلين عن العمل أكبر من عدد أقرانهم البيض.

ونظراً إلى تاريخ اليمنيين في التنظيم الذاتي المتميز فإنهم حالياً في مرحلة انتقالية تتطور نحو النشاطات الاجتماعية السائدة. وعلى الرغم من أنهم إلى حد ما لا يزالون يفخرون بأنهم جالية حضرية مغلقة، فقد بُذل الكثير لكي يصبح أفرادها مشاركين اجتماعيين واقتصاديين وسياسيين نشطين في الجالية الأوسع.

لقد لخصنا في هذا البحث اقتراحاً للتعاون على نحو يعزز عمليات وآليات التغيير. ولا يزال من الضروري اكتشاف الكثير بمرور الوقت، ولن يؤدي سوى الصبر والفهم والتصميم إلى تحقيق التغيير. وإذا أريد تطوير مشروع كهذا، فإن السبيل المنطقي لضمان ذلك هو متابعته باستمرار وتأمين الموارد له لضمان نجاحه وليس إخفاقه.

الفصـل الخامـس

«مجتمع عربي» في لندن: دور الجمعيات المحلية

كارولين نخل(*)

مقدمة

يؤخذ مفهوم العرق في حياتنا اليومية غالباً باعتباره من المسلّمات. ويطلب منا بشكل روتيني في العمل أو في المدرسة ملء نماذج تستوجب ذكر عرقنا. وندرج في تعدادات السكان حسب عضويتنا في جماعة عرقية معينة. ونتكلم في محادثاتنا العامة عن ثقافة سوداء وقيم آسيوية وجيران يتحدثون الإسبانية أو البرتغالية وعن سلوكيات البيض، وما شابه. وكلنا، شئنا أم أبينا، مدرجون في فئات عرقية مرتكزة على شكلنا وأصولنا. وموضعنا في منظومة الفئات العرقية يشكل آراءنا في أنفسنا وفي الآخرين كما يشكل حسناتنا وسيئاتنا وحياتنا وتفاعلاتنا اليومية، ويؤثر في هذا كله. وبالنظر إلى الوجود الشامل للتصنيفات العرقية وتجذرها البادي في الواقع الطبيعي يمكن أن نتوقع أن تكون هذه التصنيفات ثابتة ومتفقاً عليها على نطاق واسع. غير أن هذه التصنيفات في أغلب الأحيان قابلة لإعادة التفسيرات والتقدير باستمرار، في الوقت الذي تمارس فيه نفوذاً قوياً في مجتمعاتنا. وتظهر تصنيفات أخرى وتختفي وتحمل معاني جديدة في سياقات أو مضامين تاريخية وجغرافية مختلفة. فهي ليست انعكاسات لواقع طبيعي أو بيولوجي بقدر كونها

(*) باحثة بشؤون الأقليات.

أحاديث ـ أنساقاً لرموز ومعان ـ نشرها عاملون اجتماعيون لفائدة أناس معينين أو للإضرار بهم.



أستطلع في هذه الورقة مفهوم العرق فيما يخص الجاليات العربية في لندن. يقدر عدد السكان العرب في بريطانيا بمائتي ألف نسمة[١] وهو عدد صغير بالنسبة إلى جماعات مهاجرة أخرى. وهذه الجالية أيضاً أكثر حداثة وقَدِمت بشكل رئيس في عقدي السبعينيات والثمانينيات[٢]. وعلى الرغم من أن الجاليات التي تتكلم العربية وصلت حديثاً وحجمها صغير فإن حضورها بارز ومهم في اقتصاد لندن سواء في قطاعات الإعلام والمصارف والعقارات أو في قطاعات المطاعم والخدمات الفندقية. وهي تشكل كذلك عناصر مرئية من فئات مهاجرة تزداد أهميتها باستمرار منذ عقد السبعينيات، وتضم عمالاً مهرة ورجال أعمال دوليين وطالبي لجوء ولاجئين. غير أنها تظل في الحقيقة غائبة في تحليل العرق ـ وعلى نحو أوسع تحليلات الإثنية والهوية والأقليات والهجرة ـ في بريطانيا المعاصرة. وأسباب هذا الإغفال مركزية بالنسبة إلى نقاشات حول موقع العرب في المجتمع البريطاني، وسنتناولها بالبحث فيما بعد. ويكفي هنا أن نقول إن الحاجة ملحة إلى تفهم الجاليات العربية بالنظر إلى حضورها المتنامي في لندن. وقد يكون الأهم من ذلك أن مثل هذا الفهم يوفر فرصة جديدة يمكن فيها تقويم أنواع الفهم الراهنة للعرق، التي تميل في السياق البريطاني إلى الارتباط باللون الأسود. وتكشف هذه الورقة، بتركيزها على مجموعة مستثناة من أنواع الفهم الشائعة للعرق، الوسائل المختلفة لتركيب

(١) يشير تعبير «السكان العرب في بريطانيا»، كما يستعمل هنا، إلى الأفراد الذين يرجع أصلهم إلى بلدان عربية في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا وإلى أبنائهم المولودين في بريطانيا. وينبغي التأكيد أنه ليس كل من في هذه الفئة يشير إلى نفسه بوصفه «عربياً». والواقع أن عدداً صغيراً، ولو أنه مهم، من المشاركين في دراستي يطلقون على أنفسهم صفات غير العرب. إن ما يصبح مهماً في هذا الصدد ليس من «يعد» عربياً، بل كيف تركب الصفة العربية كهوية وكجماعة اجتماعية. إن هدف هذه الدراسة ليس تناول «السكان العرب في بريطانيا» من الناحية الظاهرية بل تمحيص كيف يصبح هؤلاء السكان واقعاً اجتماعياً من خلال التصورات والأعمال المستقلة.

(٢) استقر عدد كبير من اليمنيين في عدة مدن موانئ بريطانية في مطلع القرن العشرين، غير أن هذه الدراسة تركز على موجات المهاجرين العرب الذين استقروا في لندن بعد عقد الستينيات. والغرض من استبعاد الجاليات السابقة من اليمنيين هو تناول مجموعة أكبر كثيراً من العرب، متنوعة اجتماعياً واقتصادياً لم تحدد سوى على نحو ملتبس في الحديث العام. ويمكننا هذا من إجراء تحليل للهويات العرقية لا توجهه مفاهيم عن أسلوب «تلاؤم» المجموعة مع الفئات العرقية المختلفة.

العرق وتقويمه وفي الوقت نفسه إبراز الطبيعة المشرذمة لسياسات العرق.

سأتناول في هذه الورقة ثلاثة موضوعات رئيسية متداخلة. **أولاً**، سأتناول وضع العرب في الأحاديث العرقية التاريخية والمعاصرة. وأريد بهذه النقطة التشديد على الاستمراريات والتحولات في طريقة «إضفاء الطابع العرقي» على العرب كمجموعة، وطريقة وضع العرب بمرور الزمن في وضع غامض في المجتمع البريطاني حاضراً. **وثانياً**، أريد أن أبحث كيف يؤثر هذا الوضع في أفراد الجالية العربية. ولاستطلاع هذه النقطة سأعتمد على مقابلات مكثفة أجريتها خلال العامين الماضيين مع خمسة وخمسين عضواً من جاليات لندن العربية[٣].

وستُستخدم الردود في هذه المقابلات لاستطلاع الكيفية التي يفسر بها المشاركون في الدراسة على مستوى فردي المعاني المرتبطة بصفة العربية (Arabness) والتجاوب معها، وكيف يحاولون وضع أنفسهم في الخطابات والتسلسلات الهرمية العرقية القائمة حالياً في بريطانيا. **وأخيراً** سأتفحص دور ناشطين عرب بريطانيين[٤] في صياغة هوية عربية عامة في ضوء المعاني الغامضة المحيطة بالعرق والصفة العربية. وهؤلاء الناشطون، كما سأبين، يفاوضون ويتحدون ويتوافقون باستمرار مع فئات عرقية متنوعة، في حين يتصارعون مع مصطلح «العرق» ذاته. ويشير تحليلي إلى أن النتيجة النهائية لجهودهم ليست تفكيك الأنظمة العرقية بل إعادة صياغتها وتحليلها. وأريد أن أبين بتفصيل أكبر المقاربات المختلفة لتعريف العرق وشرحه قبل البحث في السياسات العرقية المتصلة بالجالية العربية.

فهم العرق

يرتكز مفهوم العرق على الافتراض بأن الكائنات البشرية مقسمة إلى

---

(٣) يبلغ عدد المشاركين في الدراسة ٢٤ رجلاً و٣١ امرأة من دول مختلفة (الغالبية من العراق ولبنان ومصر والمغرب) ومن خلفيات طبقية متنوعة. وبين المشاركين في المجموعة بخاصة مهاجرون من الجيل الأول، غير أن بينهم أيضاً ١٩ شخصاً ولدوا في المملكة المتحدة أو نشأوا فيها منذ سن العاشرة أو أقل. إن هذه المقابلات لا تشكل عينة إحصائية. وبدلاً من ذلك انتخب المشاركون باتباع أساليب المخبر الرئيس (Key Informant)/ التراكم السريع (Snowballing) التي مكنت من دراسة الوحدات الأسرية والحلقات الاجتماعية/ النسب. إن هذه العلاقات أساسية في الأسئلة الأصلية التي وجهت في هذا البحث.

(٤) المقصود بالناشطين العرب في هذه الدراسة الأشخاص الذين يتولون مواقع القيادة في المنظمات العربية الأساسية.

اختلافات متأصلة. وينطبق العرق في الغالب على مجموعات تميزها فروق طبيعية مثل لون البشرة، غير أن الباحثين لاحظوا تكرار نسبة فروق عرقية وبيولوجية مزعومة إلى أناس على أساس الدين أو الأصول القومية (كما في حالة الايرلنديين واليهود والايطاليين في تاريخ أمريكا). وتستخدم علامات الاختلاف العرقي على نحو روتيني لاستبعاد أنماط معينة من الناس من التوظيف وحقوق المواطنة ومجالات معينة. وقد أوحت هذه العلامات، المغلّفة غالباً بلغة علمية زائفة، في حالات التطرف بأعمال إبادة الجنس والتطهير العرقي. إذ لقيت الأشكال المتطرفة من التصنيف العرقي ـ كما حدث في ألمانيا النازية وفي يوغسلافيا المعاصرة ـ الإدانة والشجب بشكل مطرد (في التيار السياسي السائد على الأقل). غير أن مفهوم العرق يستمر ويظل في الواقع واحداً من أهم السبل التي نقوم فيها بتنظيم العلاقات والنماذج الاجتماعية ووصفها. ولذلك يستمر العرق في البقاء قيد التدقيق الدقيق للباحثين الراغبين في فهم أفضل لما يمثله العرق ولماذا يظل جوهرياً في المنظومات الاجتماعية المعاصرة. وأود أن أسلط الضوء بإيجاز على بعض المواضيع الرئيسة التي تظهر في الدراسات المعاصرة حول العرق.

التنظيـر المعاصـر

أولاً، حول المنظرون على نحو متزايد محور البحث التحليلي من العرق إلى «التمييز العنصري» (Racialization). ولشرح ذلك تميل الأبحاث الحديثة عن العرق إلى وضع هذا المصطلح بين هلالين للتأكيد على أنه ليس للأعراق المفترضة أي أساس في الطبيعة أو علم الوراثة، بل انها تعكس ـ بالأحرى ـ حدوداً اجتماعية وضعت حول مجموعات ذات خصائص ممكنة التمييز (مثلاً لون البشرة والعلامات الدينية وغيرها). وبعبارة أخرى الجماعات العرقية ليس لها وجود مسبق. والأحرى أن المجموعات المهمينة هي التي تضفي الطابع العرقي على المجموعات الخاضعة لها ـ أي أنها تحدد العلامات وتصم مجموعات من الأفراد الذين تجعلهم سماتهم ظاهرين للعيان. إن العرق في هذا المعنى يخدم غرض إقامة تسلسلات هرمية، ويبرر التباينات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بين الناس.

حاول الباحثون في تحديهم الأسس «الطبيعية» للعرق الكشف عن البيئات التاريخية التي جرى فيها إضفاء الطابع العرقي على مجموعات معينة والوسائل المحددة التي استخدمت فيها الأيديولوجيات العرقية. ويهتم الباحثون

في الوقت نفسه بكيفية تجاوب الجماعات مع تصنيفها العرقي باستخدام هويات عرقية كمصدر لتفويض جماعي. وفي السياق البريطاني، على سبيل المثال، وجه قدر كبير من الاهتمام الأكاديمي إلى تشكيل هوية سوداء بين المهاجرين الأفرو ـ كاريبيين وفي بعض الحالات بين المهاجرين الآسيويين. لقد نظر إلى تجنيد الهوية السوداء كمقاومة وتخريب لمفاهيم الاستبعاد للصفة البريطانية والممارسات التمييزية التي مر بها السود في جوانب الحياة كافة. وقد علق الباحثون أيضاً على نحو واسع على الأشكال الثقافية التي برزت من تسييس الهوية السوداء ودرسوا أشكال الموسيقى والكتابة والأزياء التي توحد التأثيرات الأفريقية والأفريقية ـ الكاريبية والأفريقية ـ الأمريكية وحتى الآسيوية. العرق إذن ليس واقعاً طبيعياً غير أنه يصبح واقعاً اجتماعياً من خلال ممارسات العنصرية ومن خلال جهود المجموعات ذات الطابع العرقي لصياغة ثقافة ووعي مستقلين.

غير أن الباحثين في السنوات الأخيرة قد تناولوا الهويات العرقية في ضوء أكثر نقداً مشيرين إلى المآزق التي خلقها الاهتمام بالاختلاف العرقي. وفي حين أن العنصرية قد تُحدث هويات خبرات مشتركة ينبغي أن لا يُفترض أن المجموعات ذات الطابع الراديكالي متجانسة. ويرى بعضهم أنه ينبغي تناول العنصرية بالاشتراك مع قوى وعلاقات أخرى ـ الذكورة والأنوثة، والطبقة، والجيل، على سبيل المثال ـ تجزئ خبرات الناس وتصوراتهم في مجموعة معينة. وهكذا أولى الباحثون اهتماماً أشد بالتجارب المختلفة للعنصرية والتعبيرات المختلفة للهوية التي ربما توجد ضمن مجموعة راديكالية. إن التحليل كثيراً ما يصل إلى مستوى الأحياء السكنية والأفراد حيث يمكن بسهولة أكبر تقويم الأبعاد المختلفة للنزعة العنصرية والتعبيرات المتنوعة للعرق والهوية.

يستمد تحليلي للجاليات العربية هذه من التيارات المفاهيمية المختلفة مؤكداً الطبيعة المركبة للفئات العرقية والقوة التي تحقق التجانس لهذه التصنيفات والاستعمال الاستراتيجي للهويات من جانب المجموعات ذات الطابع الراديكالي. وكذلك تعدد الهويات والتجارب ضمن مجموعة معينة. غير أنني أرغب أيضاً أن أبرز في تحليلي نقطتين كثيراً ما تكونان متضمنتين في تنظير العرق غير أنهما تستحقان معالجة أكثر صراحة. **النقطة الأولى** هي أن مصطلح «العرق» (Race) نفسه يحمل دلالات قد يكون رد فعل المجموعات إزاءها متناقضاً. إن وصف مجموعة بأنها «مجموعة عرقية» وليست «مجموعة إثنية» أو «مجموعة ثقافية» مثلاً، يشير إلى معان متغيرة ومستويات متغيرة من

الوصم. ولذا ثمة جانب سياسي عندما يتقرر إلى أي تصنيف ينتمي المرء، بل كذلك إلى أي نوع من التصنيفات. إن مسألة إن كان أفراد مجموعة مهاجرين جديدة بخاصة تشكل أو لا تشكل «عرقاً» مثار نزاع حاد ـ ولا سيما ضمن المجموعة ـ إذ قد يكون لهذه الفئة تأثير قوي في تصورات المجموعات وفي الحصول على الموارد التي تتيحها الدولة. وهكذا يتناول هذا التحليل بالبحث الرغبات في إبراز ليس أيديولوجيات عرقية معينة تحيط بالجاليات العربية فحسب، بل كذلك سياسات استعمال «العرق» كوصمة.

النقطة الثانية هي أن المجموعات تصوغ هويات في نظم من أقسام كثيرة ذات طابع عرقي وليس أبيض وأسود فقط. ومرة أخرى هذه نقطة يتكرر ذكرها في الأدبيات عن العرق، غير أنها لا تبرز عموماً في الدراسات التجريبية. يذهب مصطلح كيم «Racial Triangulation» (التثليث العرقي) بعيداً لتصور الميدان المعقد الذي تنشر فيه وتستخدم الايديولوجيات العرقية(٥). ترى كيم أن المجموعات المختلفة:

أ ـ يضفى عليها الطابع العرقي وفقاً لأبعاد مختلفة.

ب ـ يضفى عليها الطابع العرقي بمقارنة الواحدة بالأخرى. وترى أن المواقف العرقية تحدد بأكثر من بعد أو محور واحد ـ وأبرز اثنين هما أعلى مرتبة/أدنى مرتبة، ومن أهل البيت/أجنبي. لذا قد تعتبر مجموعة عرقية الطابع مثلاً أعلى مرتبة من مجموعة أخرى عرقية الطابع، غير أنها تعتبر أيضاً أجنبية وغريبة مقابل المجموعة المهيمنة، وهكذا تحرم من الوصول إلى القنوات السياسية السائدة. وتطلق على هذه العملية وصف «التثليث العرقي» وتطبقها على الولايات المتحدة، حيث التيار الأبيض السائد تولى تقويم الأمريكيين الآسيويين بالنسبة إلى الأمريكيين الأفارقة تقويماً ثقافياً، وفي الوقت نفسه اعتبر أن الآسيويين لا يمكنهم الانصهار في التيار السائد. لقد استُغل التثليث بين البيض والسود والآسيويين على نحو واسع في الحديث العام لتحقيق تراجع لسياسات العمل الإيجابي(*) النافعة للأفارقة السود، وفي الوقت نفسه استبعاد

(٥) C. J. Kim, «The Racial Triangulation of Asian-Americans,» *Politics and Society*, vol. 27, no. 1 (1999), pp. 105 - 138.

(*) العمل الإيجابي (Affirmative Action) مجموعة من القوانين التي صدرت أساساً في منتصف الستينيات من القرن العشرين بقصد تعويض الأمريكيين السود (الأفارقة) عن سنوات التمييز العنصري عن طريق إعطائهم بعض الفرص في الحصول على الوظائف والقروض والمساكن والمساعدات الحكومية... الخ. =

الآسيويين من صنع القرارات السياسية.

ويؤكد تحليل كيم أن تكوين «العرق» لا يحدث في فراغ على نحو معزول عن المجموعات الأخرى، بل بالأحرى أن العرق يركب في حقل واسع من المعاني توجد فيه مجموعة واسعة من المواقع العرقية المتعددة. غير أنه في حين ترى كيم أن الغالبية البيضاء هي وحدها تقريباً التي تنفذ هذه العمليات، فإن تحليلي يركز على أسلوب تنفيذ مجموعات الأقليات نفسها عملية التثليث وتعزيز الايديولوجيات العرقية عن طريق تصوراتها وتفاعلاتها الاجتماعية ونشاطاتها.

باختصار تحاول الحالة التجريبية المعروضة أن تكشف عن تعقيد السياسات العرقية بنقل مناقشة العرق إلى أبعد من الفرق بين السود والبيض، وتبحث المواقف والتصورات التي يستخدمها الناس على أساس يومي. إن هدفي هنا ليس بحث ما إذا كان العرب في لندن «عرباً» حقاً أو إن كانت الجالية العربية في بريطانيا هي «جالية» حقاً، أو إن كان ينبغي التعامل معها بوصفها «مجموعة عرقية» أو «عرقية الطابع». إن اقتصار بحث السياسات العرقية على المجموعات التي تعتبر الآن «جاليات» أو «مجموعات عرقية» أو «أقليات» اكتسبت طابعاً راديكالياً يحبط هدف تنظير العرق بوصفه تركيباً سائلاً يخترق المجتمع كله. لذا فإن هدفي هو عرض وصف لكيفية تولي العاملين المختلفين - العربي وغير العربي - إقامة صفة العربية (Arabness) وكيف يتفاوض المهاجرون العرب على مجال لاختلاف المجموعة يتسم بالتعقيد وكيف يدخل مفهوم «العرق» في صياغات الهوية العربية. وسأبدأ ببحث الكيفية التي تمكن بها العرب وغير العرب على حد سواء من وضع تفصيلات أحاديث عرقية في ما يتعلق بالهوية العربية.

انقسامات العرب - الإنكليز الثنائية

ربما كان الحديث عن «التصورات البريطانية» عن العرب أو العرب في «عيون البريطانيين» غير منصف، لأنه يفترض وجود وحدة وتصميم بين البريطانيين لم يتحققا أبداً، غير أن من الممكن تحديد الصور النمطية والرموز والمعاني المصاغة عبر قرون من التفاعل البريطاني - العربي، والأسلوب الذي استُخدمت فيه لتكوين «العربي الجوهري». أريد أن أبحث بعد ذلك الروايات

=ولا تزال تعارض هذه القوانين قوى يمينية على الساحة السياسية الأمريكية (جمهورية بالدرجة الأولى) بحجة أنها تشكل تمييزاً عنصرياً عكسياً، أي ضد البيض! (المحرر).

والعروض السائدة لصفة العربية (Arabness) التي اخترقت السياسات والمواقف البريطانية نحو العرب، والتي تزود سياسات العِرق بالمعلومات في الجالية العربية المهاجرة في الوقت الحاضر.

يعود أصل الحكايات المهيمنة لصفة العربية إلى العصر الكولونيالي. لعب العرب، كما يرى ادوارد سعيد في كتابه البالغ الأهمية **الاستشراق**[٦]، دوراً مركزياً في صياغة تصور بريطانيا الكولونيالي الذي بدأ في القرن الثامن عشر. كانت النظرة إلى العرب بوصفهم مخنثين ومراوغين وخطرين وغريبي الأطوار جداً واعتبروا مثل «الآخرين» (لعب الهنود والأفارقة والشرق الآسيويون أدواراً مشابهة) ويمكن للهوية الإنكليزية الكولونيالية المتسمة بالرجولة واللطف أن تحدد بالمقارنة. وقد تغلغلت هذه المركبات عن الآخر في المشروع الكولونيالي في الوطن العربي مبررة الهيمنة السياسية والاقتصادية وتشويه السمعة الثقافية. وبعبارة أخرى، فإن الكولونيالية البريطانية والهوية البريطانية/الإنكليزية أصبحتا قائمتين، في جانب منهما، عن طريق صياغة العربي اللاعقلاني وغير المتمدن.

غير أن خلق الثنائية العربية/البريطانية لم يكن تماماً مسألة أحادية الجانب. وكان للعرب أنفسهم دور مهم أدوه أثناء العصر الكولونيالي في صياغة الشعور بصفة العربية في مقابل الشعور بصفة الإنكليزية (والأوسع من ذلك صفة الغربي). وحاولت نزعة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر تحدي الهيمنة الغربية بتطوير تاريخ عربي وثقافة وهوية «أصيلة» وموحدة. ولجأ القوميون العرب الأوائل، على سبيل المثال، إلى الكتب والشعر من الماضي العربي القديم من أجل بعث العصر الذهبي للحضارة العربية وبالتالي إعادة تقويم الشعب العربي في وجه التوسع الكولونيالي القاسي. وفي الوقت نفسه غالباً ما سارت الرغبة في تعزيز الثقافة العربية (التي كثيراً ما أدمجت مع الثقافة الإسلامية) جنباً إلى جنب مع رغبة في مضاهاة البراعة التقانية والاقتصادية للقوى المستعمرة من أجل حفظ تكامل الشعب العربي. ولذا مثلما ركبت الصفة الإنكليزية بالنسبة إلى صفة العربية فقد ركبت صفة العربية بالنسبة إلى الصفة الإنكليزية (والصفة الغربية) ولو من موقع خاضع ومستهدف.

---

(٦) Edward W. Said, *Orientalism* (New York: Pantheon Books, 1978).

القوالب النمطية الملحّة

يمكن تحديد مواقع عناصر كثيرة لهذه المرويات الثنائية في صور لعرض العرب في الحاضر نشرتها أصوات إنكليزية وعربية. وتواصل وسائل الإعلام البريطاني الرئيسة، على سبيل المثال، تصوير العرب بأنهم الشرقيون الآخرون مع مجموعة كبيرة من الصور الجديدة ـ شيخ النفط وزير النساء الثري والإرهابي والمتطرف الإسلامي ـ التي أضيفت إلى الصور القديمة للتاجر عديم الذمة والباشا وسيد الحريم. وفي حين أن لندن حالياً موطن لعشرات آلاف العرب ـ منهم عدد متزايد ولدوا في بريطانيا ـ فإن العربي يبقى الأجنبي التام. ولعل بالإمكان الرمز إلى صورة العربي كأجنبي على أفضل نحو بالفضائح المحيطة بعائلة الفايد في لندن. لقد واجه المصري محمد الفايد، مالك متجر «هارودز» رفضاً متكرراً لطلباته الحصول على الجنسية البريطانية، إذ ترى الحكومة أنه غير مناسب لأن يكون عضواً في المجتمع البريطاني ـ وهذه حجة ناشئة عن جهود الفايد المزعومة للتأثير في الإجراءات البرلمانية. وعندما ارتبط ابن الفايد المرحوم دودي الفايد عاطفياً بأميرة ويلز ديانا عبّر بعض المعلقين المؤيدين للملكية عن ارتياعهم من ارتباط ديانا مع «مشرقي»، وهو مصطلح يستحضر الصورة البالية للتاجر العربي المراوغ. وتنشر أخبار التصرفات الغريبة لأسرة الفايد في الصحف البريطانية، ونتيجة لذلك فإن أحد الوجوه القليلة للصفة العربية في العيون البريطانية هو الفضيحة والسلوك الخالي من الضمير.

وتظهر القوالب النمطية السلبية للعرب في وسائل كثيرة أخرى ـ في الأفلام والإعلانات التلفزيونية وفي تقارير الأخبار (أثار إعلان عن سيارة بيجو في عام ١٩٩٧ استغراب العرب في لندن بسبب تصويره الغبي شيخاً عربياً يُشير إلى زوجاته المتعددات). كما يشجع التزام الصمت الغريب في التقارير الصحفية على الصور النمطية. ويكشف مسح سريع لمقالات صحيفة **التايمز** سيلاً من التقارير التي تنشر عن الخلايا الإرهابية العاملة في لندن ورجال الأعمال أصحاب الملايين والمعارضين السياسيين البغيضين الذين يطاردهم طغاة عرب بغيضون بالمثل. غير أن الجالية العربية لا تُذكر مرة واحدة بوصفها جزءاً «عادياً» من الحياة في لندن. كما أنه ليست ثمة إشارة إلى الجالية العربية في المقالات الاحتفالية عن نسيج لندن العرقي وتنوعها الثقافي الثري ومجموعاتها الوطنية المختلفة. ويبدو أن العرب غير مرئيين في لندن وأنهم ليسوا كياناً اجتماعياً مع أنهم خاضعون على نحو مستمر لتصويرهم

كقوم خطرين ولاعقلانيين وغير إنكليز من الناحية الجوهرية.

الروايات العربية عن صفة العربية

من المؤكد أن المهاجرين العرب أنفسهم يؤدون دورهم في المحافظة على الانقسامات الثنائية الاستطرادية التي يعود أصلها إلى العصر الكولونيالي. إن المقابلات الخمس والخمسين التي أجريتها مع أفراد من جالية لندن العربية لا تمثل عينة إحصائية، غير أن الردود في هذه المقابلات تكشف حقاً بعض تأصل الأحاديث المزدوجة في الهويات. من الخمسة والخمسين شخصاً الذين قابلتهم يصف ثلاثة أرباعهم أنفسهم باعتبارهم عرباً غالباً بإضافة هوية دينية و/أو قومية عربية معينة (مثلاً مصري أو لبناني، الخ) وفي بعض الحالات بإضافة «بريطاني».

ويحدد هؤلاء الأشخاص باستمرار هوياتهم في مصطلحات منقسمة ثنائياً، ويصفون الإنكليز (أحياناً البريطانيين) بأنهم محافظون على النظام ومنظمون، ويصفون العرب بأنهم أكثر دفئاً وأكثر سخاء وأكثر محبة لأسرهم. ويضفي الأشخاص الذين قابلتهم الطابع الشرقي على أنفسهم، ويرون أنهم بصفتهم عرباً فإنهم أكثر عاطفية في حين أن الإنكليز عقلانيون ويتسمون بالبرود. وكما يقول أحد الذين قابلتهم، وهو أردني المولد، فإن البريطانيين «قوم يتصفون بالبرود» في حين أن للعرب «مشاعر حارة». ويقول المجيبون مراراً وتكراراً إنهم يتمسكون بالمعايير البريطانية لأن واجبهم كضيوف هو أن يفعلوا ذلك ولأن مجالات معينة في الحياة ـ مثلاً الحياة السياسية المتعلقة بالانتخابات والاقتصاد ـ هي بريطانية أو إنكليزية جوهرياً. ويرون أنهم في الوقت نفسه يحافظون على صفتهم العروبية من حيث تعلقهم بأسرهم وعواطفهم وقيمهم وتاريخهم و«ثقافتهم».

غير أنه من المهم التأكيد أن الهويات العربية تدور ليس حول الانقسامات الثنائية العربية/الإنكليزية طويلة الأمد فحسب، بل كذلك حول عمليات فهم وتصورات الآسيويين والسود والمسلمين والأقليات والأجانب والفئات الأخرى التي صيغت في إطار بريطاني معاصر. وينطبق هذا على الذين قابلتهم من الجيلين الأول والثاني معاً. إن حقيقة كون الهويات العربية تقع في هذا النظام الأوسع للمعاني والمرجعية تشير إلى حاجة إلى التطلع إلى أبعد من التركات الكولونيالية لغرض فهم الهويات العرقية في الجاليات العربية.

النظام العرقي البريطاني:
السواد والبياض وما وراءهما

في حين أن تراث الأحاديث الكولونيالية (والمعادية للكولونيالية) جلي في العروض الشائعة للعرب فإن المفاهيم المعاصرة عن صفة العربية موجودة أيضاً في النضالات ما بعد الكولونيالية بسبب العرق و«علاقات الأعراق» والاستبعاد الاجتماعي والتهميش الثقافي. وتزود خلاصة موجزة ـ وإن كنا نعترف بأنها ناقصة ـ عن هذه النضالات الإطار الضروري لفهم الهويات والتصورات التي حددها بدقة المشاركون في الدراسة.

لقد أنتجت النضالات ضد العنصرية في بريطانيا ما بعد الحرب العالمية الثانية هويات عرقية مسيّسة، قُننت في بعض الحالات عن طريق السياسات الثقافية المتعددة برعاية الدولة والمصممة لدعم التنوع والاختلاف الثقافي. وكما ذكرنا آنفاً كانت صفة الأسود[(٧)] هي الأبرز في السياسات العرقية في بريطانيا، وأصبحت تضم بمرور الزمن أناساً من أصل أفريقي وآسيوي. ولا تزال هذه الصفة تستعمل لتعني المجموعات المهمشة ثقافياً. وأصبحت لفظة أسود تعني مقاومة العنصرية والخضوع الثقافي، والجهود السياسية لناشطي الأقليات.

وكان جزء لا يتجزأ من صياغة الهوية السوداء وهويات الأقليات الأخرى هو الجدال الشديد حول معاني الصفة البريطانية والصفة الإنكليزية. وفي حين أن بعض الناشطين المناهضين للعنصرية حاولوا فك صلة الصفة الإنكليزية والصفة البريطانية ودعوا إلى معنى أكثر شمولاً وغير عرقي للمواطنة والقومية قام بعض المحافظين بإعادة تأكيد الصلات بين الصفة الإنكليزية (أي الأبيض والبروتستانتي والطبقة الوسطى) والصفة البريطانية. وعرفت عناصر ضمن حكومتي ثاتشر وميجور بخاصة بإعادة تأكيد هوية إنكليزية بيضاء عن طريق إنتاج صور للماضي الإنكليزي البسيط تحت تهديد فيضانات المهاجرين غير البيض.

ازداد التقسيم بين الأسود والأبيض عقب قضية سلمان رشدي تعقيداً، أو على أقل تقدير اعتُرف به كذلك. وأثارت مطالبات المحتجين المسلمين (ولا سيما الآسيويين) بحظر كتاب سلمان رشدي الذي يحمل عنوان **آيات شيطانية**

---

(٧) لاحظ أن مصطلح أسود (Black) يبدأ بالحرف الكبير (بالإنكليزية) عندما يقصد به الهوية التي أسسها الناشطون السود في بريطانيا ودول غربية أخرى، بدءاً من عقد الستينيات في القرن العشرين.

من متاجر الكتب والمكتبات تساؤلات حول وحدة «الجالية السوداء» ومصالحها المشتركة. وبدا المحتجون في قضية سلمان رشدي أكثر قلقاً حول الفرض المتساوي لقوانين الإلحاد البريطانية والتمييز الديني ضد المواطنين المسلمين منهم حول «العرق» بذاته. وفي أعقاب قضية سلمان رشدي بذل اهتمام أكبر بالجاليات المسلمة الآسيوية في بريطانيا على الرغم من أن الدعاية لم تكن متعاطفة على نحوٍ متساو. وفي حين أن بعضهم ينظر إلى المسلمين على أنهم يواجهون أشكالاً معينة من التمييز العنصري، فإن آخرين ـ ومنهم دعاة الثقافية التعددية» ـ يرون أنهم ضارون بالسمات «البريطانية» المتمثلة في التسامح وحرية التعبير، ويستثنونهم من أحاديث الظلم العرقي (وبذلك يعززون التمييز الذي يواجهونه وفقاً لبعض المعلقين).

هكذا أصبح المشهد السياسي والعرقي في بريطانيا معقداً على نحو متزايد، وهو اليوم ممتلئ بالفئات الاجتماعية التي ألحقت بها معان متعددة. ويرغم المهاجرون العرب على بحث هذه المعاني، وتحديد مواقعهم ضمن الحدود التي تشكل النظام العرقي في بريطانيا. إن أسلوب قيامهم بذلك يعكس موقفاً غير مألوف وغامضاً للمجموعات العربية في بنى المجتمع البريطاني الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

موقف غامض:
العرب في النظام العرقي البريطاني

ثمة عوامل متداخلة عدة تضع العرب في موقع غامض في نظام الفئات العرقية في بريطانيا. أولاً حدثت الهجرة من الوطن العربي إلى بريطانيا عقب الموجات الكبرى من مهاجري الكومونولث الجديد، ولذا لم تتورط في المناظرات المثيرة للنزاع الشديد حول علاقات الأعراق والسيطرة على الهجرة التي دارت في أواخر عقد الخمسينيات وفي عقد الستينيات. وبسبب عدم امتلاك المهاجرين العرب عموماً وضع «الكومونولث الجديد» لم تمسهم النقاشات حول إبطال حقوق الهجرة والمواطنة للمواطنين من الكومونولث الجديد. بل إنه في حين كان المهاجرون الآسيويون مستهدفين على نحو متزايد بقيود الدخول كان العرب يدخلون بسهولة نسبية عن طريق سياسات تفضل الطلبة والعاملين المهرة وموظفي الشركات المتعددة الجنسيات وفي الطرف الأدنى من السلم عمال العقود ذوي المهارات القليلة العاملين في فنادق لندن ومطاعمها. لم يعد العرب في ذلك الوقت جزءاً من «مشكلة الهجرة» التي

زُعم أنها تواجه بريطانيا ولم يبرزها صناع السياسة كمجموعة ينبغي استبعادها.

الأمر الذي له أهمية مساوية هو أن العرب قدموا بأعداد أقل كثيراً من المهاجرين الآسيويين والأفارقة والكاريبيين، وبسبب وضعهم باعتبارهم ينتمون إلى الطبقة الوسطى الأمينة نسبياً فقد استقروا في نمط متناثر أكثر مما فعل بعض مجموعات المهاجرين الأخرى(٨). لذا في حين توجد منطقة تسوق محيطة بشارعي بايزووتر/ادچور في وسط لندن، وبينما توجد تجمعات سكنية للعرب في أجزاء من شمالي لندن وغربها، لا توجد جيوب على قدم المساواة مع منطقة ساوثل الآسيوية. كذلك بسبب الوضع الاجتماعي ـ الاقتصادي والتعليمي الأعلى عموماً (ولو أن هذا ليس حالة موحدة) لا يرتبط المهاجرون العرب بعلاقات العرق أو بالأقليات العرقية. وخلافاً للمهاجرين الأفرو ـ كاريبيين الذين قدموا إلى بريطانيا في عقد الخمسينيات لم يضطر العرب على نحو حاد إلى ممارسة أعمال ذات مكانة متدنية عبر ممارسات عنصرية. ولذا في حين يصور العرب (ولا سيما العرب المسلمون) بوصفهم أناساً خطرين فإن المؤسسة البريطانية لم تعتبرهم أبداً كمجموعة تتسم بالتهديد ولم تضفِ عليهم طابع سكان «الغيتو» كسكان يمثلون مشكلة. وبسبب عدم الربط الواضح بين صفة «العربية» والتمييز العنصري والحالة غير المواتية فإن العرب كمجموعة مستثنون من حديث «علاقات العرق» وبقي وجودهم كمهاجرين يقدر بأقل من حقيقته.

غير أنه في الوقت نفسه، وعلى الرغم من أن مكانة العرب الاجتماعية ـ الاقتصادية أعلى عموماً، فإنهم لا يعتبرون بالتأكيد جزءاً مندمجاً من الطبقة الوسطى الإنكليزية بل هم بالأحرى سكان أجانب وغير مستقرين. إن تصور العرب كأجانب يعود جزئياً إلى حقيقة أن العرب الأكثر ظهوراً في لندن ليسوا حقاً جزءاً من السكان المستقرين بل هم زوار من أقطار الخليج طابعهم الأجنبي واضح من العباءة السوداء الطويلة والحجاب. غير أنه يمزج الربط بين الصفة العربية والصفة الأجنبية ويبالغ فيه بسبب الافتقار إلى أي ذكر للعرب، سوى كونهم أجانب (رجال منغمسون في الملذات ومحرضون سياسيون ومتطرفون يديرون خلايا إرهابية من لندن). هذا التصور للصفة الأجنبية يستثني العرب من اعتبارهم إما جزءاً من التيار السائد ومجتمع الطبقة

(٨) غير أنه تنبغي ملاحظة أن مستويات العزل العنصري (Segregation) في بريطانيا أقل كثيراً منها في الولايات المتحدة، وتميل إلى الحدوث على نطاق مختلف عما هو موجود عليه في الولايات المتحدة.

الوسطى أو جزءاً من التصنيفات المقبولة في بريطانيا وهي «العرق» و«التعددية الثقافية» و«التنوع». ومن المثير للاهتمام أنه في حين يجري الربط مراراً بين السكان العرب و«التعصب الإسلامي» والإرهاب، فإنهم كما يبدو يستثنون من تصنيف مسلمين بريطانيين الذي ارتبط في المحافل العامة بالمجموعات الآسيوية بصورة تكاد تكون استثنائية.

فليس مثيراً للدهشة أن العرب قد أدرجوا في أقسام محدودة من تعداد السكان البريطاني في عام ١٩٩١. وفي الأقسام التي ضموا إليها وُضعوا في فئة «شمال أفريقيون أو عرب أو إيرانيون»[٩] التي قسمت بدورها إلى فئتين «عرقيتين»: (١) أسود ـ آخر، أصل غير مختلط و(٢) أي فئة عرقية أخرى، أصل غير مختلط. وتعكس هذه التصنيفات الشرق أوسطية على نحو غامض الالتباس العنصري الذي يحيط بالمجموعات العربية، كما يعكس حقيقة أن العرب لا يتناسبون على نحو مريح مع المفاهيم الحالية للبياض والسواد (أو حتى الصفة الآسيوية).

ومما يدل بالدرجة نفسها على الالتباس العنصري طرق وضع العرب أنفسهم في هذه التصنيفات في تعداد السكان. من بين ٦٥١,٩١٢ أجابوا من بين هذه التصنيفات اختارت الغالبية وضع نفسها ضمن «أي مجموعة عرقية أخرى: أصل غير مختلط»، في حين وضع عدد أقل من الأفراد، ولكنه مهم، في حقل مجموعة «أسود ـ أصل غير مختلط». ويشير هذا إلى أنه حتى بين العرب لا يوجد اتفاق حول من هم حقاً من الناحية العرقية ـ أي إن كانوا سوداً أو بيضاً آو آخرين. ولعل الشيء الأكثر أهمية من هذا أنه لم يردّ سوى عرب قليلين على هذه التصنيفات العربية على الإطلاق. وقد قدر أنه يوجد زهاء ٢٠٠ ألف عربي (بمن فيهم نسلهم) في لندن، غير أنه يبدو أن أقل من نصف هؤلاء قد وضعوا أنفسهم في أحد التصنيفين العربيين.

يثير هذا السؤال المتعلق بأي التصنيفات القائمة يمكن أن يكون العرب قد رأوا أنفسهم جزءاً منها ـ أو إن كانوا يرون أنفسهم كلياً على نحو فعلي جزءاً من التصنيفات القائمة. وفي الواقع يعبر المشاركون في الدراسة مراراً عن عدم رضاهم عن الاختيارات المتاحة لهم في تحديد «عرقهم» في

---

(٩) من الأمور المهمة في هذا القسم هو أن العرب يصنفون مع الإيرانيين الذين ـ بالمصطلحات الإثنية ـ اللغوية الخاصة بهذه التصنيفات ـ يعتبرون بأن لهم صفات قليلة جداً مشتركة مع العرب.

الاستمارات الرسمية. إنهم يرون أنه لا صفة الأسود ولا صفة الأبيض تلائم هويتهم كعرب. وفي معظم الحالات يدعي هؤلاء المجيبون أنهم يضعون «أخرى» في الطلبات والوثائق التي تطلب تحديد عرقهم، وإذا أعطوا الاختيار يكتبون «عربي». وكما يذكر أحد المجيبين من المولودين في المغرب: «عندما يكون لدينا استطلاع ينبغي دائماً أن نبحث عن المربع الذي يقول «أخرى» ثم نكتب مغربي أو عربي. وثمة فئات كثيرة جداً للأفارقة والأوروبيين. نتركها كافة ونتوجه إلى النهاية ونضع «آخر» أو مغربي/عربي».

إن غموض الوضع العربي في المجتمع البريطاني ربما يمكن تلخيصه على أفضل نحو بسرد حكاية من بحث ليس باك (Les Back) الحديث(١٠) عن الهوية العرقية في لندن. يذكر الكاتب أغنية خفيفة ألفها شاب أصله من جزر الهند الغربية. يغني الشاب بصوت «أبله إنكليزي نمطي من الطبقة العليا» يتحدث عن المجموعات المهاجرة المختلفة التي تشاطره بلده حالياً. هدف الأغنية هو تقويض الايديولوجيات العرقية والمحاكاة الساخرة للقوالب النمطية العرقية، ولا سيما الخاصة بالسود، التي تنشرها العناصر المهيمنة في المجتمع. غير أن إشارة وجيزة إلى العرب هي ذات مغزى يدل على وضع معين للعرب في التراتب الهرمي الثقافي البريطاني.

«أنت ترى هذه البنايات. إن عمي هو مالكها. لا أستطيع تذكر اسمها. أعتقد أنه بكنغام بالاس. نحن نؤجرها إلى عائلة لطيفة.

في الحقيقة إننا نملك أراضي كثيرة في هذه المنطقة ـ أعتقد أنها تدعى لندن.

أجل إن المنطقة لطيفة هنا. ليس لدينا أي من قومك السود الملونين عدا العرب. العرب أناس مهذبون. بعت إحدى هذه البنايات إلى عربي. هل تعرف الهلتون؟...»(١١).

سأناقش في القسم التالي بتفصيل أكثر كيف يحاول المجيبون في الدراسة نسيان الهوية العربية من موقعهم الغامض في نظام التصنيفات والمعاني العرقية

---

(١٠) Les Back, *New Ethnicities and Urban Culture: Racisms and Multiculture in Young Lives*, Race and Representation; 2 (London: UCL Press, 1996).

(١١) وردت في: المصدر نفسه، ص ١٧٥.

في بريطانيا. أرى أن تصورات الذين قابلتهم عن العرق وصفة العربية تمثل محاولات تفاهم مع التراتب الهرمي الاجتماعي البريطاني في ضوء وضعهم الاجتماعي ـ الاقتصادي المريح نسبياً (مهما كان غير متواز) ووضعهم الثقافي المريب. ينطوي ذلك على موازنة دقيقة بين القوالب النمطية المتنافسة عند العرب وربط العرب بمجموعات عرقية موصومة.

الهوية العربية والتراتبات الهرمية العرقية

تظهر المقابلات التي أجريت مع أعضاء من سكان لندن العرب ـ من ناحية ـ ظهور «وعي عرقي» عبر خبرات التمييز، ودراية بكونهم يوصفون بعنوان «الآخر» من جانب التيار الرئيس في المجتمع. ولكنها ـ من الناحية الأخرى ـ توحي بأن وعياً بالعرق لا يُفضي بالضرورة إلى تعريف يستخدم تصنيفات عرقية راسخة أو جماعات عرقية موصومة. فكثير من هذه المقابلات التي أجريت لغرض الدراسة تريد أن يُعترف بالعرب كمجموعة منفصلة، على قدم المساواة مع الآسيويين والسود في عملية صنع القرار في القطاع العام. ولكن لأنهم يشغلون مركزاً غير واضح في التصنيفات العرقية البريطانية، ولأنهم واعون بالفوارق في المكانة بين السود والبيض في المجتمعين البريطاني والعربي، يبدو من جرت مقابلتهم متناقضين وجدانياً أو مترددين في وضع صفة العربية كلية ضمن حديث عن العنصرية والعلاقات العرقية. يستجيب هؤلاء ـ بمعنى ما ـ لما ينالهم من تثليث في التراتبات الهرمية الاجتماعية في بريطانيا، أي مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية العالية في مواجهة مجموعات أقلية أخرى وتسامحها في مواجهة البيض ـ بأن ينفذوا عملية تثليث من جانبهم هم أنفسهم. وينطوي هذا التثليث على تعريف لهوية عربية فريدة في علاقتها مع التيار الرئيس «الإنكليزي» ومجموعات أقلية موصومة، على السواء.

وضع العرب خارج التيار الرئيسي

كما ناقشنا أعلاه يفرض أولئك الذين جرت معهم المقابلات اختلافات بين «المجتمع العربي» و«المجتمع الإنكليزي»، حيث الأول يدل على دفء وعاطفة، والأخير على برود وعقلانية. ووفقاً لكثير من هؤلاء فإن اختلافات الجماعات ليست دائماً حميدة، إنما هي بالأحرى تؤدي إلى تمييز وقولبة نمطية سلبية ضد العرب. وتصبح تأكيدات التمييز طريقة مهمة يضع بها المشاركون في الدراسة أنفسهم في علاقة مع التيار الرئيس البريطاني، منظوراً إليه على أنه

إنكليزي في جوهره ـ الأمر الذي يشكل ـ بمعنى ما ـ ضلعاً في مثلث عرقي. وبهذا الضلع يذهب المشاركون في المقابلات إلى أنهم مختلفون بطريقة لا يمكن دحضها عن الإنكليز، وأنهم مستبعدون من التيار الرئيس الإنكليزي. وتصور عدة أمثلة من ردود المقابلات الكيفية التي يعمل بها هذا العرق المكون في التثليث.

يذكر خمسة من المجيبين في المقابلات تعرّضهم لمواجهات مباشرة مع أعمال عرقية سافرة (أساساً في صورة ملاحظات عدائية من أشخاص ليسوا عرباً)، بينما يعقب كثيرون آخرون على مظاهر خبيئة لعرقية ومشاعر مناهضة للأجانب. وعلى سبيل المثال تقول وداد المهاجرة الجزائرية في العشرينيات من عمرها «في فرنسا إذا كرهوك فإنهم سيقولون ذلك في وجهك. أما الإنكليز فإنهم لن يفعلوها، وإن كان بإمكانك أن تعرف. إن ذلك كان في الطريقة التي يتطلعون بها إليك». وبالمثل يلاحظ خليل ـ وهو نصف أوروبي، نصف عراقي من ناحية الأصل، «التمييز في إنكلترا ليس سافراً أو صريحاً كما هو في (القارة الأوروبية). هناك «الطريقة الإنكليزية في الأداء» كما يمكن أن تقول. إنك لا تسمع ملاحظات عرقية. الأمر فقط أنك لا تدعى إلى أماكن معينة. إن الأمر هنا أكثر خفية، أكثر «تمدناً» إذا شئت القول. وترى أنوارة ـ وهي لاجئة سودانية تقيم في مجمع سكني «مختلط عرقياً» تابع لمجلس المدينة: «حيثما ذهبت ينظر الناس إليك بوصفك أجنبياً وأنك لا تتكلم لغتهم. يقول الناس شيئاً لك وينظرون في دهشة لأنك تجيبهم بالإنكليزية. عندئذٍ تشعر أنك تنكمش على ذاتك».

ترافق الادعاءات وجود تمييز دقيق وصارخ هويات قوية في اختلافها. ويعتبر من قابلتهم في معظم الحالات أنفسهم دخلاء وغير بريطانيين تماماً، ولا ينتمون إلى عموم السكان الإنكليز. على سبيل المثال: يرى داود، وهو شاب اعترضته مجموعة من الشبان الذين وجهوا إليه عبارات عنصرية، أن مثل تلك التصرفات التي تمثل إهانة عرقية «قد أوضحت لي أنني لست بريطانياً». ويقول خليل، الذي يدرس في مدرسة خاصة هو العربي الوحيد بين طلبتها: «لم أشعر أبداً بأنني ألقى الترحيب أو القبول هنا. ولم أشعر إطلاقاً أنني واحد منهم. كنت دخيلاً دائماً. غير أن جزءاً من السبب هو شخصيتي. غير أن السبب أيضاً هو معرفتهم أنني عربي ومسلم». ومع ذلك يقول سمير، وهو مهندس عراقي في العقد السادس من العمر يعد نفسه مواطناً بريطانياً: «إن هذا المجتمع يتأكد من أن الجميع يفهمون أنك إذا كنت بريطاني الجنسية لا

يعني ذلك الكثير جداً بالضرورة. . . وينبغي أن نفهم قبل كل شيء أننا لسنا من الأنغلو ـ سكسون». وتقول جميلة، وهي مهاجرة مصرية في العقد الخامس من العمر «للإنكليز تقاليدهم وتاريخهم وملكتهم وملكهم وهم متمسكون جداً بكل ذلك. وفي رأيهم لا يمكن أن تكون واحداً منهم أبداً. لا يعترضون على أن تعمل لهم، غير أنك لا يمكن أن تكون واحداً منهم. هذا غير مهم. دع الإنكليز كما هم. . .».

ولكن هل هي أقلية عرقية؟

ان هذا الوعي بالاختلاف عن التيار الإنكليزي السائد أساساً نادراً ما يرافقه شعور التجاذب مع الأقليات العرقية أو تأكيد لوضع الأقليات العرقية. وفي حالات كثيرة في حين يتحدث من أجريت مقابلات معهم عن إضفاء الطابع العرقي عليهم فإنهم يرغبون في إبعاد أنفسهم عن الأقليات التي أضفي عليها طابع عرقي أو من المجموعات (العربية والآسيوية وغيرها) التي تبدو «متخلفة» أو هامشية من الناحية الثقافية. وبهذه الطريقة يبني من أجريت المقابلات معهم ضلعاً آخر للمثلث العرقي ويضعون أنفسهم بالنسبة إلى المجموعات المهيمنة والخاضعة ويظهرون أنفسهم بأنهم منفصلين ومختلفين عن كليهما.

لا يتمسك كل من أجريت المقابلات معهم بطبيعة الحال بهذا النمط من التثليث. وعلى سبيل المثال فإن رشيد، وهو مهاجر سوداني، ومتعاطف مع القومية العربية والقومية الأفريقية معاً، يربط بوضوح بين صفته العربية وصفته السوداء. ويشير رشيد إلى ميل أطفاله إلى مخالطة الأطفال من الأقليات والانضمام إلى السود. وفي مقارنة ساخرة مع اختبار «الكريكت» المثير للجدل الذي اقترحه عضو محافظ في البرلمان (البريطاني) لاختبار ولاءات الأقليات، يقول رشيد إن عادة مشاهدة مباريات كرة القدم التي كونها أطفاله تشير إلى تعلقهم عاطفياً بأقليات عرقية: وهذا واضح من حيث اللون. وإذا كان هناك نزال في الملاكمة بين أبيض وأسود قد لا تجد غرابة إذا شجع أطفالي الملاكم الأسود تلقائياً». ويقول في وصف مهرجان «نوتنغ هيل» الشهير المرتبط تقليدياً بالجالية الأفرو ـ كاريبية: «هذا وقت أعتبر فيه ويعتبر أطفالي والجالية السودانية أن المهرجان شيء سيئ هم جزء منه. ثمة تعرض للثقافة السوداء، الثقافة الأفريقية السوداء، والثقافة الأفرو ـ كاريبية. إنه شيء يستحق الفخر».

كما تصف فداء، وهي امرأة بريطانية المولد من أصل مصري في أوائل

العقد الثالث من العمر، انجذابها إلى جاليات لندن السوداء. إنها عضو في فرقة موسيقية مختلطة الأعراق، وتقول إنها تشعر بارتياح أكثر في حي «بريكستون» الذي تقطنه أغلبية من السود مقارنة مع منطقة إدجوير رود العربية على نحو ظاهر. وتصف نفسها بأن مظهرها الجسماني يمكنها من الاندماج في الجاليات السوداء، والأهم من ذلك أنها تمتلك «ثقافة» يفتقر إليها من هم من غير الأقليات: «الجاليات السوداء يسهل الاختلاط بها لأن أفرادها طيبون بغض النظر عن الصور النمطية... وبسبب مظهري وطريقتي في ارتداء الملابس وحقيقة أن شعري أجعد يظن الناس أنني من عرق مختلط.. ما دامت لديك ثقافة من السهل قبولك في الجالية السوداء. إن امتلاك خلفية ثقافية يلم شمل الناس».

غير أنه، بالنسبة إلى معظم من أجريت المقابلات معهم، في حين يوجد إدراك بالتمييز ووضع القوالب النمطية يعالج تحديد الهوية الذاتي كأقلية عرقية أو مع أقليات عرقية يعالج بطريقة تنطوي على تناقض وجداني أو يُرفض.

على سبيل المثال، اكتسبت اللاجئة السودانية أنوارة وعياً بكونها سوداء منذ استوطنت بريطانيا. غير أن هذا الوعي المتزايد لم يصاحبه أي شعور بالانتماء إلى السود الآخرين في بريطانيا. تصف أنوارة نفسها عجزها هذا عن التوفيق بين وضعها كشخص أسود في المجتمع البريطاني وبين تصوراتها القديمة المبنية على قاعدة سودانية عن التراتب الهرمي العرقي. لقد نشأت في الشمال السوداني «العربي»، ولذا اعتبرت أن السودانيين الجنوبيين من السود وهي لا تدري أنها هي أيضاً يمكن أن توصم كسوداء في إطار مختلف. وهي تزعم أنها تعتبر نفسها حالياً أفريقية أكثر منها عربية. غير أنها تستاء من تصنيفها بأنها «سوداء بريطانية» قائلة إن الأفارقة «طبقة مختلفة من الناس» هم أعلى منزلة من السود البريطانيين». وقالت «نحن ننظر إلى الطبقات الدنيا هنا... ونقول: انظروا إلى هؤلاء الناس وكيف يتصرفون وكيف يتحدثون بصوت مرتفع. إنهم في مركز متدن. أما نحن فلسنا من مثيري المتاعب مثل الآخرين».

ويصف اللاجئ السوداني عامر على نحو مشابه كيف أصبح واعياً بعرقه أثناء حياته في بريطانيا. غير أنه، شأنه شأن أنوارة، ينأى بنفسه عن مجموعات الأقليات الأخرى ويرفض الهوية العرقية المسيّسة. ويروي حادثاً معيناً ليوضح افتقاره إلى مفاهيم العرق في المجتمع البريطاني:

«. . . قبل أسبوع واحد كنت مع صديقي جالسين نشرب القهوة. كانت هناك إمرأة في سن الكهولة ومعها طفل صغير. . . واقترب الطفل منا قائلاً: «أنت أسود البشرة». قلت: «كلا، أنا لست أسود البشرة. أنا أسمر البشرة». كنت جالساً على كرسي أسود وأضفت: «انظر ها هو الفرق». وسألته: «ما لون بشرتك؟» قال «أنا أبيض». قلت «كلا، أنت وردي» وكانت تلك هي الحقيقة! وبدأت جدته تتظاهر بأنها غير مسرورة كثيراً بما كان يقوله الطفل. قلت لها: «كلا، هذا ما يسمعه. . . ممن؟. . . «هؤلاء سود. . . . اللون، ما هو الفرق الذي يحدثه؟»».

عندما واصلت توجيه الأسئلة إليه عن آرائه في «العرق» أجاب قائلاً: «الأمر مثير للاهتمام. لقد عشت مع الباكستانيين في أبو ظبي زهاء ثمانية أعوام. إنهم لا يعتبرون أنفسهم من السود. والآن ها هم يتحدثون عن أنفسهم بوصفهم من السود. . . إنه شيء غير معقول. إنها لمعاناة من نوع من عقدة النقص أو من شيء شبيه به عندما تتحدثين عن هذه المسائل العرقية. أنا لا أقبلها على الإطلاق».

من المؤكد أن أنوارة وعامر غير عاديين في الصراحة المسرفة التي يرفضان بها الهويات العرقية، بسبب كون لون بشرتهما أدكن من كثيرين آخرين في المقابلات. قد يشعران بحاجة أقوى إلى وضع نفسيهما بوضوح في مقارنة مع «السود». أما معظم الآخرين الذين أجريت معهم مقابلات فإن الأمر المهم هو مجرد غياب تحديد الهوية كأقلية عرقية وليس الرفض الصريح - حتى من جانب أولئك الذين يصفون التمييز الذي يواجهه العرب في بريطانيا. إن المقابلات مع العرب من الجيل الثاني مثيرة للاهتمام. لقد درس كثيرون من هؤلاء الأصغر سناً في مدارس تسودها «التعددية الثقافية» (Multiculturalism) كمعيار ايديولوجي (وغالباً سكاني) ويعمل كثيرون حالياً في بيئات «مختلطة» أو مجموعات متعددة الثقافات من الأصدقاء (ليس بالضرورة من العرب) ويختلطون بسهولة ويشاطرون الهوية مع آخرين لا ينسجمون في التيار السائد للمجتمع الإنكليزي. على سبيل المثال، قال شاب من أصل عربي - إنكليزي مختلط، إنه ينوي إقامة صلات جيدة بغير البيض لأن «فيه لمسة من السواد».

غير أن هؤلاء الشباب لا يساوون بين هذا الشعور بأنهم متعددو الثقافة وأجانب و/أو «خارج» التيار الرئيس للمجتمع الإنكليزي وبين كونهم أفراد

أقلية ذات «عرق» أو لون معين. مثال على ذلك الشابة اللبنانية الأصل ساندرا التي تصف نفسها بأنها تشبه المهاجرين والطلبة غير الإنكليز في جامعتها أكثر مما تشبه الطلبة الإنكليز، غير أنها تصف نفسها بالتأكيد بأنها عربية ولا تنسب نفسها إلى هوية عرقية مشتركة. ويميز سليم ـ وهو شاب من أصل سوري ـ نفسه عن مجموعات الأقليات الأخرى قائلاً إن الجاليات الأفرو ـ كاريبية والباكستانية هي بريطانية أساساً في حين أنه سوري وعربي. ويرى خليل، الذي يتحدث بصلابة عن شعوره بالاستبعاد من المجتمع الإنكليزي، أنه يفضل الحياة في حي إنكليزي لأن الأقليات السوداء لا تحترم الملكية والمحيط المادي. وحتى فداء، التي تصف انجذابها إلى الجاليات السوداء، لا تصف نفسها بأنها «سوداء» بل تشير إلى نفسها بدلاً من ذلك بأنها «مصرية» (بينما ترفض في الوقت نفسه أن تصف نفسها بأنها بريطانية، على الرغم من أن مسقط رأسها في المملكة المتحدة).

في حالات أخرى يرى من أجريت المقابلات معهم أنهم يشعرون بأنهم أقرب إلى السود منهم إلى البيض وأنهم مروا بتجارب السود نفسها. بيد أنهم يقولون أيضاً إن «العرب» فئة منفصلة تماماً تستحق الاعتراف المستقل. وتقول زهرة وهي مهاجرة مغربية: «حسناً، إذا خيرتني بين أبيض وأسود أختار الأسود لأن من الواضح أنني لست أوروبية. غير أننا دائماً عندما يكون لدينا استطلاع علينا البحث عن المربع الذي يتضمن «آخر» ونضع «مغربي أو عربي» فيه. وعندما يسأل كثيرون آخرون إن كانوا من مجموعة أقلية أخرى يقومون بمقارنات سطحية بين أنفسهم والمجموعات التي تحدد هويتها عادة بأنها سوداء أو كأقليات عرقية. وكما ترى جميلة: «نحن نختلف عن الآخرين جميعاً. لا يمكن أن نقرن بالآسيويين بالتأكيد. وليس مع الأفارقة حتماً. ولذا عليهم أن يفهموا أننا عرب ونود أن نسمى عرباً. الأمر بهذه البساطة لا أكثر».

هكذا يسير من شاركوا في المقابلات في مسار حذر بين تأكيد الاختلاف والمساواة بين اختلافهم وهوية أو وضع الأقلية التي أضفي عليها الطابع العرقي. وفي حين أنهم يدركون التمييز ضدهم، وهم مستعدون غالباً للإشارة إلى أنفسهم بوصفهم مجموعة أقلية، فإنهم يتجنبون عموماً الإشارة إلى أنفسهم كمجموعة عرقية أو وضع أنفسهم في تصنيفات عرقية قائمة. وبدلاً من ذلك يؤكدون باستمرار تميز الثقافة العربية ـ المرتبطة بمفاهيم القيم الأسرية

وروابط النسب والتقاليد والعادات - ويصرون على أن اختلافهم الثقافي لا يجعل منهم مجموعة أقل شأناً. إنهم يرون أن العرب لا يستحقون الوضع الثقافي المتدني الذي يُنسب إلى المجموعات العرقية.

إن الكثيرين ممن قابلتهم عازمون على إظهار أن الصفة العربية تضاهي الصفة الإنكليزية وأن الفروق الثقافية لا تستبعد العرب البريطانيين من المشاركة الكاملة في التيار السائد للمجتمع وينبغي ألاّ تفعل ذلك. إن اثني عشر مجيباً في الدراسة متحمسون لنسبة الصفة البريطانية إليهم، قائلين إنه في حين أن التيار السائد الإنكليزي يهمشهم فإنهم جزء لا يتجزأ من الأمة البريطانية التي لهم فيها حقوق وعليهم واجبات. وكما سيصبح واضحاً في القسم التالي يرى كثيرون من المشاركين في الدراسة أن العرب يمكن وينبغي أن يندمجوا ليتجنبوا الوصم ووضع الأقلية العرقية، وينبغي أيضاً أن يرفضوا كل عناصر «التخلف» و«التطرف» التي تستبعدهم من التيار السائد. ويعبر شخص واحد عراقي المولد عن هذه المشاعر قائلاً: إنه ربى أطفاله بحيث يشعرون بأنهم مرتاحون في المجتمع البريطاني لئلا ينظر إليهم وينظروا هم إلى أنفسهم على أنهم «جزء من مجموعة مهمّشة من الأقليات العرقية». ويرى أن هذا التهميش كان حال الجاليات اليمنية القديمة من الطبقة العاملة في مدن الموانئ الصناعية في بريطانيا. وأضاف أن اليمنيين «كانوا هنا طوال قرن من الزمن ولا يزالون مجموعة أقلية تتمسك بالكثير من العادات القديمة... إن عليهم أن يُحدثوا التغيير».

باختصار، في حين عبر المجيبون في المقابلات عن نوع من الوعي العرقي ووضعوا أنفسهم في موضع دخلاء في التيار الرئيس للمجتمع البريطاني، فإنهم يبعدون أنفسهم عن المجموعات التي اكتسبت طابعاً عرقياً. وبتجنب الهويات العرقية فإنهم يثلثون أو يناورون ليجدوا لأنفسهم مكاناً بين المجموعات المهيمنة والتابعة - مُظهرين أنهم مختلفون أساساً، غير أنهم يتجنبون إطلاق المجموعات المهيمنة عليهم وصف «الآخرين»[١٢].

(١٢) قارن: M. Waters, «Ethnic and Racial Identities of Second Generation Black Immigrants in New York City,» in: Alejandro Portes, ed., *The New Second Generation* (New York: Russell Sage Foudation, 1996).

ناشطو الجالية:
خلق هوية عامة للجالية العربية

تصبح عملية التثليث العرقي واضحة للغاية في المقابلات التي أجريت مع ناشطي الجالية. إنهم عموماً لاعبون أساسيون في السياسات العرقية، إذ إنهم مسؤولون من نواح كثيرة عن تمثيل «الجالية» أمام الجمهور عموماً، ويحددون للآخرين من يكون ضمن الجالية، ويحددون المشكلات التي تواجهها الجالية. إن الناشطين العرب الذين نصفهم في هذا القسم موجودون في المؤسسات المتعددة الثقافات التي ترعاها الدولة وفي منظمات الجالية التي يمولها الأهالي ويشارك عدة ناشطين في كلا النوعين. إن لهذه الأنواع المختلفة من مجموعات الجاليات أنصاراً ضمن السكان العرب. وتميل المجموعات التي ترعاها الدولة إلى مساعدة المجموعات العربية المنخفضة الدخل، وكثيراً ما يستثمر الناشطون في هذا القطاع لغة العلاقات العرقية والثقافية المتعددة. أما المنظمات ذات التمويل الخاص فتنزع نحو ضم أنصار من الطبقة الوسطى، وتميل إلى استعمال مصطلحات العلاقات العرقية على نحو أقل من النوع الآخر. غير أن مثل هذه التقسيمات كثيراً ما يطمسها تعدد عضوية الناشطين العرب، والأهم من ذلك تطمسها عمليات التثليث التي يشارك فيها الناشطون العرب.

التثليث وأحاديث الاندماج

في تحديد موقع فئة عربية غير ذات طابع عرقي يستمد ناشطو الجالية مراراً من لغة «الانصهار» و«الاندماج» مشيرين إلى أنه في حين أن العرب مختلفون فإنهم قادرون على «الانصهار» في التيار السائد للمجتمع البريطاني/الإنكليزي، حيث يكون ذلك مهماً - أي في الحياة العامة. إن منظمات الجالية، في رأي هؤلاء الأفراد، تعمل على حفظ السمات الثقافية العربية بينما تعزز التفاعل بين التيار السائد في المجتمع بحيث يكون للعرب صوت مسموع في الشؤون البريطانية وبحيث لا ينظر إليهم كمجموعة أقلية موصومة.

يتمسك وليد، وهو عضو ناشط في منظمة عربية يدعمها القطاع الخاص في لندن بوجهة النظر الاندماجية هذه على أقوى نحو بين الناشطين الذين قابلتهم. إنه يصر على أن منظمته تعمل كمنبر خاص يستطيع العرب أن ينمّوا فيه ثقافتهم المختلفة بعيداً عن الناس. ويرى وليد أن من الحيوي إبقاء «الاختلاف الثقافي» منعزلاً في مجالات خاصة لئلا يسقط العرب في موقع الأقلية العرقية الذي لا يحسدون عليه كما حدث، في رأيه، لمهاجري

الكومونولث الجديد. ويشرح ذلك قائلاً:

«ما أراه مزعجاً... هو أن الناس يميلون إلى وضع ثقافتهم ودينهم على صدورهم... لماذا نؤكد هذا الاختلاف ضمن المجتمع الأبيض؟ هناك ما يشبه رغبة الموت - لا رغبة موت، إنما يظنون أنهم يستطيعون أن يجدوا القوة بأن يكونوا مجموعة واحدة بسبب الوضع اللوني، أي بسبب وضعهم العرقي ويبلغهم زعماؤهم التافهون بأن يفعلوا ذلك. غير أن الحقيقة هي أنه مهما بلغت قوتهم يبقون مجموعة صغيرة ضمن المجتمع الأكبر، ويستطيعون تأكيد اختلافاتهم عن المجموعة الأكبر التي لا تستطيع أن تفعل شيئاً سوى رؤيتهم كدخلاء».

ويرى وليد أن تأكيد هوية عرقية عامة - أي هوية تؤكد «العرق» و«اللون» - يُبقي المجموعات المهاجرة في وضع يتسم بالضعف والتهميش. لذا فإن الهدف بالنسبة إليه في دوره القيادي هو إيجاد سبل لتعزيز الهوية العربية في الميادين الخاصة مما يمكن العرب أن يصبحوا «بريطانيين» - أكثر اندماجاً في عموم المجتمع والمواطنة - في حياتهم العامة اليومية. ويرى «أن الاندماج هو التحول إلى مواطن صالح يهتم بالمجتمع الذي يعيش فيه وليس مرتكزاً على الذات حاملاً الجالية المصغرة في رأسه...».

إن الناشطين الآخرين الذين قابلتهم من أجل هذه الدراسة أقل تصميماً في وجهة نظرهم بوجوب إبقاء صفة العربية بعيداً عن نظر الجمهور ومنفصلة عن واجبات المواطنة البريطانية. وفي الحقيقة يشيرون إلى أن صفة العربية ينبغي أن تدخل إلى الوعي العام، وأن على العرب المشاركة في الحياة العامة، ولا سيما لدعم حاجات عربية بخاصة، غير أنه بالنسبة إلى هؤلاء الناشطين، كما هو شأن وليد، يبدو أن المسألة الأهم هي وجوب ألا يرتبط العرب بالأقليات العرقية أو المجموعات المهاجرة «المتخلفة»، وأن يقتطع العرب لأنفسهم موقعاً واضحاً في التراتبات الهرمية الثقافية في بريطانيا. ولتوضيح ذلك، وعلى النقيض من وليد، يسعى سمير لمنح العرب كعرب صوتاً مسموعاً في الشؤون العامة. ويشرح مشاركته في منظمات كثيرة في لندن ودعمه لها كجهد لضم العرب إلى التيار الرئيس:

«العرب عموماً يفتقرون إلى الخبرة في العمل المدني... معظمهم لا يقدرون حتى أهمية القيام بذلك... وأعتقد أن دعم المنظمات العربية مهم

بهذا المعنى، أي أنه سيشجعهم على المشاركة ودعم التجمع الذي يؤسسونه في تيار رئيسي».

وفي رأي سمير أن جزءاً لا يتجزأ من الاندماج العربي في التيار الرئيسي هو الفصل بين صفة العربية والتخلف ووضع الأقلية المرئي. وفي حين ينبغي أن يتجنب المهاجرون العرب إيهام أنفسهم بتصور أن «الإنكليز» سيقبلونهم تماماً، يجب ألا «يشاركوا في النشاطات كافة في المجتمع بوصفه مجتمعنا» فحسب، بل كذلك تفادي الظهور بوصفهم دخلاء أو كأقلية. ويضيف: «لا أعتقد أنك في حاجة إلى ارتداء غطاء الرأس لكي تكون عربياً. وأعتقد أن أسوأ أذى للعرب كان هذه الصور المرئية...» وهكذا فإنه كناشط تهدف جهوده إلى تعزيز هوية عربية عامة وواضحة غير أنها تضع العرب على قدم المساواة مع الإنكليز، وتبعد العرب في نظر المجالات العامة وفي نظر الجمهور عن عناصر المجتمع التي تعتبر مهمّشة ثقافياً.

في مثال آخر تذهب وداد، المهاجرة المغربية النشيطة في مركز نسائي عربي في منطقة سكنية منخفضة الدخل، إلى أبعد من سمير في تأكيد هوية عربية عامة. بالإضافة إلى ارتداء زي إسلامي واضح تدعو وداد إلى بيئة تبدو أنها تؤكد الاختلاف الثقافي الخارجي بدلاً من محاولة الانغمار في «مجال خاص». غير أنها مصممة أيضاً على تمييز العرب عن مجموعات الأقليات الأخرى التي تقطن المنطقة التي تعمل فيها. وفي حين أنها تعلق على العنصرية التي تواجهها الأقليات كافة - ومنها العرب - في المجتمع البريطاني فإنها تبرز أيضاً الفروق الاجتماعية بين العرب ومجموعات الأقليات ذات الطابع العرقي. وتعلق في هذا الصدد على عجز النساء العربيات عن الانضمام إلى أندية الأمهات الشابات في أحيائهن السكنية السوداء المنخفضة الدخل لأن هذه الأندية، في رأي وليد، تجتذب «الأمهات الأصغر سناً في لندن في سن ١٢ أو ١٣ سنة اللاتي لا يعرفن آباء أطفالهن. النساء هنا لا يرغبن في ذلك وآباؤهن متزمتون». وتقدم وداد كذلك صورة واضحة لقطاعات المجتمع البريطاني التي ينبغي على الشابات العربيات الاندماج فيها. وتتحدث مرة أخرى عن المنطقة السكنية التي تقطنها وتعمل فيها فتقول: «أكره حقاً العيش في قلب لندن. أشعر أنهم يأتون بكل الناس السيئين من كل مكان ويضعونهم هنا. تتفشى فيها الجرائم والأيدز والتعليم فيها فظيع. أتولى تدريس أطفالي في المنزل لأنني لا أريدهم أن يكونوا في هذه البيئة».

ترى وداد إذن أن هدف المركز النسائي ـ الذي يموله جزئياً مجلس المنطقة المحلي ـ هو إقامة بيئة عربية على نحو فريد يمكن أن تطلع النساء فيه على الخدمات التي يقدمها المجتمع البريطاني بينما يتجنبن الاختلاط بالعناصر المهمشة ـ السود ضمناً ـ داخل المجتمع. وتشير وداد إلى أنه يمكن تحقيق الاندماج وتجنب الوصم، وفي الوقت نفسه الإبقاء على صفة عربية أساسية.

يبدو الآخرون الذين أجريت مقابلات معهم، والذين يربطون أنفسهم على نحو أوثق بسياسات علاقات الأعراق التي ترعاها الدولة أكثر استعداداً لوضع أنفسهم في فئة «السود». وترأس الناشطة المغربية المولد نبيلة مشروعاً لعلاقات الأعراق يرعاه المجلس المحلي في غربي لندن وليس موجهاً بصفة خاصة للعرب. وتصف نفسها بأنها أكثر انجذاباً إلى السود من البيض وتقول: «لا أستطيع اعتبار نفسي بيضاء... الأقرب إلى نفسي أن أقول سوداء وليس بيضاء». تعمل نبيلة روتينياً في المنظمات المتعددة الثقافة، وتعلّق بأن كل مجموعات المهاجرين تواجه المشكلات نفسها في التكيف مع الحياة في بريطانيا، وفي هذا الصدد لا ترى شيئاً فريداً بشأن تجارب العرب في بريطانيا.

ولكن، على الرغم من هذا الشعور بالانجذاب العاطفي والتشارك، تصر نبيلة على حاجة العرب ـ والمجموعات المهاجرة الأخرى ـ إلى الإبقاء على منظماتها المستقلة التي يمكن من خلالها نقل ممارسات وقيم ثقافية معينة إلى الأجيال الأصغر سناً. وتقول إن هدف نشاطاتها هو توسيع سياسات علاقات الأعراق البريطانية لتعترف بالعرب كمجموعة مستقلة، وتضيف: «إذا رجعت إلى قانون علاقات الأعراق فإنه استهدف الهنود الغربيين والأفرو ـ كاريبيين والآسيويين بوجه خاص. ثم قاموا بتوسيع القانون ليشمل الصينيين... وثمة مجال لتوسيعه ليشمل ذوي الأصل العربي إذا بذلت الجالية العربية بعض الجهد أو قامت بحملة. لكن بسبب الافتقار إلى الوعي لا وجود للعرب. أنت بحاجة إلى أن يكون لك صوت وإلى إسماعه. ولن تصل إلى هذا إلا بإسماع صوتك». وفي الوقت نفسه تستعمل نبيلة لغة الاندماج على نحو شبيه بلغة الآخرين الذين أجريت مقابلات معهم قائلة إن على العرب الإبقاء على الهوية الثقافية في الأسر وفي منظمات الجالية، بينما يندمجون في مجالات الحياة العامة: «ينبغي على العرب الاندماج إلى حد معين... الاندماج مهم للغاية يتيح لنا فرصاً. وأشعر أننا محظوظون لتزويدنا بخيار... ولك الحق في الشكوى من... الخدمات الاجتماعية والمدرسة والتعليم. يُطلب منك

المشاركة. ويرحِّب بك طوال الوقت لتقديم المساهمات».

مثال أخير يجمع معاً الأفكار التي تظهر في المقابلات مع الناشطين العرب: الرغبة في الإبقاء على هوية عربية مستقلة، وتجنب الارتباط بالتعصب والتخلف أو الوضع العرقي المتدني، والرغبة في الاندماج في الحياة العامة للتيار البريطاني/الإنكليزي الرئيسي. جميلة امرأة مصرية المولد لها مواقع قيادية في منظمة عربية تضم أعضاء من الطبقة العاملة والطبقة الوسطى في شمالي لندن. إنها تشير إلى العرب باستمرار بوصفهم «أقلية عرقية». وتعقد التشبيهات بين العرب والمجموعات الأخرى ـ الجامايكيون والهنود والباكستانيون ـ وتقول إن العرب يخوضون نضالاً من أجل الاعتراف بهم وقبولهم، وإنهم يتطلعون إلى المساعدة من المجموعات الأخرى. وفي الحقيقة تجتمع منظمتها في شمالي لندن بانتظام مع مجموعات جاليات غير عربية لمناقشة المسائل التي تواجه «الأقليات العرقية» في بريطانيا.

غير أنها في أسلوب يشبه كثيراً أسلوب نبيلة تستخدم مجازات التعددية الثقافية (Multiculturalism) وعلاقات الأعراق لتأكيد هوية منفصلة للعرب تعتقد أنها ينبغي أن تمنح الاعتراف الرسمي: «آمل أن يعدونا عرباً وليس «آخرين» وهذا مهم للغاية لنا. ما نريده حقاً هو تدريس اللغة العربية في المدارس البريطانية حيثما تدعو الضرورة... وإذا كانوا يستطيعون تدريس لغة الأوردو ولغات أخرى فلماذا لا يتولون تدريس العربية؟» وبينما تؤكد الاختلاف الثقافي تؤكد أيضاً حاجة العرب إلى التخلص من القوالب النمطية التي تصفهم بأنهم متطرفون وإرهابيون. والاندماج في الحياة العامة السائدة: «إننا نحاول تحسين صورة العرب تماماً. نحن نحاول إقامة مجموعة ضغط عربية في بريطانيا. نحاول تعليم العرب هنا الاندماج في المجتمع إلى أبعد حد ممكن. لن تكون إنكليزياً أبداً، وستبقى دائماً أجنبياً لعيناً، غير أن ذلك لا يعني أنني لا أستطيع الاندماج. أستطيع التصويت وأستطيع أن أعمل، أستطيع أن أفعل كل شيء».

يبدو، باختصار، على السطح، أن أهداف الناشطين العرب متناقضة. إنهم يعبرون عن رغبة في أن يكونوا مختلفين، على أن يعاملوا مثلما يعامل «التيار السائد» وأن يُمنحوا اعترافاً منفصلاً ومع ذلك أن يحققوا الاندماج التام، وأن يحافظوا على تميزهم الثقافي، ولكن مع عدم الربط بينهم ومجموعات أخرى موسومة باختلافها. إن ما تعكسه هذه التناقضات هو شكل

من التثليث يضع العرب فيه أنفسهم بالنسبة إلى مواقع عرقية مختلفة ويؤسسون موقعهم في التراتبات الهرمية الاجتماعية في بريطانيا.

إن هذا التثليث المرئي الذي اتضح في مقابلاتي مع مجموعة واسعة من أفراد الجالية العربية واضح وصريح، ولا سيما بين الناشطين العرب المكلفين بتركيب صورة عامة لصفة العربية عند العرب وغير العرب على السواء. إن هؤلاء الناشطين الذين يدركون القوالب النمطية التي تحقّر العرب، والافتقار النسبي إلى وضوح رؤية العرب في سياسات علاقات الأعراق والفروق في الأوضاع المرتبطة بالنعوت العرقية، يحددون كيف تتلاءم مجموعتهم مع ميدان معقد من المواقف العرقية التي لا تحدد فيها الصورة العربية إلا على نحو غامض. إنهم يستمدون بعناية من أحاديث حقوق الأقليات والنزعة العنصرية والاندماج، وفي نهاية الأمر يحددون موقع العرب بوصفهم مجموعة أقلية ليست سوداء ولا بيضاء، بل تمثل كياناً فريداً. صفة العربية في هذا الصدد تعرّف أولياً بمعايير ثقافية (وليس عرقياً)، ولو أن الثقافة العربية كثيراً ما تُعامل بوصفها متأصلة لا تتغير وجوهرية للشعوب العربية كافة. ويميل الناشطون إلى إبعاد الهوية العربية ـ أو في الأقل فصلها ـ عن الهويات العرقية الأخرى، بينما يصرون على أن صفة العربية مساوية لصفة الإنكليزية ومتوافقة معها. إنهم بهذا يخلقون مثلثاً بين أنفسهم والعرب والأقليات الأخرى (بما فيها العناصر «المتخلفة» داخل صفوفهم). وهم إذ يفعلون، بذلك يتناقشون ـ وأخيراً يتفاهمون ـ مع الايديولوجيات والأحاديث والتراتبات الهرمية.

استنتاجات

ليس غريباً أن يشترك أفراد الجالية العربية في تثليث هويات المجموعة لغرض استكشاف تراتب هرمي اجتماعي معقد. وليس من غير المتوقع أن يعتمدوا على التركيبات الثنائية للهوية واعتبار «ثقافة» المرء ساكنة ونقية وأساسية. وليس غريباً أنهم يتحدثون في الوقت نفسه عن الاندماج في مجتمع التيار الرئيس والمحافظة على ثقافة المجموعة. وليس غريباً أنهم يرغبون في تحديد موقعهم على قدم المساواة مع المجموعات المهيمنة. إن أية مجموعة واعية لهويتها واختلافها ووضعها تشارك في هذه السلوكيات الاجتماعية. وقد استوعب الباحثون حقاً هذه الأنماط السلوكية منذ أصبح «المهاجرون» موضوع دراسة في أوائل القرن العشرين.

لذا لم يكن هدف هذا البحث الترحيب بشكل جديد من علاقات الأعراق أو النزعة العنصرية أو الهوية العرقية، بل توسيع تفاهمات ما «يهم»

كسياسات عرقية بالتقويم المباشر للسياسات التي يعبر بها الناس عن الهويات ويفسرون النشاطات. تعتمد مفاهيم العرق - والهوية عموماً - على انقسامات ثنائية تقوم بمجانسة مجموعات من الأفراد قابلة للتحديد. غير أن وراء هذه التقسيمات الثنائية تكمن مناقشات فردية ومشتركة كثيرة للمواقع العرقية والمعاني العرقية. إن السياسات العرقية بهذا المعنى لا تعمل وفقاً لخطوط بيضاء وسوداء واضحة. وكما تشير المقابلات مع المهاجرين العرب تنطوي السياسات العرقية على استكشاف هويات متعددة في نظام اجتماعي ما، وتقويم متواصل للموقع كمجموعة «عرقية».

إن المواقع العرقية في حالة العرب محسومة نوعاً ما. يلتزم الناشطون وأفراد الجالية العاديون الحياد على حد سواء نحو الفروق العرقية، ويعتبرون أنهم يشغلون فئة «الآخرين» التي تتأرجح في مكان ما بين السود والبيض. وبذلك يكشفون النقاب عن أبعاد مختلفة للعرق - أقل شأناً/ أعلى شأناً ومختلف/ متشابه وأجنبي/ من أهل البيت - يقيمون الصلة بها مع المجموعات الأخرى. إن الرسالة التي تخرج من هذه الجهود الغامضة معقدة أكثر مما تشير الهويات العرقية الثنائية.

لا يمكن تصور السياسات العرقية كمسألة بسيطة، هي هيمنة البيض على السود، ولو أن هذا كان تاريخياً مكوناً بارزاً للعنصرية وإضفاء الطابع العرقي. وبسبب تعدد المجموعات الاجتماعية في المجتمعات التي تستقبل المهاجرين من المهم إلى حد بعيد الكشف عن المواقع العرقية المختلفة التي تتشكل في إطار معين. وقد أظهرت هذه الدراسة أن المجموعات المستبعدة من الفئات العرقية «الرسمية» تشترك على نحو واضح في السياسات العرقية، كما أنها عناصر نشيطة في صياغة هذه السياسات. وفي حين أن المؤسسات ومواقف المجموعات المهيمنة «في التيار الرئيس» في بريطانيا قد أدامت مواطن اللبس المحيطة بالعرب، فإن المهاجرين العرب أنفسهم قاموا بإحداثها في جهودهم لتحديد موقعهم في نظام بريطانيا العرقي. وبينما كثيراً ما تكون الهويات العربية مستقرة فإنها ستتحول بمرور الزمن مع تغير العلاقات الاجتماعية والتراتبات الهرمية الثقافية والنظم الايديولوجية. وفي هذا الصدد لا يمكن فهم صفة العربية في بريطانيا باعتبارها مجموعة لا تتغير من القيم والمواقف بل بوصفها هوية تكتسب معناها علائقياً - أي من خلال التفاعلات مع المجموعات الأخرى. ومع تغير هذه العلاقات تتغير أيضاً «صفة العربية» وأسلوب تخيل العرب البريطانيين هوياتهم وأدائهم لها.

القســم الثانــي

الأوضاع الاقتصادية للجالية العربية في بريطانيا

الفصل السادس

الجالية العربية في بريطانيا: خريطة سكانية

غادة الكرمي(*)

ـ ١ ـ

موضوع هذا الفصل ليس موضوعاً سهلاً. وعلى الرغم من الأعداد المتعاظمة من العرب في هذا البلد فإننا نفتقر إلى البيانات الموثوق بها عن أعداد العرب وتوزيعهم الاقليمي وتفاصيل حياتهم. والسبب في جانب منه هو طريقة تعداد السكان رسمياً في بريطانيا، وفي جانب لأنه لم يتم إجراء سوى دراسات نوعية قليلة عن الجالية العربية. وكثير من معلوماتنا هو من نوع الحكايات، لذا فإنه عرضة للخطأ. وهذا أمر مؤسف إذ إن بريطانيا تضم إحدى أكبر الجاليات العربية في أوروبا، كما أن هذا البلد مركز مهم للعمل التجاري والاتصالات والتعليم للعرب.

وعلى الرغم من أن الوجود العربي هنا قد زاد بصورة واضحة في العقود الأخيرة، فقد حدثت في الحقيقة عملية هجرة نشيطة من الوطن العربي منذ أكثر من قرن، وشملت هجرة السكان من الريف إلى المدن والهجرة بين الأقطار العربية، والهجرة إلى خارج الوطن العربي. وأدت عوامل سياسية، فضلاً عن عوامل اقتصادية، إلى هذه الهجرة. على سبيل المثال، أدى قيام

(*) رئيسة الجالية الفلسطينية ـ لندن.

إسرائيل في عام ١٩٤٨ إلى هجرة واسعة للفلسطينيين الذين رحل الكثيرون منهم للعمل خارج الشرق الأوسط. كما أدى الصراع السياسي والعسكري في العراق والسودان والصومال إلى ازدياد الهجرة إلى أوروبا والغرب. وامتدت هجرة الأيدي العاملة من أقطار شمال أفريقيا التي ارتبطت تقليدياً بفرنسا والدول الأخرى الناطقة بالفرنسية إلى دول أوروبية أخرى.

وعلى نحو أكثر تحديداً هاجر العرب إلى بريطانيا منذ القرن التاسع عشر. وأقدم الجاليات هي الجالية اليمنية في الشمال الشرقي والتجار السوريون في مانشستر. وزاد تدفق اللاجئين على نحو كبير في العقدين الأخيرين لأسباب سياسية واقتصادية ونتيجة الحروب والصراعات الاقليمية. وبحلول نهاية عقد الثمانينيات وضعت تقديرات مختلفة العدد الإجمالي للعرب القاطنين في بريطانيا بين نصف مليون ومليون وربع مليون، على الرغم من أن أرقام التعداد السكاني الوطنية، كما سنرى، لا تتطابق مع هذا التقدير. وبالإضافة إلى ذلك يعيش زهاء نصف العرب المقيمين، في لندن، ولو أنهم ليسوا جميعاً مستقرين فيها. وبين العرب الأكثر استقراراً المصريون واليمنيون والمغاربة والفلسطينيون.

العرب في بريطانيا مجموعة مهاجرة غير عادية مالت إلى الاحتفاظ بالاهتمام ببلدانها الأصلية. ويعتبر كثيرون منهم أن إقامتهم في بريطانيا مؤقتة مهما طال عيشهم فيها، ويكاد يقتصر اتصالهم على العرب وحدهم. ولهذا السبب مالوا إلى كونهم بمعزل عن أية مشاركة في الحياة العامة البريطانية أو المؤسسات البريطانية. وبهذا المعنى فإنهم يختلفون اختلافاً بيّناً عن المهاجرين الآخرين، مثلاً عن الوافدين من شبه القارة الهندية الذين أحدثوا تأثيراً كبيراً في الحياة العامة في بريطانيا.

كما ذكرت آنفاً، يكشف فحص الأدبيات المنشورة عن ندرة حقيقية في المؤلفات المنشورة عن العرب في بريطانيا. وثمة عرض عام لمداوي الرشيد في مقالة نشرت في عام ١٩٩١. كما توجد دراسة قصيرة نشرت في عام ١٩٩٢ لكاميليا الصلح عن الهجرة والجاليات العربية، ومقالة أقصر للكاتبة نفسها في عام ١٩٩٣. وأعاد الرشيد مؤخراً نشر دراسته الصادرة عام ١٩٩١. وهنالك بعض الدراسات القصيرة عن مجموعات عربية معينة. وتشمل هذه الدراسات دراسة فريد هاليداي عن العرب في المهجر التي تتناول الجالية اليمنية، وكذلك كتاب لوليس عن الجالية نفسها. ونشر كل من الرشيد والصلح مقالتين عن

العراقيين والصوماليين على التوالي. وقمت بين عام ١٩٨٨و١٩٩٤ بدراسة عن الجالية المغربية تضمنت أيضاً بيانات عن المغاربة من الجيل الثاني. وفي عام ١٩٩٧ أجريت دراسة عن الجالية المصرية. وأصدرت جمعية الجالية العراقية مؤخراً مسحاً للعراقيين في بريطانيا(١).

لقد أجريت الدراسة الحالية بصفة جزئية لملء هذه الفجوة في المعلومات، غير أنها صُممت أيضاً لإلقاء الضوء على دينامية الاندماج والشعور بالهوية ضمن جالية عربية مهمة يمكن أن توفر نقطة مقارنة مع سلوك الجاليات الأخرى، ولا سيما المسلمة، التي تعيش في بريطانيا حالياً. وترسم الدراسة صورة اجتماعية وسكانية للمصريين الذين يعيشون هنا، وتبحث أسباب استقرارهم في بريطانيا، وشعورهم بالهوية والانتماء والألفة والاندماج مع النظم البريطانية والمجتمع هنا. كما تستقصي تصوراتهم عن العرقية وطموحاتهم لأبنائهم وخطط المستقبل لأنفسهم.

---

(١) انظر: M. Al-Rasheed: «Invisible and Divided Communities,» paper presented at: *Selected Papers Presented at the One-Day Conference on Arab Communities in Britain: Concerns and Prospects: Held on Saturday 6th October 1990 at University of London, School of Oriental and African Studies*, organised by the Arab League and the Arab Club of Britain (London: Riad El-Rayyes Books, 1991) pp. 1 - 13; «Political Migration and Downward Socio-economic Mobility: The Iraqi Community in London,» *New Community*, vol. 18, no. 4 (1991), pp. 537-550; «The Meaning of Marriage and Status in Exile: The Experience of Iraqi Women,» *Journal of Refugee Studies*, vol. 6 (1993), pp. 89 - 104, and «The Myth of Return: Iraqi and Assyrian Refugees in London,» *Journal of Refugee Studies*, vol. 7 (1994), pp. 199 - 219; C. El-Solh: «Arab Communities in Britain: Cleavages and Commonalities,» *Islam and Christian Muslim Relations*, vol. 3, no. 2 (1992), pp. 236 - 258; «Somalis in London's East End: A Community Striving for Recognition,» *New Community*, vol. 17, no. 4 (1991), pp. 539 - 552, and «Arabs in London,» in: Nick Merriman, ed., *The Peopling of London: Fifteen Thousand Years of Settlement from Overseas*, foreword by Colin Holmes (London: Museum of London, 1993), pp. 72 - 79; Richard I. Lawless, *From Ta'izz to Tyneside: An Arab Community in the North-East of England during the Early Twentieth Century* (Exeter; Devon, UK: University of Exeter Press, 1995); Fred Halliday, *Arabs in Exile: Yemeni Migrants in Urban Britain* (London; New York: I. B. Tauris, 1992), and G. Karmi, «The Moroccan Community in London: A Health and Social Survey,» (In Press).

- ٢ -

ثمة خلاف حول الحجم الحقيقي للجالية المهاجرة العربية في بريطانيا. والسبب أن الأرقام الرسمية في تعداد السكان الوطني والمصادر الحكومية الأخرى تختلف اختلافاً كبيراًعن الأرقام التي توفرها الجاليات نفسها. المصادر الرسمية عن حجم السكان هي بالدرجة الأولى من تعداد السكان لعام ١٩٩١. وقد تضمن هذا للمرة الأولى سؤالاً عن الأصل العرقي، فضلاً عن السؤال التقليدي عن بلد الولادة. من الناحية النظرية ينبغي أن يزود هذان المصدران أفضل تقدير ممكن لحجم المجموعات الأجنبية في بريطانيا، غير أنه في حالة العرب نشأ تشويش، وبالتالي تقليل في التقديرات، بسبب الأسلوب الخاطئ الذي اتبعه المجيبون في وصف أصلهم العرقي في استمارات التعداد. على سبيل المثال وضع عرب كثيرون أنفسهم في فئة «البيض» في التعداد، وصنف بعض المصريين أنفسهم بأنهم سود أو أفارقة. ويذهب الرشيد إلى أن من مجموع ٢٣,٠٠٠ شخص مصري المولد اشتركوا في التعداد وصف ما يصل إلى ١٧ ألفاً أنفسهم بأنهم «بيض». وفضلاً عن ذلك، هناك عرب مولودون في بريطانيا أو في أقطار أخرى خارج الوطن العربي ولا يحددون عرقهم إطلاقاً. ووصل مؤخراً إلى بريطانيا عرب من جنوب غرب إيران (عربستان) وكثيرون منهم متزوجون من عراقيات أو عراقيين. ولا يصنف هؤلاء أنفسهم كعرب بل بوصفهم «عربستانيين».

تأخذ هذه التحفظات بنظر الاعتبار قدر تعداد السكان لعام ١٩٩١ أن عدد العرب في بريطانيا بلغ ٩٦,٧٢٣ منهم ٨٩,٣٨٠ يعيشون في إنكلترا، ٤,٤٣١ في اسكتلندا و٢,٦٠٨ في ويلز. ويعيش زهاء نصف عرب بريطانيا في لندن.

الجدول رقم (٦ ـ ١)
مقارنة بأعداد العرب الموجودين في بريطانيا ولندن عام ١٩٩١

مجموع العرب	في بريطانيا	في لندن
الجزائريون	٣٦٢٢	١٦٣٥
المصريون	٢٢٥٨٢	١٠٠٤٣
العراقيون	١٤٩٧٩	٧٨٦٧
الأردنيون	٢٤٧٧	٨٩٣
اللبنانيون	٨٧٥٥	٦٣١٤
الليبيون	٦٤٢٦	١٥٥٩
المغاربة	٨٨٦٤	٥٩١٧
السعوديون	٣٨٣٨	١٩٨٧
السوريون	٢٧٤٤	١٤٤٣
التونسيون	٢٣٧١	١٣٤٧
شرق أوسطيون آخرون	٢٠٠٦٦	٦١٤٥
المجموع	٩٦٧٢٣	٤٥١٥٠

المصدر: Office of Population Censuses and Surveys, General Register Office for Scotland, *1991 Census* (London: Her Majesty's Stationery Office, 1993-).

وتقدم إحصائيات الدوائر الانتخابية في لندن أعداد السكان لمكان إقامة العرب في لندن. وتكشف هذه أن مناطق إقامة العرب الرئيسة في لندن التي يقطنها أكثر من ألف عربي هي بالترتيب التنازلي ويستمنستر، وكنزنغتن وتشيلسي، وأيلنغ، وبرينت، وبارنيت، وهامرسمث وفولهام، وهارينغي، وهونسلو، وواندزورت، وكامدن، ولامبيث، وهاكني، وريتشموند أبون تيمز، غير أنه توجد جاليات عربية كبيرة أخرى في أنحاء أخرى في لندن.

وتتناقض إحصائيات تعداد السكان على نحو كبير مع تقديرات الجاليات. والأرقام الأكثر جدارة بالاعتماد هي الأرقام التي قدمتها الصلح في عام ١٩٩٢ قبل أن تصبح أرقام التعداد السكاني متاحة. وبتجميع المعلومات من عدة تقديرات من مسح القوة العاملة وغرفة التجارة البريطانية العربية وعدد إجازات العمل التي منحتها وزارة الداخلية البريطانية إلى العرب للعمل واللجوء، توصلت الصلح إلى أن العدد هو ٢٥٠ ألف عربي. وفي حين أن هذا العدد أعلى من إحصائيات التعداد فإنه أقل من العدد الذي تورده الجاليات نفسها. ويعتقد المصريون أن عددهم ٦٠ ألفاً في لندن وحدها ويقول العراقيون إن عددهم يبلغ ٧٠ ألفاً. ويقدر كل من المغاربة والصوماليين أن عددهم أكثر من ١٥ ألفاً. وتوضح الصلح أن الجاليات كثيراً ما تضخم

أعدادها بغية كسب المزايا من السلطات ولأسباب أخرى، ولذا فإن التقديرات الذاتية لا يمكن الوثوق بها. وعلى الرغم من ذلك، صحيح أن أكبر مجموعتين عربيتين في بريطانيا هما المجموعتان المصرية والعراقية. وفي حين يشير تعداد السكان إلى أن عدد المصريين يتجاوز عدد العراقيين فإن ذلك قد لا يمثل الحالة الحقيقية. لقد قدم عراقيون كثيرون إلى بريطانيا في السنوات العشر الأخيرة، ويمكن الافتراض أن عدداً كبيراً منهم كانوا مترددين في ملء استمارات تعداد السكان، مما أدى إلى تقليل تقدير عددهم الحقيقي.

ولا بد من الإشارة إلى أن الأعداد أعلاه تتعلق بالعرب المستوطنين في بريطانيا وليس بمن يقدمون إلى بريطانيا كزوار لأسباب مهنية أو أسباب أخرى. ويمثل هؤلاء عدداً إضافياً ولا سيما في أشهر الصيف. ويقدر أن زهاء ٢٠٠ ألف عربي كانوا يفدون إلى بريطانيا سنوياً كسياح وبحلول نهاية عقد الثمانينيات كان نحو نصف مليون عربي يعيشون في بريطانيا طوال معظم السنة، أو جزءاً منها.

- ٣ -

يبدو أن أقدم هجرة للعرب إلى بريطانيا حدثت في القرن التاسع عشر. وكان أولئك المهاجرون تجاراً سوريين ومغاربة بخاصة، استقروا في المدن الصناعية في الشمال في حوالى منتصف القرن. وبعد ذلك بدأ اليمنيون والصوماليون الذين استعانت بهم البحرية التجارية البريطانية في أوائل القرن العشرين بالاستقرار في الموانئ البريطانية مثل كارديف وليفربول. وعندما استغنت عنهم البحرية عقب الحرب العالمية الثانية أصبح أولئك البحارة لاحقاً عمالاً يتقاضون أجوراً منخفضة، يعيشون في مناطق فقيرة في المدن. وأثناء عقدي الأربعينيات والخمسينيات في القرن العشرين قدم إلى بريطانيا بعض المصريين والسودانيين لأسباب مهنية، وكذلك قدم الفلسطينيون الذين شردهم الصراع مع إسرائيل في عام ١٩٤٨. غير أن العرب لم يهاجروا إلى بريطانيا بأعداد كبيرة إلا في عقد الستينيات من القرن العشرين، ولا سيما بحثاً عن العمل. كان بعض هؤلاء مصريين مهنيين وعمالاً غير ماهرين غير أن أغلبهم كانوا مغاربة. وشجع النقص في المطاعم وقطاع الخدمات في بريطانيا في حينه على قدوم هؤلاء المهاجرين. واستمرت هجرة المغاربة الذين كان أكثرهم عمالاً غير ماهرين إلى أوائل عقد السبعينيات. وقَدِم المزيد من المصريين في ذلك الوقت. وبعد عام ١٩٧٣ حدث تدفق الأثرياء العرب الذين قدموا

لإقامة أعمال تجارية نتيجة الازدهار النفطي في أقطار الخليج.

وقد أدت الحرب الأهلية اللبنانية في منتصف عقد السبعينيات إلى قدوم كثيرين من اللبنانيين والفلسطينيين إلى بريطانيا. وكان عدد كبير منهم من رجال الأعمال والصحفيين والمثقفين. واحتفظ بعض هؤلاء المهاجرين، ولا سيما اللبنانيون، بقاعدة في بريطانيا، وكانوا يترددون على لبنان. وقد عاد هؤلاء أو أنهم ينتظرون العودة بعد تحسن الوضع السياسي. وشهد عقد الثمانينيات وصول عدد كبير من اللاجئين السياسيين وطالبي اللجوء من العراق والصومال والسودان. كما أن طالبي اللجوء اللبنانيين الماهرين وشبه الماهرين قدموا إلى بريطانيا في حوالى نهاية العقد نتيجة اضطراب الأوضاع في لبنان. وكثيرون من هؤلاء يتولون أعمالاً قليلة الأجور، ويعيشون في منازل تابعة لمجالس المدن، ولا يحتمل أن يعودوا إلى بلدانهم الأصلية.

الفصـــل السابـــع

الجالية العربية في بريطانيا: الحضور الغائب

عادل بشتاوي(*)

صورة الحضور العربي في بريطانيا

نشرتُ في نهاية عام ١٩٨٨ خلاصة لدراسة أجريتها في شأن الجالية العربية في بريطانيا قرأتها مرة أخرى قبل أن أكتب هذه الورقة، واعتقدت أنها تحتاج إلى تعديلات بسيطة فقط، كي تعكس عموم صورة الوضع الراهن للجالية العربية التي تظل لأسباب شتّى صورة حضور وغياب؛ قوة وضعف؛ يسر وتعيّش، تأثير ولا تأثير، ومجتمع وجالية. ومع أنني لا أزال أعتقد أن الإطار العام لا يختلف جوهرياً الآن عن الوضع قبل عقد، إلا أن تفاصيل الصورة داخل الإطار تغيّرت وباتت على جانب كبير من التعقيد الذي يستوجب دراسة أعمق لا تدّعيها هذه الورقة ولا تتسع لها.

وأهم ما يلفت لدى محاولة البحث عن المعلومات الخاصة بالحضور العربي في بريطانيا في نهاية عام ١٩٩٩ هو نفسه الذي لفت النظر قبل عشر سنوات، أي ذلك التباين المدهش في الإحصاءات التي توفرها المصادر الرسمية والمستقلة عن تعدادهم وأماكن إقامتهم والتأثير الذي تمارسه الجالية العربية في مختلف نواحي الحياة في بريطانيا.

في عام ١٩٨٨ كانت التقديرات الخاصة بعدد العرب المقيمين في

(*) كاتب صحافي.

بريطانيا تبدأ بـ ٧٠ ألفاً وتنتهي بنصف مليون شخص، وهي اليوم بين ١٠٠ ألف ونصف مليون أيضاً. إلا أن الأرقام الأقرب إلى الواقع منذ نحو العقد كانت تراوح بين حد أدنى هو ٨٥ ألف شخص وحد أقصى هو ١٨٩,٥ ألف شخص. وسمعنا السير بيتر لويد الذي كان معاوناً لوزير الخارجية بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٤، يقول للزميلة في صحيفة **الحياة** سوزانا طربوش أخيراً إن الرقم المقترح لعدد العرب في بريطانيا وهو ٢٥٠ ألفاً كبير على الأرجح، لكن العدد الحقيقي أكبر من ٩٧ ألفاً وهو الرقم الذي يعطيه إحصاء عام ١٩٩١.

ويعود السبب الأكبر في اتساع الهوة بين التقديرات إلى عمومية تنظيم الإحصاءات في بريطانيا وتباعدها الكبير. فمكتب الإحصاء العام ينجز دراسة إحصائية سكانية كل عشر سنوات.

وأصدر مكتب الإحصاءات نشرته الدورية في نهاية شهر أيلول/سبتمبر الماضي أشار فيها إلى أن واحداً من كل أربعة يعيشون في لندن أفاد بانتمائه إلى أقليّة عرقية في مقابل واحد من ١٦ شخصاً في باقي أنحاء بريطانيا ككل. ولا يعني هذا شيئاً محدداً بالنسبة إلى العرب، إلا أنه مؤشر مهم على تجمّع الأقليات العرقية في العاصمة البريطانية، وهذا يشمل الجزء الأكبر من صور الحضور العربي في بريطانيا.

الشراكة الاقتصادية العربية ـ البريطانية

تشكّل التجارة المنظورة وغير المنظورة لبريطانيا مع البلدان العربية نحو عشرة في المئة من جملة تجارتها العالمية باستثناء دول الاتحاد الأوروبي الذي يستوعب نحو نصف صادرات بريطانيا، فيما لا تتجاوز واردات بريطانيا من البلدان العربية نحو خمسة في المئة على الأساس نفسه. وعلى هذا يمكن القول ان البلدان العربية عموماً ودول مجلس التعاون الخليجي خصوصاً من أهم شركاء بريطانيا التجاريين. إلا أن التبادل التجاري بين بريطانيا والبلدان العربية يتميز بظاهرة نادرة في النشاط التجاري الدولي لأن معامل ميل التبادل التجاري في المتوسط هو ثلاثة إلى واحد لصالح بريطانيا. ومما يزيد هذه الظاهرة تميّزاً أن بريطانيا تتعامل مع عدد من أهم الدول المصدرة للنفط في العالم مثل السعودية والكويت والإمارات.

ومن أصل تبادل تجاري قيمته ١١,٨ مليار جنيه تحقق في عام ١٩٩٧، كانت نسبة الصادرات البريطانية إلى البلدان العربية نحو ٧٥ بالمئة (٨,٨٦ مليار

جنيه) فيما شكّلت الواردات من البلدان العربية نحو ٢٥ بالمئة أو ما قيمته ٢,٩٧ مليار جنيه. وهبطت النسبة البريطانية إلى ٦٨ بالمئة عام ١٩٩٤، و٦٩ بالمئة عام ١٩٩٠، إلا أنها تخطت ٧٠ بالمئة خلال الفترة بين عامي ١٩٨٨ و١٩٩٧ حتى قبل إضافة التجارة غير المنظورة (سياحة، تأمين، استثمارات الخ) التي هي لصالح بريطانيا بشوط طويل. وتختلف كلفة توفير الوظيفة الواحدة في بريطانيا من منطقة إلى أخرى، إلا أن توقّع أن تكون قيمة صادرات بريطانيا إلى البلدان العربية مفتاح توفير أكثر من ٣٠٠ ألف وظيفة في بريطانيا ليس من قبيل المبالغة.

وتحقق الولايات المتحدة تقدماً سريعاً في رفع قيمة صادراتها إلى البلدان العربية، وخصوصاً دول مجلس التعاون الخليجي، وهو أمر انعكس إلى حد ما على صادرات بريطانيا إلى الكويت والسعودية وغيرهما. وانخفضت صادرات بريطانيا إلى السعودية بنسبة تصل إلى ٣٠ بالمئة بين عامي ١٩٩٧و١٩٩٨، إلا أن معامل ميل التبادل التجاري ظلّ قوياً إذ كانت قيمة صادرات بريطانيا العام الماضي إلى السعودية نحو ٢,٦٩ مليار جنيه في مقابل واردات بقيمة ٨٩٢ مليون جنيه، وكذا في العام قبله عندما كانت قيمة الصادرات إلى البلدان العربية ٣,٨ مليار دولار والواردات ٩٩٧ مليون جنيه.

وعلى الرغم من المزاحمة الأمريكية التي نمت على خلفية حرب الخليج فإن بريطانيا تعتقد أن بإمكانها زيادة حصتها في أسواق البلدان العربية ففريق الترويج للصادرات البريطانية في وزارة التجارة البريطانية يضم نحو ٥٠ موظفاً.

ولا تكتمل صورة شراكة التجارة البريطانية العربية المائلة بحسم إلى الجانب الأول إلا بعد أخذ المشاريع والخدمات التي تقدمها مئات الشركات والمصارف والمؤسسات البريطانية الناشطة في البلدان العربية سواء مباشرة أو من خلال وكلاء ووسطاء محليين. ويقيم في البلدان العربية نحو ٥٠ ألف بريطاني معظمهم في دول الخليج (٤٥ ألفاً تقريباً).

أما من الزاوية المقابلة فليس بين يدي أي أرقام دقيقة عن قيمة الاستثمارات العربية المباشرة في بريطانيا حالياً، ولا أعرف جهة لديها مثل هذه الأرقام، إلا أن انطباعي العام المبني على الملاحقة اليومية لحركة الاستثمارات العربية في العالم يقودني إلى الاعتقاد بأن قيمة هذه الاستثمارات في عام ١٩٩٩ أقل من مثيلتها في نهاية الثمانينيات، لكن تغيّراً كبيراً طرأ على

تكوينها بعدما حلّت الاستثمارات الخاصة محل قسم كبير من الاستثمارات الحكومية أو شبه الحكومية. وأستند في هذا الاعتقاد إلى أن حرب الخليج عام ١٩٩١ استنفدت نحو ٦٠ بالمئة من الاستثمارات الكويتية المباشرة التي كانت تزيد على ١٠٠ مليار دولار قبل الحرب. وعلينا أن نتذكر أن مكتب الاستثمار الكويتي كان من أنشط المؤسسات الاستثمارية في العالم آنذاك فقيمة محفظة استثماراته في بريطانيا وحدها كانت نحو ٤٥ مليار دولار تضمّنت استثمارات مباشرة معروفة في ٢١ شركة بريطانية أهمها حصة في أسهم شركة البترول البريطانية (بريتش بتروليوم) قيمتها ٣,١٤٦ مليار جنيه طلبت الحكومة البريطانية آنذاك تقليصها إلى أقل من النصف نظراً إلى طبيعتها الرسمية. وكان جهاز أبو ظبي للاستثمار من المؤسسات الاستثمارية الفاعلة في تلك الفترة فشملت محفظة استثماراته حصصاً مهمة في شركات عدّة منها رويترز وترافلغار هاوس ولونرو وتبهوك وكورتولدز وغيرها، ولا تزال استثماراته قريبة من ١٠٠ مليار دولار.

وإذا صدّقنا التقديرات التي تقول إن تكاليف حرب الخليج تلك زادت على ٦٠٠ مليار دولار تطلّب قسم كبير منها تسديدها فوراً أو خلال فترة قصيرة، فربما وجدنا في تقلّص الاستثمارات العربية المباشرة في بريطانيا إحدى نتائج تلك الحرب. وعلى الرغم من ارتفاع أسعار النفط في بعض الفترات التي تلت تلك الحرب إلا أن هذه الأسعار مالت عموماً إلى الانخفاض، وبات العجز المالي سمة شبه دائمة في الموازنات الخليجية. وتحسن سعر النفط في ما بعد فزاد على ضعفي الثمن السائد قبل عشرة أشهر عندما كان سعر البرميل أقل من عشرة دولارات، إلا أن «السعر العادل» من وجهة النظر الأمريكية هو ١٨ دولاراً، مقارنة مع السعر العادل الذي يفكّر به بعض أعضاء أوبك وهو ٣٠ دولاراً. لكن حتى لو حام متوسط السعر عند ٢٠ دولاراً فإن هذا المستوى لا يكفي لإعادة بناء الاحتياط النقدي في صورة نهاية الثمانينيات.

وفي الوقت الذي لجأت فيه بلدان عربية مصدرة للنفط إلى السحب من احتياطاتها واستثماراتها وودائعها الخارجية لتغطية نفقات حرب الخليج وسد العجوزات المالية المتراكمة، وسعت البلدان العربية الباقية لاستدانة أكثر من ٢٠٠ مليار دولار لسد العجوزات المالية والإنفاق على المشاريع، يلاحظ استمرار تدفق الأموال العربية الخاصة إلى المراكز الاستثمارية الدولية لأسباب شتّى، منها تنويع المحفظة الاستثمارية، وهكذا حلّ التدفق المالي الخاص إلى

المراكز الاستثمارية الدولية (مثل لندن) محل الفراغ الذي نجم عن تسييل الاستثمارات الحكومية. ويتجه قسم كبير من «الاستثمارات» الخليجية الجديدة إلى الولايات المتحدة (حيث الأنظمة الاستثمارية أكثر حرية بكثير من مثيلاتها في أوروبا) مباشرة أو من خلال مجموعة من المصارف والمؤسسات المالية المتخصصة الموجودة في بعض دول الخليج وفي لندن. وحققت هذه المؤسسات نجاحاً لافتاً في عدد كبير من استثماراتها المباشرة في أمريكا وبريطانيا وفرنسا، إلا أن قسماً مهماً من الأموال يجد طريقه إلى الصناديق الاستثمارية والسندات والودائع. وإذا أخذنا أوعية الاستثمار الثلاثة المذكورة فربما أمكن القول إن قيمة الاستثمارات العربية في بريطانيا تراوح بين ١٣٥ و١٥٠ مليار دولار.

الصورة الاقتصادية للحضور العربي في بريطانيا

لا يمر عبر أبناء الجالية العربية في بريطانيا أو عبر الشركات العربية العاملة في بريطانيا إلا جزء ضئيل من جملة التبادل التجاري بين البلدان العربية وبريطانيا. ويمكن إرجاع هذا القصور إلى عدد من العوامل منها الحداثة النسبية للوجود العربي في بريطانيا وهامشية تأثير العرب في زيادة تركّز جانب من التبادل التجاري في أيديهم. إلا أن السببين الأهم في سهولة القفز من فوق الجالية العربية في بريطانيا إلى الأسواق العربية هما الاتصال البريطاني المباشر مع عدد من البلدان العربية المهمة بحكم قدم علاقاتها معها، واتساع نطاق الجانب الوكالاتي في الاقتصادات العربية الذي ينفي الحاجة إلى وسيط يُقيم في لندن مثلاً.

وللوجود العربي في بريطانيا مشاركة أفضل في انتقال الاستثمارات العربية إلى بريطانيا من خلال مجموعة صغيرة نسبياً من الأفراد، ومجموعة أقل من الشركات المتخصصة التي أتقنت مع الزمان التعامل في أهم مركز مصرفي ومالي في العالم. وتأخذ هذه المشاركة أشكالاً عدّة فمنها الاستثمارات العقارية التي تشكل جزءاً كبيراً من الاستثمارات العربية في بريطانيا، ومنها تسويق الاستثمارات لمجموعة من المستثمرين المليئين مالياً بعد توضيبها في لندن. إلا أن قيمة هذه الاستثمارات لا تنعكس على أبناء الجالية العربية، إلا من خلال عدد محدود من الوظائف في المصارف والمؤسسات الاستثمارية والشركات المعنية التي لا تحتمل بطبيعتها كثافة عمّالية.

وفي بريطانيا عدد صغير من الشركات العربية ذات التمويل الكبير، إلا

أن جل الشركات العربية صغير وينشط في حقول معينة مثل تسويق العقارات وخدمتها، والمرافق السياحية والتسويقية (مطاعم، مكاتب سفر محدودة، محالّ حلويات، بوتيكات مختلفة، ترجمة، الخ) والشركات الأخرى التي تقدم أنواعاً معينة من الخدمات، وكلّها لا توفر إلا عدداً محدوداً من الوظائف. وعرف قسم من هذه الشركات مرحلة طويلة من التوسع والنشاط، وأخص من الشركات تلك التي كانت تتعامل مع الخليجيين الذين كانوا يترددون كثيراً على لندن. إلا أن حرب الخليج وتردي العائدات النفطية وضعف القوة الإنفاقية لقطاع كبير من الخليجيين، وانحسار الاهتمام بلندن من بين أسباب كثيرة أدت إلى تراجع نشاط تلك الشركات أو إغلاق أبوابها. ورافق تدفق اللبنانيين إلى بريطانيا نتيجة الحرب الأهلية ارتفاع ملحوظ في عدد الشركات التي تقدم الخدمات والمأكولات، إلا أن عدد تلك الشركات تراجع بحدة بعد توقف الحرب وعودة الاستقرار إلى لبنان. ونشطت في لندن أيضاً مؤسسات إعلامية وإعلانية وفّرت عدداً مهماً من الوظائف، إلا أن هذه المؤسسات تعيش مرحلة انحسار منذ عدة سنوات.

لقد أغفلنا في هذه العجالة أكثر مما أدرجنا، وربما زدنا غموض الوضع العربي في بريطانيا بدلاً من إيضاحه، وعذرنا في ذلك أن الصورة الاقتصادية العامة للجالية العربية الموجودة في بريطانيا متفاوتة جداً، فهي تضم عدداً لا بأس به من أصحاب المليارات والملايين، وعدداً معتبراً من الميسورين والمنتمين إلى الشرائح الأعلى من الطبقة الوسطى، إلا أن قسماً كبيراً منهم موظفون وأجراء ومتعيشون يعانون مشاكل مالية لا تختلف كثيراً عن المشاكل التي يعانيها البريطانيون في مثل وضعهم، وخصوصاً إذا كانوا مُثقلين بقروض عقارية كبيرة، كما تعيش أعداد من العرب على المعونات الاجتماعية.

الجالية العربية ومشكلة الانتماء

على الرغم من قدرة العرب عموماً على الانخراط بيسر لافت في المجتمعات التي يعيشون فيها فإن في طبيعتهم المشرقية ما يشدّهم دائماً إلى الأوطان الأم، لذا لا أستطيع شخصياً أن أتصوّر من يريد أن يعيش في أي بلد غير عربي، ما لم يكن هناك سبب اقتصادي أو سياسي أو مواطني أو اجتماعي أو مجموعة الأسباب هذه وغيرها التي دفعته أصلاً إلى الهجرة. ويعاني معظم البلدان العربية كل هذه المشاكل وغيرها، غير أن بعض هذه المشاكل مؤقت ينتهي بانتهائه عادة سبب الهجرة، والبعض الآخر يمكن أن

ينتهي، لذا يبقى هناك أمل بالعودة إلى الوطن يوماً ما، وينجم عن ذلك استمرار التردد. ولا يمكن إلا إلباس كل حالة لبوسها، إلا أنها عندما تتوافر الظروف الاقتصادية المناسبة ويطيب المقام ويتوقف الأمل في انصلاح الأحوال في الوطن الأم تبدأ المجتمعات المهاجرة في التحوّل تدريجياً وعلى فترة طويلة نسبياً إلى مجتمعات متوطّنة. حدث هذا لقسم كبير من اللبنانيين والفلسطينيين في الأمريكتين وأيضاً للمهاجرين اليمنيين في كارديف وبرمنغهام وغيرهما، لكن الوقت لا يزال مبكراً كي يحدث لقسم مهم من العرب الذين وصلوا إلى بريطانيا في عهود أقرب. ولا وطن للفلسطيني مثلاً لذا لا خيار له إلا البقاء حيث هو، وسيضطر المغربي مثلاً إلى العمل والإقامة في بريطانيا لأن الأوضاع الاقتصادية صعبة في المغرب، لكن لنا أن نتساءل عن مستقبل قسم معتبر من المجموعة العراقية في بريطانيا إذا انتفت المشاكل السياسية والاقتصادية التي يعانيها العراق المُفترض أن يكون من بين أثرى البلدان العربية.

ولا ينفرد العرب بوضع يميزهم كثيراً من غيرهم. فاليهود أقاموا في بريطانيا لأن الحياة في المانيا لم تعد ممكنة، وسكان هونغ كونغ (الذين سمحت لهم بريطانيا بدخول أراضيها) لم يعد في وسعهم التعايش مع وضع سياسي مختلف بعد عودة المستعمرة إلى الصين الوطن الأم، والهنود والباكستانيون والبنغلاديشيون جاؤوا في جلهم لأسباب اقتصادية صعبة لا تزال قائمة في بلادهم. وحتى لو تحسّنت الأوضاع الاقتصادية لم تعد العودة ممكنة لأن الجيل الجديد اعتاد الحياة في بريطانيا، وهذا ما يحدث لعدد كبير من بنات وأبناء العرب.

والناظر إلى العرب المقيمين الآن في بريطانيا سيلاحظ تدرجاً زمنياً في الإقامة يختلف من مواطنية إلى أخرى ومن مجموعة إلى ثانية. فالبعض مستقر مادياً واجتماعياً وبات يعتبر نفسه مواطناً بريطانياً، فيما بعضهم الآخر في الطريق إلى الاستقرار المادي والاجتماعي، وتوجد كتلة أكبر من الاثنتين ستحتاج إلى توافر عدد من الشروط قبل أن تصبح قادرة على اتخاذ القرار.

ولا أعتقد شخصياً أن العرب في عمومهم لا يزالون «جالية» في بريطانيا، لأن قسماً مهماً من هؤلاء لن «يجلو» عن بريطانيا لأي سبب نعرفه الآن. وهناك تباين في شأن احتمال انطباق وصف «مجتمع» على العرب في بريطانيا، ولكني أعتقد أن سبب هذا التباين لغوي في الأساس نظراً إلى أن كلمة «مجتمع» تعني «Society» وحسبنا منها أن تعني «Community». لكن

أبسط تعريف نسبي في بريطانيا لكلمة «Community» مرتبط عادة بوجود مراكز اجتماعية، وهذا لا يتوافر للعرب في الصورة المألوفة. ومع ذلك لا أرى أي عائق في القول بوجود مجتمع (Community) مصري أو لبناني أو فلسطيني إذا قام تواصل معقول بين مجموعة من الأفراد ونشأت «علاقات مناسبة» بين «عدد مناسب» من هؤلاء.

خلاصة

أود السماح لي بإجمال ما تقدم وإضافة بنود أخرى، ألخص فيها ملاحظاتي الشخصية على طبيعة الحضور العربي في بريطانيا واستشراف مستقبله في الزمن الأقرب إلينا. وسأضيف إلى هذه الملاحظات معلومات رسمية وغير رسمية واستخلاصات من معرفتي الشخصية بعدد كبير من التجمعات العربية في لندن وخارجها، وكذلك آراء واعتقادات جمعتها من نحو ٥٠ زميلاً صحافياً وعدد من رجال الأعمال والناشطين من بين أفراد العرب المقيمين في لندن:

أ ـ إذا وضعنا جانباً التقديرات المتباعدة جداً في شأن عدد العرب الموجودين في بريطانيا، وحاولنا الإحاطة بحجم الوجود العربي من خلال مقارنة حضورهم المرأي والمحسوس بجاليات ومجتمعات أخرى، فهل نستطيع التوصل إلى نتيجة ما؟ مثلاً إذا سألتُ أيهما أكثر حضوراً: العرب أم الفرنسيون، وكانت الإجابة: «العرب» فهذا يعني أن حضورهم أقوى من حضور أكثر من ١٨٠ ألف فرنسي هو عددهم في بريطانيا. وهذا ما أعتقده ولا أستبعد أن يفوق ٢٠٠ ألف شخص.

ب ـ يجب ألاّ نشغل أنفسنا كثيراً بعدد العرب في بريطانيا، فليس هناك ما يدعم الاعتقاد بوجود ارتباط بين العمل العربي وضرورة وجود أعداد كبيرة من العرب، ولا أذكر طوال خمسة وعشرين عاماً من إقامتي في لندن أو التردد عليها أي مناسبة أو احتفال شدّ أكثر من ٢٠٠ ـ ٣٠٠ عربي. والمهم ليس العدد بل التنظيم؛ فاليهود مثلاً (٣٠٠ ألف وإلى انخفاض) أقوى نفوذاً على مستويات عدّة من الهنود (٨٤٠ ألفاً) والباكستانيين (٤٧٧,٠٠٠). وتوافر نواة منظمة من ألف أو ألفي عربي كاف لتحريك الحضور العربي في الاتجاهات المفيدة.

ج ـ لا يوجد في سياسة الحكومة البريطانية حالياً ما يسوّغ تركيز الجهود على تشكيل جماعة ضغط عربية للتأثير في السياسة البريطانية. ولا يعني وجود

٥٠ ألف عربي في لوائح الانتخابات العامة استطاعة هؤلاء انتخاب النائب الذي يريدونه، لأن النظام الانتخابي في بريطانيا لا يقوم على مبدأ التمثيل الحصصي، بل على مبدأ الدائرة الانتخابية، ولا يوجد أي تجمع عربي بهذا القدر في أي دائرة انتخابية. وليس هناك ما يدعم الاعتقاد بأن وجود نائب في البرلمان يعني توفير ذلك الدعم الذي يتصوره البعض للمجموعة العرقية التي ينتمي إليها، وربما لن تخدم في النهاية سوى وضع النائب.

د ـ يجب أن تُعطى أولوية العمل العربي لمساعدة الجيل الجديد على الارتباط بأصوله قبل أن يذوب في المجتمع البريطاني، وإعلاء الأهداف الاجتماعية والثقافية والتعليمية على الأهداف السياسية وتأجيل التفكير بالوحدة العربية إلى أن تتحقق في الوطن العربي.

هـ ـ إن جانباً من الجهد العربي الحالي نخبوي منصب على تعزيز رأس الهرم، وليس على بناء القاعدة. إن تعديل هذا الوضع يقتضي العمل على تكوين مراكز مجتمعاتية في الأماكن التي يتجمّع فيها العرب. وينبغي أن تكون الطموحات على قدر الإمكانات، والبحث عن الدعم المالي من خلال المعونات والمنح التي تقدمها البلديات المحلية لدعم بعض أوجه نشاطات الأقليّات في بريطانيا. إلا أن شركات كثيرة في بريطانيا ذات تمويل عربي تستفيد جيداً من انتمائها العربي، وهذه يجب أن تقدم المعونات إلى المنظمات العربية بسخاء، وخصوصاً أن قسماً منها يمكن احتسابه من الضريبة إذا شمل بعض الجمعيات الخيرية.

و ـ لا توجد حتى الآن بنية تحتية مناسبة يمكن أن تخدم الحضور العربي في بريطانيا، أو تعزز ارتباط التجمعات العربية. فمثلاً لجأت إلى «انترنت» للتعرف على نوع الخدمات المقدمة للمجتمع اليهودي فوجدت في مئات المواقع (حتى أماكن وجود دكاكين الحلاقين اليهود لها مكان) ما يُذهل بعد وضع الآتي في محرك البحث «jews + uk». ووضعت «arabs + uk» فوجدت أيضاً ما يذهل: مواقع للخيول العربية وشركات راغبة في بيع منتوجاتها ونواد رياضية تعتز بعروبتها لكنها ليست غربية الخ.

ز ـ لا تشعر الأقليات العرقيّة في بريطانيا في الوقت الراهن بالضغوط التي تعرضت لها هذه الأقليات في السبعينيات والثمانينيات من خلال منظمات مثل الجبهة الوطنية، علماً أن تلك الضغوط كانت أحد الأسباب المهمة في تضافر قوى تلك الأقليات لمواجهة المخاطر التي هددت وجودها.

إن صعود المنظمات اليمينية يواكب في حالات كثيرة تردي الأوضاع الاقتصادية، لذا ليس هناك خوف في الوقت الراهن لأن الاقتصاد البريطاني يمر بمرحلة من النمو الاقتصادي القوي، إلا أن التنسيق من الآن مهم تحسباً لأية طوارئ في المستقبل.

الجدول رقم (٧ ـ ١)

تقديرات عدد العرب المقيمين في بريطانيا

الدولة	الحد الأدنى (١٩٨٨)	الحد الأعلى (١٩٨٨)	تخمينات (١٩٩٩)
الجزائر	٥٠٠		٢,٥٠٠
مصر	٢٠,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٥٠,٠٠٠
العراق	٢٠,٠٠٠	٢٥,٠٠٠	٧٠,٠٠٠
المغرب	١٢,٠٠٠	١٥,٠٠٠	٣٢,٠٠٠
اليمن	٤,٥٠٠		٥,٥٠٠
فلسطين	١٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠
الأردن	٢,٠٠٠		٢,٠٠٠
لبنان	١٦,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	٣٠,٠٠٠
المجموع	٨٥,٠٠٠	١٨٩,٥٠٠	١٠٠,٠٠٠ ـ ٢٥٠,٠٠٠
جاليات أخرى			
هنود			٨٤٠,٠٠٠
باكستانيون			٤٧٧,٠٠٠
بنغلاديشيون			١٦٢,٠٠٠
صينيون (خصوصاً هونغ كونغ)			١٥٧,٠٠٠
يهود			٣٠٠,٠٠٠؟
العدد الكلي (تقديرات ١٩٩٧)			٥٩,٠٥٦,٠٠٠

القسم الثالث

المشاركة في الحياة السياسية البريطانية

الفصل الثامن

مجموعات الضغط وتركيز الاهتمام

كريس دويل(*)

ممارسة الضغط

تلخص هذه الدراسة الجوانب المختلفة لممارسة الضغط، وتحاول تعريفه، وتبحث الأساليب والاستراتيجيات المختلفة التي تنتهجها، ثم تتناول بعض تلك المجموعات النشيطة حالياً في المملكة المتحدة.

إن التفاعل بين دولة ما والمجتمع هو مركز أي نظام ديمقراطي. وتحتاج الدولة الديمقراطية إلى مجتمع مدني، والعكس صحيح. ويحتاج السكان إلى المشاركة وتحديد مفاصل مصالحهم وحاجاتهم وآرائهم. وقد يؤدي الإخفاق في المشاركة وتحديد التفصيلات إلى أن يصبح السكان راضخين ويسهل قمعهم وتهميشهم. ولذلك إن عجزت جالية عن فعل ما ورد آنفاً لا يمكنها أن تتوقع أخذ مصالحها بنظر الاعتبار.

إن ممارسة الضغط في إطاره الأوسع هي الأساليب المستعملة للمشاركة وتحديد مفاصل الشواغل لمن هم في موقع السلطة، ولقد كانت موجودة دائماً في شكل ما. وكان للحكام مستشارون وحلقات من الأصدقاء المقربين، وقد يسعى المرء لممارسة الضغط لتغيير سياسة أو قرار. غير أنه في عالم اليوم زادت ممارسة الضغط كثيراً مع وجود مجموعات المصالح ومجموعات الضغط ومؤسسات ممارسة الضغط. وبحلول عام ١٩٩٢ حدد أحد التقديرات عدد ممارسي الضغط في بروكسل وحدها بعشرة آلاف. وثمة سلسلة منظمة من

(*) مدير الإعلام في مجلس تعزيز التفاهم العربي - البريطاني.

المحاولات كل يوم للتأثير في سياسات الحكومات. وفي حالات كثيرة أدى ذلك إلى استخدام المحترفين الذين يستطيعون قيادة الزبائن عبر متاهة الحياة السياسية البريطانية مثلما يفعل المحامي خلال النظام القانوني لتحقيق نهج فعال أكثر للتأثير في السياسة الحكومية.

التغيير الكبير الذي حدث في ممارسة الضغط في السنوات الأخيرة هو تطورها من اقتصارها على الاتصال وتناول قدح شاي أو مشروب الذي يتبعه بعض ممارسي الضغط إلى طرائق تتسم بحرفية أكثر لتطوير جدل أفضل وخطوط للهجوم. إن معرفة الأشخاص المناسبين هي جزء واحد من أسلحة ممارسة الضغط الناجح. والحكومة العصرية معقدة بحيث لن يمر وقت طويل حتى تصبح هناك مؤهلات مهنية لممارسي الضغط شأنهم شأن المحامين والمحاسبين والمسّاحين. ولماذا تتوقع المؤسسات المتعددة الجنسية أقل من ذلك؟ إن ممارس الضغط ينبغي أن يكون مطلعاً على أحدث التغيرات في الاتحاد الأوروبي، وكذلك المجالس التشريعية الإيرلندية والاسكتلندية والويلزية وتنظيم الخدمة المدنية وتشريع القوانين.

وبالإضافة إلى ذلك، لا يمكن أن يكون بعيداً تنظيم ممارسة الضغط في المجال التجاري. وربما من المدهش أن ذلك لم يحدث من قبل، وكان علينا أن ننتظر أن تقود الأمور المريبة المختلفة إليه. إن تنظيم ممارسة الضغط في الولايات المتحدة موجود منذ عام ١٩٤٦ (القانون الاتحادي لممارسة الضغط الذي استبدل في عام ١٩٩٥). ومنذ وقت بعيد يرجع إلى عام ١٨٧٦ حاول مجلس النواب الأمريكي إرغام ممارسي الضغط على التسجيل. وقد قوض تقدير من هو ممارس الضغط المحاولات ضمن الاتحاد الأوروبي لتنظيم هذه النشاطات. وبدلاً من ذلك هناك قواعد السلوك لممارسي الضغط في البرلمان الأوروبي. وقد يكون لأي حركات نحو التشريع تأثير مباشر أو غير مباشر في المجموعات مثل كابو (CAABU) أو النادي العربي.

أساليب ممارسة الضغط واستراتيجياتها

تتعلق ممارسة الضغط بالإقناع ـ جعل الأشخاص، أو المؤسسات، يعتقدون أن من مصلحتهم أن يفعلوا شيئاً. إنها تعني أن عليك أن تمتلك هدفاً واضحاً ثم قائمة مستهدفة ممن تحتاج إلى إقناعهم.

ولكي تنجح، ينبغي أن يكون هناك هدف واضح قابل للتحديد. وكان

لأنجح الحملات برنامج واضح للغاية له رسالة بسيطة. «امنعوا الصيد!»، «ألغوا ضريبة الانتخاب!»، «سلّموا بينوشيه!»، «انهوا العقوبات!»، «امنعوا تشييد طريق التحويل قرب نيوبري!»، «لا للحد الأدنى للأجور!».

في كل هذه الحملات ثمة مطالبة واضحة تدعو إليها مجموعة الحملة. وكثيراً ما تكون رسائل الحملات غير واضحة أو توجد مطالب أكثر مما ينبغي. إن التركيز على المسألة الرئيسة حيوي. ثم يجب تكرار الرسالة مراراً وتكراراً.

لذا ينبغي على الجالية العربية أن تحدد أهدافها ورسائلها الرئيسة.

إن المعرفة الشاملة بموضوعك مهمة. وقبل البدء بالحملة يجب أن تكون التفاصيل الكاملة متاحة بسهولة، وأن تكون الخلاصات معدة. وإذا كانت تمثل طرفاً له شواغله استخدم موارد طرف ثالث، وتحقّق أنك تستشهد بالمصدر: مثلاً، تقارير الأمم المتحدة والمقالات في الصحف. إنها تضيف إلى الصدقية.

يجب إعداد قائمة تتضمن الأشخاص المهمين الذين تحتاج إلى إقناعهم. وقد لا تضم الحكومة المركزية، بل أي شيء من مجلس إدارة الكنيسة إلى مجلس الإدارة في شركة كبرى.

ويمكن لغرض الجدل تقسيم المجموعات المستهدفة عموماً إلى أساسية وثانوية ومن المرتبة الثالثة.

المجموعات الأساسية: أولئك الأفراد أو الجماعات المسؤولة عن اتخاذ القرار المهم الذي تستهدفه الحملة، مثلاً: رئيس الوزراء، الحكومة، المجلس المحلي، رؤساء ومجالس إدارة شركات كبرى.

المجموعات الثانوية: أولئك الذين يمكنهم الوصول المباشر إلى المجموعات الأساسية والذين يقدمون لها المشورة أو يستطيعون مناقشتها، أو من لهم تأثير غير مباشر في قرارات السياسة، مثلاً: أعضاء البرلمان والمستشارون الخاصون للوزراء (حدثت زيادة كبيرة في أهميتهم في السنوات الأخيرة) وأعضاء المجالس المحلية والموظفون المدنيون والإعلام.

مجموعات المرتبة الثالثة: أولئك الذين يستطيعون التفاعل مع المجموعة الثانوية ـ أفراد الجمهور، أعضاء الحزب السياسي أو النقابة إلخ.

إن وصول أفراد الجمهور العاديين المباشر إلى أشخاص كرئيس الوزراء

قد لا يكون ممكناً. ولذا يستطيع الجمهور مد تأثيره عن طريق طرف ثالث، عضو في البرلمان أو موظف مدني أو ربما صحافي.

ما إن تكون قد حددت من تحتاج إلى التأثير فيهم ينبغي أن تضع استراتيجية لأسلوب الاتصال بهم وإيصال رسالتك الرئيسة إليهم. هذا يعني فهم مجموعاتك المستهدفة وكيف تعمل.

فهم حزب العمل الجديد

بعد مرور سنتين ونصف السنة على تولي حكومة حزب العمال الجديد السلطة يمكن تحديد بعض التأثيرات الرئيسة على الحكومة، وينبغي أن يؤثر هذا في أية استراتيجية لممارسة الضغط وأن يحدد شكلها.

كلنتون والولايات المتحدة: حتى قبل الانتخابات كان واضحاً أن الولايات المتحدة ذات تأثير كبير. كان بلير معنياً بعدم إغضاب الأمريكيين بالطريقة التي اتبعها سلفه. لقد أقيمت العلاقات الوثيقة عبر الأطلسي، حتى على حساب المصالح الأوروبية، ولم تكن السفارة الأمريكية خاملة في تعزيز المصالح الأمريكية على أعلى المستويات. لقد استخدمت الولايات المتحدة بريطانيا كقناة لدفع برنامجها بشأن الاتحاد الأوروبي. وموقف المملكة المتحدة من منتجات شركة «جنرال موتورز» هو إحدى هذه الحالات حيث تخشى الولايات المتحدة قيود الاتحاد الأوروبي التجارية. وفي الشرق الأوسط على الرغم من وجود اختلافات بين موقعي البلدين نحو عدة مسائل أكثر مما يُعتقد أحياناً، ففي الأمور المهمة يلتزم توني (بلير) جانب بيل (كلنتون) ولا سيما بشأن قصف السودان وأفغانستان.

اعتبر حزب العمال الجديد منذ البداية الإعلام أداة مهمة لكسب السلطة والبقاء فيها. وعلى الرغم من التدخل أحياناً فإن هذه الحكومة أوصلت استخدام الإعلام إلى مستويات جديدة. إن العناوين الرئيسة تؤثر بوضوح في حزب العمال الجديد. وينبغي تجنب الدعاية السيئة بكل ثمن.

ثبت أن المصوتين في الدوائر الانتخابية الهامشية الرئيسة هم من الطبقة المتوسطة في الغالب، وفي العقد الرابع من العمر. وكان المصوتون من العمر المتوسط هم الذين حاول حزب العمال الجديد كسبهم. ولذا كان كثيرون من مرشحي الحزب في هذه الفئة العمرية والطبقة الاجتماعية. وكما ذكر أحد المعلقين مؤخراً فإن الحكومة «تبحث عن قراء صحيفة الـ **ميل** *(Mail)* وليس

قراء صحيفة الـ **ميرور** *(Mirror)*.

وحزب العمال الجديد هو حزب الأعمال التجارية. إنه يريد تصوير نفسه بأنه قادر مالياً وودي نحو عالم الأعمال التجارية.

وليس هذا طرحاً شاملاً، غير أنه يوفر بعض الإرشادات ربما عن أسلوب تفكير رئاسة الوزارة البريطانية. والكتب **متاحة** عن الأشخاص الرئيسيين في حزب العمال الجديد ـ مثلاً فيليب غولد، مهندس مجموعات مراكز الاهتمام، وبيتر ماندلسن الذي حول «ميلبانك» إلى مركز تفنيد ممتاز في الانتخابات الأخيرة.

البرلمان

أعضاء البرلمان مجموعة أخرى يستهدفها الساعون لممارسة الضغط. لقد زادت أهميتهم في السنوات الأخيرة من فترة حكومة ميجور لأن أغلبية الحكومة كانت بسيطة. وكانت مؤسسات ممارسة الضغط حريصة على الانضمام. وكان على ميجور أن يضمن أن حزب الأغلبية في البرلمان يقف في الجانب الصحيح. أما بلير فإنه يتمتع بأكثرية كبيرة ولذا يستطيع، كما فعل حقاً، أن يتخطى أعضاء البرلمان.

تقرب قطاع الأعمال أيضاً من «وستمنستر». وهكذا وجدت لجنة نولان أن ٣٠ بالمئة من أعضاء البرلمان الذين يجلسون في المقاعد الخلفية (الخارجية على مواقف أحزابهم) لهم مستشارون برواتب، و٢٦ يستخدمون مؤسسات العلاقات العامة أو مؤسسات ممارسة الضغط، و١٤٢ لهم صلات بشركات أو جمعيات تجارية.

غير أن أعضاء البرلمان مفيدون. ويستطيع عضو البرلمان إثارة مسألة ما في مجلس العموم وتحقيق الدعاية لقضيتك وكسب التعريف برسالتك. وتذكّر أيضاً أن عضو البرلمان يستطيع مخاطبة الوزير وتلقي المشورة نيابة عن الناخب. وفضلاً عن ذلك فإن من المرجح إذا أعيد تشكيل حكومة عمالية أن تتقلص أغلبيتها كثيراً وستزداد أهمية النائب العمالي مرة أخرى. كذلك بسبب وجود أغلبية كبيرة قد يمنح ذلك فرصة للنواب العماليين لإعلان آرائهم لأن الحكومة لا تواجه خطر السقوط، غير أن نظام حزب العمال الجديد يدور حول التنسيق وأجهزة التنبيه المتنقلة ودعم من لا يخرجون عن الخط.

لقد أصبح أعضاء البرلمان أكثر احترافاً حيث إنهم يولون اهتماماً أكبر

لمشاغل الدائرة الانتخابية، وليس للموضوعات المفضلة لديهم:

أ ـ يزداد تمكين الناخبين (ولذا لا بد أن تمتلك مجموعات الضغط التي تحاول استهداف مجموعة برلمانية واسعة، قاعدة صلبة من الدعم الوطني لإشراك أكبر عدد ممكن من أعضاء البرلمان).

ب ـ سيركز أعضاء البرلمان اهتمامهم على التصويت على مسائل رابحة كالصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية على حساب المسائل غير الرابحة كالشؤون الخارجية والتنمية الدولية. وقد أدى ذلك إلى تدهور الخبرة في قضايا الشؤون الخارجية في البرلمان. وحتى من يهتمون بمسائل كالصراع العربي ـ الإسرائيلي سيقرون صراحة بأنهم لا يستطيعون قضاء الوقت الذي يريدون قضاءه فيها.

ينبغي أن يعي ممارس الضغط جيداً التغيرات داخل البرلمان مثل ازدياد عدد النساء. فقد انتُخبت لعضوية البرلمان في الانتخابات الأخيرة ١٠١ إمرأة. ويتوقع أن يزداد هذا العدد ولا سيما أن المحافظين يرغبون في لعب ورقة الجنس (امرأة/رجل) مع حزب العمال حول ذلك. وهناك زيادة عدد النواب الذين يدعمون الحزب الديمقراطي الحر وازدياد أهمية المجالس المحلية، وليس نقابات بوصفها ميداناً لظهور النواب. كما أن تطبيق التمثيل النسبي الذي حدث في اسكتلندا وويلز وانتخابات البرلمان الأوروبي سيسمح لأحزاب سياسية أصغر بالازدهار.

وبالإضافة إلى أعضاء البرلمان يمكن أن تشمل الأهداف البرلمانية الأخرى أعضاء مجلس اللوردات وأعضاء البرلمان الأوروبي وأعضاء الجمعيتين التشريعيتين الاسكتلندية والويلزية وغيرهم.

إن اللجان البرلمانية قد تكون ذات تأثير قوي، ومنها، على سبيل المثال، لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان أو لجنة الشؤون الخارجية لأعضاء حزب العمال في المقاعد الخلفية.

الخدمة المدنية

نادراً ما يتخذ الوزراء آلافاً من قرارات صنع السياسة، بل يتخذها فعلاً الموظفون المدنيون على كل المستويات. فالوزراء لا يمتلكون التجارب والخبرات الضرورية لإتقان تفاصيل السياسة، غير أنهم يضعون الاستراتيجية العامة. وقد يدعى هذا مرَض «نعم يا سيدي الوزير» غير أنه من المدهش أن كثيراً من

شركات الشؤون الحكومية لا تعين موظفين مدنيين سابقين. وتذكّر أنه لا بد أن يكون الوزير جريئاً جداً ليعارض مشورة كبار مستشاريه في الخدمة المدنية.

أ ـ كيف توصل الرسالة؟

لديك الرسالة وقمت بالبحث وحددت المجموعات الهدف. باختصار ينبغي أن تكون على أهبة الاستعداد. ثمة وسائل كثيرة لطرح رسالتك على تلك المجموعات، غير أن من المهم أن تكون بنّاءً وليس انتقادياً وسلبياً.

ب ـ العمل المباشر

التظاهرات والتظاهرات الصامتة والمسيرات. الأرجح أن هذه قلّت أهميتها مع مرور السنين. وما لم تتمكن من جمع الدعم الكافي كتحالف الريف (Countryside Alliance) أو المسيرات ضد ضريبة الاقتراع فقد يتطلب هذا عملاً كثيراً ولا يحقق سوى فائدة قليلة.

ويمكن تعزيز العمل المباشر بحركات مبتكرة بارعة قد تجتذب التغطية الإعلامية إلى حملتك.

تنظم مجموعات كثيرة تتولى شن الحملات أياماً لممارسة الضغط. وهذه فرصة للجمع بين الناخبين وأعضاء البرلمان معاً لمناقشة القضايا.

وقد ارتبطت هذه بخاصة بمجموعات حقوق الإنسان. وإذا أرسل عدد كاف من الأشخاص رسائل صيغت جيداً فقد تكون الحملة فعالة. ويتم إبلاغ الوزراء إذا زاد عدد الرسائل التي تتناول موضوعاً محدداً عن عدد معين.

استخدم كابو بخاصة الاجتماعات المحاطة بقليل من الدعاية مع الوزراء والمسؤولين ورؤساء تحرير الصحف وأشخاص آخرين يتولون مناصب ذات نفوذ. ويشمل ذلك مآدب منتقاة وتتسم بالحذر مع خبراء لمناقشة الشرق الأوسط. ينبغي أن يكون الوفد الذي يقابل الوزير جيد التنسيق والتخطيط وذا أهداف تتناول ما سيدور حوله النقاش.

وقد وجد كابو الوفود البرلمانية إلى الشرق الأوسط طريقة فعالة للغاية لإثارة اهتمام أعضاء البرلمان في المنطقة. ويمكّن ذلك أعضاء البرلمان وأعضاء مجلس اللوردات من التحدث بمعرفة وثيقة عن القضايا العربية. ويستعمل «اللوبي» الإسرائيلي هذا الأسلوب ليس مع البرلمانيين فحسب، بل مع الصحافيين وزعماء نقابات العمال وغيرهم أيضاً. ويود كابو أن يفعل المزيد

في هذا المجال إذا سمح التمويل بذلك.

ج ـ الإعـلام

ينبغي لأية حملة لممارسة الضغط امتلاك استراتيجية إعلامية حتى إذا كانت الاستراتيجية لتجنب الدعاية.

ينبغي الاهتمام بالعلاقة مع وسائل الإعلام. ولدى الاتصال بوسائل الإعلام ينبغي أن تكون المعلومات سريعة ودقيقة وسهلة الاستعمال. إن أفضل النشرات الصحفية من شركات العلاقات العامة هي التي يستطيع صحافي تحويلها مباشرة إلى مقالة.

ينبغي أن يكون الرد على وسائل الإعلام سريعاً ودقيقاً. وتذكّر أيضاً إطراء التغطية المنصفة والإيجابية وليس فقط إدانة ما لا يروق لك. والرسائل الأقصر هي التي يكون نشرها مرجحاً أكثر.

أما الإعلانات في الصحف والتلفزيون فإنها شيء منفر عموماً، وتشير الاستقصاءات إلى أن هذه الوسيلة من أقل الأشكال فعالية.

د ـ ممارسة الضغط باستعمال «الانترنت»

الانترنت من أهم التحولات في ممارسة الضغط كما هو الحال في مجالات كثيرة للغاية في الحياة. وكانت الحملات من خلال «الانترنت» فعالة للغاية لأن البريد الالكتروني يمكّنك من الاتصال بقاعدة دعمك وتنشيطها. ولذا يمكن زيادة التنسيق وتبادل الأفكار والبحث. إن المعلومات متاحة حالياً على نطاق واسع ومجاني، ولا سيما مع توسع الصحف الالكترونية. وقد مكن هذا من شن الحملات الدولية حقاً على نحو ليس له مثيل سابقاً.

على سبيل المثال، انضم كابو إلى حملة ممارسة ضغط ناجحة ضد شركة المطاعم العملاقة «برغر كنغ» التي فتحت مطعماً تابعاً لها في معاليه أدونيم (مستوطنة إسرائيلية) في صيف عام ١٩٩٩ شرع أمريكي ـ عربي بالحملة. وسرعان ما انهالت الرسائل الالكترونية على الشركة. كما تدفقت على وزارة الخارجية الأمريكية الرسائل الالكترونية التي تحتج على مواصلة إسرائيل هدم المنازل الفلسطينية بحجة أنها مشيدة بلا ترخيص. وأقر أنه كان للرسائل الالكترونية تأثير في وزارة الخارجية الأمريكية ومناقشاتها مع وزارة الخارجية الإسرائيلية. ومكّنت الصحف الالكترونية جمهوراً أوسع من مهاجمة وسائل الإعلام بشأن التغطية التي قد يعدها القراء غير منصفة.

ويمكن الوصول إلى المسؤولين في الولايات المتحدة كافة بالبريد الالكتروني إلى مدى لم يتحقق في المملكة المتحدة حتى الآن. وعلى سبيل المثال، تعطل جهاز الخادم (Server) في شبكة هيئة الاتصالات الاتحادية بعد تلقي آلاف الرسائل الالكترونية التي تعترض على اقتراح لشركات الهاتف بجعل مقدمي خدمات الانترنت يدفعون رسوماً إضافية. ولكن ينبغي الحذر فقد أصبح البريد الالكتروني يستعمل على نحو مفرط. إنه ممتاز لجعل المؤيدين واعين لنشاطاتك، غير أنه في ما يتعلق بأعضاء البرلمان والصحافيين، فالأفضل، إن لم تكن تعرف خلافاً لذلك، أن ترسل نسخة من أية رسالة بالفاكس أو البريد. كما يجب أن تبعث الرسائل إلى وسائل الإعلام بالبريد الالكتروني والفاكس.

الجالية العربية ـ وضع الأساس للمستقبل

ينبغي أن تعد كل جالية نفسها للرد على الأحداث وشن الحملات وفقاً للأحداث عندما تقع، فضلاً عن جعلها جزءاً من برنامج جيد الإعداد. ويتطلب ذلك وجود البنى الأساسية في مكانها. ويشمل ذلك أموراً مثل تطوير قاعدة بيانات متينة بالمناصرين ومصادر المعلومات التي يسهل الوصول إليها، وزيادة الوعي بالوطن العربي في المدارس، وتطوير الموارد البشرية في الجالية العربية نفسها.

إن الممارسة الفعالة للضغط تتطلب أصدقاء في الأوساط العليا وأشخاصاً موهوبين ومتحمسين يديرون الحملات.

وإنه لأمر حيوي للجالية العربية أن تجعل نفسها مرئية أكثر على نحو إيجابي. وإذا رغبت الجالية في إحداث تأثير في مستوى وضع السياسات ومتابعتها في وسائل الإعلام ينبغي تشجيع أفراد الجالية على المشاركة الكاملة في الحياة السياسية من القاعدة إلى أعلى. وهذا يعني البناء على الخطوات المتخذة لتولي دور ضمن الأحزاب السياسية الرئيسة والمجالس المحلية والمؤسسات الكبرى في المؤسسة البريطانية والعمل التجاري والإعلام وغيرها. وينبغي الإبقاء على أولوية انتخاب أعضاء عرب في البرلمان البريطاني والبرلمان الأوروبي والمزيد من الأعضاء العرب في المجالس المحلية.

كما أن زيادة المشاركة العربية في التصويت مهمة. وتمثل الانتخابات الفرعية في الدوائر التي يوجد فيها عدد كبير من الناخبين العرب فرصاً مهمة

للجالية العربية لتجعل نفسها مرئية ومسموعة. ونظراً إلى المستوى المنخفض إلى حد مزعج لحماس الناخبين في بريطانيا الوقت الحاضر، فإن إقامة الجالية العربية ودعمها كدائرة انتخابية نشطة يمكن أن يكون لها مردودها.

ينبغي أن لا تحجم الجالية العربية عن تطوير مواقف لها بشأن المسائل المحلية ذات الأهمية سواء أكانت في مجال الصحة أم التعليم أو العنصرية أو القانون والنظام. وماذا عن أوروبا؟ لتقوية صوت الجالية هناك أيضاً مناسبات قد يكون فيها التحالف الاستراتيجي مع مجموعات أخرى مفيداً. وعلى سبيل المثال بعد تفجير القنابل بدوافع عنصرية في «بريك لين» وفي «بريكستون» (قبل سنوات) كانت هناك فرصة لجميع الأعراق للتعبير عن قلق موحد إزاء العنصرية والهجمات العنصرية.

جماعات الضغط القائمة التي تتعامل مع الوطن العربي

وكما كان الحال دائماً فإن هناك بالفعل جماعات ـ بينها «كابو»، مجالس الشرق الأوسط التابعة للأحزاب الرئيسة البريطانية الثلاثة التي تشتغل على مسائل تتناول قضايا الشرق الأوسط. أقيمت «كابو» في عام ١٩٦٧ في حقيقة الأمر عند مدخل مجلس العموم. و«كابو» هي جماعة مصالح، تُعنى بتفصيلات الحاجة إلى علاقات أفضل وأنضج مع الوطن العربي. وهي بهذه الصفة تحاول أن تقلص الهوة بين الحكومة (البريطانية) والعرب.

فضلاً عن ذلك ثمة هيئات برلمانية في المملكة المتحدة مثل مجموعات كل الأحزاب.

البلد	**رئيس الهيئة**
مصر	جيم كزنس (النائب العمالي)
التعاون الأوروبي ـ العربي	جون أوستن (النائب العمالي)/ ديفيد أتكنسن (النائب المحافظ)
الخليج	آلان روجرز (النائب العمالي)/ ديفيد ويلشير (النائب المحافظ)
الأردن	ستيوارت بيل (النائب العمالي)
فلسطين	د. فيليس ستاركي (النائب العمالي)

عمان	حان موعد الاستبدال
السعودية	لوري كوين (النائب العمالي)
اليمن	حان موعد الاستبدال
هيئات أخرى	
كابو	جون أوستن (النائب العمالي)/ سير بيتر لويد
مجلس الشرق الأوسط في حزب العمال	النائب إيرني روس
مجلس الشرق الأوسط في حزب المحافظين	النائب نيكولاس سومز
مجلس الشرق الأوسط للحزب الديمقراطي الحر	النائب منزيس كامبل

ثمة مجموعات أخرى نشيطة بدرجات مختلفة بحسب اهتمام الأعضاء. وثمة مجموعات ضغط تعارض عملنا طبعاً، ولا سيما المجموعات الإسرائيلية. إن مجموعة الضغط البريطانية ـ الإسرائيلية جيدة التمويل غير أنها لا تمارس تأثيراً مثل تأثير لجنة الشؤون العامة الأمريكية ـ الإسرائيلية (AIPAC) التي سبق أن اختارتها مجلة **فورتشن** بوصفها ثاني أقوى مجموعة ضغط في واشنطن. وليست لمجموعة لجنة الشؤون العامة البريطانية ـ الإسرائيلية (BIPAC) ومجموعة أصدقاء إسرائيل في الحزبين الرئيسين في الولايات المتحدة القدرة نفسها على الوصول.

ويستفيد كابو كثيراً من دعم الجالية العربية. ويؤمل أن تتوسع عضوية كابو والمشاركة فيه وتمويله. وعلى الرغم من أن كابو أمضى الكثير من وقته في مسائل الشؤون الخارجية فإنه يسعى أيضاً لإقامة صلات مفيدة للجانبين.

الفصل التاسع

كسب النفوذ وتحقيق القوة السياسية في بريطانيا

أنجان غوبتا(*)

خلفية

تبلغ نسبة الأقليات العرقية في بريطانيا حالياً، بمن فيها الأفرو ـ كاريبيون والآسيويون والصينيون والعرب وغيرهم، أقل من ٩ بالمئة من مجموع السكان. والأمر الأكثر أهمية أنهم لا يمثلون سوى أقل من ٦ بالمئة من الناخبين. ولو كان البرلمان البريطاني ممثلاً حقاً للسكان لكان لا بد أن يضم زهاء ٥٥ عضواً برلمانياً من الأقليات العرقية. وبدلاً من ذلك لا يوجد سوى ثمانية من أصول عرقية. كيف ولماذا حدث ذلك؟ هل نستطيع أن نفعل شيئاً بصدده؟ وهل نريد أن نفعل شيئاً بشأنه؟

كيف نكسب نفوذاً؟

على الرغم من هذه الأرقام التي لا تبدو مؤاتية ثمة مجموعات أقلية معينة لها نفوذ واسع في وستمنستر تفوق النسبة التي تمثلها أعدادها. مثلاً هناك مجموعة رجال الأعمال والمزارعون وإلى وقت قريب نقابات العمال.

ونلاحظ الوضع نفسه في الولايات المتحدة، على سبيل المثال. وعلى

(*) ناشط في حزب الأحرار الديمقراطيين ـ لندن.

الرغم من المحاولات المتكررة لتقييد الملكية الخاصة للأسلحة والسيطرة عليها فقد أخفقت الإدارات المتعاقبة في البيت الأبيض في تقييد أو منع الملكية الخاصة للأسلحة النارية بسبب الضغط القوي الذي تمارسه جمعية حاملي الأسلحة النارية (National Rifleman's Association).

وتستشهد الجمعية باستمرار بالتعديل الثاني للدستور الأمريكي الذي يمنح كل أمريكي الحق في حمل السلاح على الرغم من حقيقة أنه عندما شرّع الآباء المؤسسون للولايات المتحدة هذا التعديل الدستوري كانت البلاد والمجتمع غير متمدنين. أما حالياً فإن الولايات المتحدة تعد على نحو قابل للبرهنة مجتمعاً متمدناً. فهل يحتاج الأمريكيون إلى الأسلحة النارية حقاً؟

إذن المسألة هي: نجاح بعض مجموعات الأقليات في كسب النفوذ يشير إلى أن كسب النفوذ ينتج عما يلي:

١ - كسب الاحترام كمجموعة/ جالية أقلية.

٢ - التعليم.

٣ - كسب الوصول إلى صانعي القرار.

٤ - استعمال قوتك/ نفوذك بعناية وحكمة.

٥ - قوة العضلات المالية/ الاقتصادية.

٦ - قوة العضلات الانتخابية.

٧ - التكيف ولكن ليس الانصهار مع بيئتك الجديدة.

إن المرء ليس في حاجة إلى الصفات السبع المذكورة كافة، غير أن مجموعات الأقليات الناجحة تظهر أربعَ من الخصائص المذكورة أعلاه على أقل تقدير.

يُكسب النفوذ على نحو ثابت بدرجات وليس بقفزات كمية. ويدهشني باستمرار كيف أن هوليوود حصلت في خمسين عاماً أو نحوها (فترة قصيرة للغاية بحسب المقاييس التاريخية) على مثل هذا النفوذ القوي لدى السياسيين الأمريكيين والإدارات الأمريكية. أما في بريطانيا فليس لنجوم السينما نفوذ يضاهيه، ولا يستطيعون حتى الضغط على الحكومة البريطانية لمنح صناعة السينما إعفاءات أو امتيازات ضريبية. لقد تكوّن نفوذ هوليود تدريجياً ولم

يتحقق بضربة قوية واحدة.

كيف نحقق القوة السياسية في بريطانيا؟

على الرغم من أن أحزاباً سياسية كثيرة قد شكّلت عبر السنين في بريطانيا، لم يحقق سوى حزبين سياسيين مكانة التيار السائد، وهما حزب العمال الذي نشأ من نقابات العمال في بداية القرن العشرين، والحزب الديمقراطي الاجتماعي الذي نشأ من انقسام حزب العمال في عام ١٩٨١. وأدرك الديمقراطيون الاجتماعيون في النهاية أنهم لا يستطيعون البقاء واندمجوا مع حزب الأحرار في عام ١٩٨٨ ليشكلوا الحزب الديمقراطي الحر. كما أنك إذا تأملت في حزب الأحرار وعلى الرغم من وجوده في السلطة عدة مرات في بداية القرن العشرين فإنه لم يستمر في البقاء إلا بصعوبة بالغة معظم بقية القرن. لذا فإن الحقيقة هي أن النظام الحالي هو نظام الفائز يربح كل شيء، إذ لا يوجد مجال لحزبين سياسيين من التيار السائد. ولا تنجح الأحزاب الصغيرة إلا في الانتخابات الفرعية حيث تؤثر الأصوات المحتجة. وثمة بعض أحزاب الأقليات الناجحة في البرلمان البريطاني. وقد تحقق نجاحها بفضل تركيزها الاقليمي (مثلاً وحدويو ايرلندا الشمالية) والأمل في وجود برلمان لا يحصل فيه حزب سياسي على أعضاء منتخبين أكثر من أعضاء الأحزاب الأخرى مجتمعين حيث تستطيع إظهار قوتها بالتحكم في توازن القوة. وفي الماضي استطاع حتى حزب الأحرار الإمساك بميزان القوة بفضل خمسة عشر عضواً برلمانياً أو نحو ذلك (١٩٧٤ ـ ١٩٧٦).

كيف حقق الآخرون القوة؟

يوجد أعضاء البرلمان المنتخبون من الأقليات العرقية عادة في جيوب تركُز الأقليات العرقية. والمفارقة في النظام الانتخابي الحالي أن الطريق الوحيدة لانتخاب المرء فيما يبدو هي إقناع أفراد الجالية بتركيز أنفسهم في منطقة معينة ثم طرح المرشح من الأقلية العرقية. هذه هي الوسيلة الوحيدة لضمان التمثيل في البرلمان البريطاني. وعلى أية حال يفترض ذلك أنك مستعد للترشح عن أحد الأحزاب الرئيسة الثلاثة. ومع ذلك فإنك إن فعلت، أي مراعاة النظام الانتخابي، فإنك تبعد نفسك عن التيار السائد لسكان بريطانيا الذين سيتهمونك بتشكيل حارات أقليات (Ghettos) أو «الهند الصغيرة» أو «الكاريبي الصغيرة».

الخيـارات

١ ـ تشكيل حزب

كانت في الانتخابات الأخيرة مجموعة إسلامية حاولت تشكيل حزب جديد يحمل اسم «الحزب الرابع». وكان هدف أعضاء المجموعة تشكيل حزب يمثل مصالحهم. ليس ثمة خطأ في ذلك، غير أنه بموجب النظام الانتخابي الحالي لن يحصل الحزب الرابع على تمثيل في البرلمان البريطاني ما لم ينجح باتباع استراتيجية تركيز السكان، كما أنه لا توجد طريقة لأن يكسب هذا الحزب قوة حقيقية أو تأثيراً حقيقياً للأسباب المذكورة.

٢ ـ الانضمام إلى أحد الأحزاب الرئيسة

مزايا الانضمام إلى أحد الأحزاب الرئيسة

ـ الوصول المباشر إلى زعامة الحزب.

ـ امتلاك مدخلات في صياغة السياسة.

ـ الأحزاب الرئيسة تبحث بحماسة عن مرشحي الأقليات العرقية لدعمهم.

ـ إذا رُشحت في أي انتخابات تحصل على دعم جهاز الحزب الذي يؤيدك.

ـ تحصل على تمويل الحزب بحسب موقعك.

ـ إذا اشتركت في انتخابات فرعية ستحصل تلقائياً على دعم زعامة حزبك.

ـ ربما تفوز في الانتخابات.

ـ إذا انتُخب عدد كاف منكم يمكنكم البدء بممارسة القوة، مثلاً الجالية السوداء في أمريكا.

مساوئ الانضمام إلى أحد الأحزاب الرئيسة

ـ اتباع خط الحزب.

ـ لا تتمكن أحياناً من الحديث بحرية حول موضوعات معينة.

ـ يتطلب نيل القبول والنفوذ وقتاً طويلاً.

استنتاجات

أ - التاريخ ضد تشكيل أحزاب صغيرة وفقاً للنظام الانتخابي الحالي.

ب - الأرجح أن الأحزاب الصغيرة لا يحتمل أن تنال التمثيل.

ج - الوسيلة الوحيدة لتقدم مجموعات الأقليات العرقية هي الانضمام إلى الأحزاب الرئيسة.

د - يمكن التأثير في الأحزاب الرئيسة بشرط وجود عدد كاف منكم يتولون الطرق على الباب.

هـ - إذا لم تكن مستعداً للانضمام إلى أحد الأحزاب الرئيسة فإن أفضل ما تستطيع أن تأمله هو نيل نوع من النفوذ المحدود.

و - لا يتحقق النفوذ الحقيقي إلا بالدعم الاقتصادي والمالي من أحد الأحزاب الرئيسة أي «إذا سيطرتَ على الحافظة تصبح العازف الذي يحدد اللحن».

الفصـــل العاشـــر

المشاركة في الحياة السياسية البريطانية

غسان كاريان(*)

ـ ١ ـ

تسعى هذه الورقة الموجزة لبيان أهمية تولي العرب في بريطانيا دوراً أكثر نشاطاً في الحياة السياسية البريطانية.

أولاً ليس غريباً أن عدداً متزايداً من عرب الجيل الجديد من البريطانيين يهتمون بالحياة السياسية في بريطانيا. في النهاية بالنسبة إلينا هنا ولدنا أو نشأنا وذهبنا إلى المدرسة وتعلمنا تكلم اللغة الإنكليزية واللغة العربية، لغة آبائنا وأمهاتنا، والقراءة والكتابة بهما. قد تكون هناك قصص أو حتى ذكريات عن جمال أوطاننا. وقد تكون هناك جالية عربية نشيطة نشارك فيها ونتمتع بالتقاليد الثرية لتراثنا وموسيقانا وطعامنا وثقافتنا، وربما حتى حياتنا السياسية، غير أنه بالنسبة إلى كثيرين منا سواء الصغار والشباب أو أفراد الجالية الأكبر سناً في الجالية العربية، بريطانيا هي الآن موطننا.

قد تكون لدينا أحلام أو خطط للعودة أو زيارة لبنان أو سوريا أو المغرب أو حتى ذات يوم فلسطين حرة وفخورة، غير أنه بالنسبة إلينا وإلى أطفالنا حالياً أو الذين سنرزق بهم فإن هذا البلد هو مستقبلنا. وإذا كان ذلك موطننا فمن الصحيح أن نبدي أيضاً اهتماماً واسعاً بالنظام السياسي الذي

(*) عمدة بلدية هامر سميث ـ لندن.

يحدد السياسات التي تؤثر في الحياة اليومية للناس الذين لا يزالون يعيشون في أقطار وطننا.

لن يناصر أحد العرب سوى العرب أنفسهم في الحقوق العربية والحاجات العربية والمطالب العربية هنا في المملكة المتحدة، وكذلك في الشرق الأوسط. وعلى العرب أن يشاركوا مشاركة نشيطة في السياسة والعملية السياسية.

إن مشاركتنا في الحياة السياسية البريطانية يمكن، وينبغي، أن تتخذ أشكالاً متعددة: الانضمام إلى حزب سياسي، وأداء دور نشيط في ذلك الحزب. فإن تولّي منصب ضمن الحزب أو تمثيل الحزب على المستويات المحلية والاقليمية والوطنية وسيلتان يمكن أن تُشاهَد فيهما الوجوه العربية وتُسمع فيهما الأصوات العربية.

المشاركة في مجموعات الضغط والمجموعات المعنية بمسائل معينة ـ المشاركة في الحملات تتعلق بقضايا تتراوح بين البيئة وحقوق الإنسان والسكن والصحة، والانضمام والمساعدة في عمل المنظمات التطوعية في جالياتنا المحلية، وتولي عضوية مجالس إدارات المدارس، والعمل مع قوات الشرطة من خلال لجان المحالّ السكنية، هي كلها طرائق سليمة يمكن العرب بها الاندماج في الحياة السياسية في بريطانيا.

إن العوائق التي تقف في وجه المشاركة العربية في تلك الحياة السياسية هي من صنع أيدينا. لقد راكم العرب الذين لهم تجارب في الثقافة السياسية في أقطارهم الأصلية، أو يعرفون عنها، النفور من أي شيء سياسي.

النشاطات السياسية موضوع يلقى الصدود، ومرتبط بالنظم غير الديمقراطية التي لا تزال تذيق المر لمن يعارضونها أو يدافعون عن الحقوق الأساسية وتسجنهم وتعذبهم.

النشاطات السياسية تعبير تخريبي حيث يبدو الجميع يعملون لحساب المصالح السرية لفئات وأنظمة مختلفة، ومن لا يفعلون ذلك هم الذين يحاولون خفض رؤوسهم وتجنب استراق السمع إليهم وتصويرهم يقومون بشيء خطر مثل تبني رأي خاص حول شخص ما.

النشاطات السياسية تعبير يحمل اليوم معنى سلبياً يساوي فساد السياسيين والمسؤولين ورجال الأعمال الذين تقتصر مشاركتهم في العملية السياسية على

زيادة مصالحهم بدلاً من مصالح الشعوب التي يفترض أنهم يمثلونها أو يعملون من أجلها.

من المحزن أن هذه باتت الحقيقة المرة والواقع المؤلم للحياة السياسية في الوطن العربي ـ كلنا يعرف هذا ولو أن القليلين مستعدون للاعتراف به. إنها حقيقة تبعد الكثيرين عن المشاركة في الحياة السياسية وأدت إلى ثقافة التجنب بين أفراد الجاليات العربية في أوطانهم وفي الأقطار التي استضافتهم.

إنها تؤدي إلى جالية انطوائية اهتمامها الوحيد هو تنظيم الحفلات والمآدب وحفلات الرقص القادمة. وهذا لا يعني أن هذه النشاطات غير ذات أهمية. إنها جزء مهم في إبقاء الروابط مع تقاليدنا وثقافتنا.

إنها تقود إلى جالية محافظة لا تتحدى الوضع القائم، حيث الكلمة العليا للمال ولا صوت لمن لا يمتلكونه، وحيث يخرس من يجادلون من أجل التقدم والإصلاح الاجتماعي في جاليتنا.

لهذه الأسباب كافة فقد أسست وزملائي في الجالية البريطانية العربية، والذين يطمحون إلى مستقبل تقدمي للحياة في بريطانيا وفي وطننا تنظيم «العمال العربي».

ويسعى تنظيم «العمال العربي» لتشجيع البريطانين العرب على الانضمام إلى حزب العمال وتولي دور نشيط في المساعدة في نجاح الحكومة العمالية البريطانية. إن حزب العمال الجديد هو الموطن الطبيعي للدعم من الجالية العربية في بريطانيا. إنه يشجع النجاح وروح المشاريع الجديدة في اقتصاد السوق، بينما يقر أهمية العدالة الاجتماعية في الجاليات التي نعيش فيها. إن أولويات الحكومة العمالية الجديدة التي تشمل تحسين مستويات التعليم وتحسين الرخاء الاقتصادي للكثيرين وليس القلة، ومكافحة الجريمة، هي أولويات يؤمن بها عرب كثيرون في هذه البلاد.

إن العرب القاطنين في بريطانيا يشجعون أيضاً ممارسة النشاط في حزب العمال والمساعدة في إعادة انتخاب توني بلير في الانتخابات العامة المقبلة. وأشجع كل من يدعم قيم حزب العمال الجديد المذكورة أعلاه في الانضمام إلى تنظيم «العمال العربي».

وعلى من لا يؤيدون حزب العمال الجديد المشاركة في جوانب أخرى من الحياة السياسية البريطانية، سواء بوصفهم أعضاء في أحزاب سياسية

أخرى أو في مجموعات معنية بمسائل سياسية.

أعتقد أيضاً أن من الأمور المهمة أن يسعى أفراد الجالية البريطانية العربية لإقامة الصلات والشراكات مع أفراد مجموعات الأقليات الأخرى ذات الشواغل والقيم والنظرة المشابهة إلى الحياة في بريطانيا.

ومع نمو أبناء الجيل الجديد من العرب وإدراكهم أهمية المشاركة في الحياة السياسية البريطانية فإنهم سيتبوأون أمكنتهم في النقاشات التي ستحدد مستقبلنا. إنني أعتقد أنه ينبغي لنا جميعاً أن نؤدي دورنا في تشجيع مستقبل للمشاركة والمساهمة الكاملة في الحياة السياسية البريطانية.

الفصـــل الحادي عشر

أهمية حركة الطلبة العرب
في الحياة السياسية البريطانية

ميسون الشرفا(*)

مقدمـة

تهدف هذه الورقة بصورة عامة إلى مخاطبة واقع الحركات الطلابية والشبابية وأدوارها على صعيد عام في المجتمعين البريطاني والعربي، كما تناقش منجزات الحركات وتحدياتها وما تنطوي عليه. أما أهدافها الخاصة فهي عرض تصور مثالي للحركات، بعرض أمثلة عملية، واقتراح طرائق ممكنة لتنشيط مساهمة الطلبة العرب في الحياة السياسية للطلبة البريطانيين.

تتأثر الحركة الطلابية بالثقافة وبالاستقرار السياسي لأي بلد. ويُنظر في فلسطين إلى مساهمة الطلبة في الحياة السياسية في الجامعات بجدية بالغة. وفي الاجتماع السنوي للاتحاد الطلابي في أية جامعة فلسطينية يدلي ٩٩ بالمئة من الطلبة بأصواتهم. أما في المملكة المتحدة فلا يدلي سوى ٣٠ بالمئة من الطلبة بأصواتهم في الاجتماع السنوي لكل اتحادات الطلبة. ويعود السبب جزئياً إلى حقيقة وجود اختيار واستقرار سياسي في المملكة المتحدة. غير أن ذلك لا يعني عدم وجود أي تأثير للحركة الطلابية البريطانية على الحكومة، أو أنه لا دور في الحياة السياسية البريطانية في المستقبل للمشاركين في الحياة السياسية

(*) المسؤولة الإعلامية في مكتب فلسطين ـ لندن

للطلبة، ونتيجة لذلك فإنهم طوروا اهتمامات سياسية.

نتيجة لذلك تنشأ تصورات مختلفة للحياة السياسية للطلبة في الثقافتين البريطانية والعربية في بريطانيا. ويبدو أنه يوجد عدد كبير من الطلبة العرب الذين تلقوا تعليماً بريطانياً وتأثروا لا محالة بالنظرة البريطانية نحو الحياة السياسية للطلبة. وسنعرض لذلك في المناقشة بإيراد أمثلة عملية تعالج المشكلات.

مناقشة

الاتحاد الوطني للطلبة هو الهيئة الطلابية الأوسع في المملكة المتحدة التي لا تزال لها صورة غير بارزة بين الطلبة ووسائل الإعلام. غير أن مساهمتها في مستقبل الحياة السياسية الحزبية البريطانية تعد مهمة.

يضم الاتحاد كل اتحادات الطلبة وجمعياتهم المنتمية إليه في الجامعات وكليات التعليم المستمر كافة. ويقرر بعض الجامعات ألا يكون جزءاً من الاتحاد الوطني للطلبة، ولذا لا يشترط الانتماء ويبقى مستقلاً ويشكل جمعيات المناقشة الخاصة به ومنها جامعات أكسفورد وإمبريال كوليدج وجامعة غلاسكو.

ويعقد الاتحاد الوطني للطلبة مؤتمراً سنوياً. وتُقَر السياسات في المؤتمر بعد نقاش طويل. ويتضمن جدول أعمال المؤتمر أية مسألة تهم عدداً معقولاً من الجامعات. وعندما يقر المؤتمر سياسة تصبح هي السياسة الرسمية للجمعيات والاتحادات كافة المنضوية تحت الاتحاد الوطني، ولو أن بعض الجامعات لا يتفق مع النتيجة. غير أن السياسة المقرة لن تعد جزءاً من تعليمات الجامعة بل جزءاً من سياسة الاتحاد الوطني للطلبة في المملكة المتحدة في ما يتعلق بتلك المسألة. مع ذلك يحق للاتحاد الوطني للطلبة الاتصال بأية هيئة في المملكة المتحدة بما فيها الحكومة، ما يؤكد أن الطلبة في بريطانيا اتخذوا ديمقراطياً قراراً يتعلق بمسألة معينة، ويستثمر هذا القرار من أجل أفضل النتائج بقدر تعلق الأمر بالاتحاد الوطني للطلبة.

كما يحق لأي اتحاد طلابي منتم إلى الاتحاد الوطني التمتع بمزايا السياسة التي أقرت مؤخراً، وتستمر عادة خمسة أعوام، قبل انقضاء المدة.

يحق للطلبة كافة، بغض النظر عن جنسيتهم، الانتماء إلى الاتحاد الوطني للطلبة ويتمتعون بحق التصويت الكامل وكل الحقوق الأخرى ذات الصلة.

من الواضح أنه لن تكون هناك فرصة لممارسة الضغط وتشكيل مجموعات من الكتل السياسية أو المستقلة، بإيجاد خلفيات مشتركة حول مسألة معينة تثير اهتماماً. وسيكون الغرض وضع سياسة ذات أهمية لتلك المجموعات التي تهدف إلى إشاعة سياستها والاعتراف بها في كل الجامعات وكليات التعليم المستمر المنضمة إلى الاتحاد. ونتيجة لذلك سيزداد الوعي وتنجز نتائج إيجابية ممكنة كثيرة. ومثال على ذلك قروض الطلبة مقابل منح الطلبة. إن للطلبة العماليين سياسة مشتركة معينة بين مجموعاتهم، وللطلبة المحافظين سياسة مختلفة، وللطلبة الديمقراطيين الأحرار سياسة ثالثة الخ. وعندما يجري النقاش تقدم اقتراحات وتعديلات على المؤتمر ويُكشف عن نقاط محبِّذة ونقاط مضادة. وفي نهاية المطاف يربح من يكونون مسيطرين وأكثر إقناعاً، هذا النقاش، وتصبح فكرتهم السياسة الرسمية للاتحاد الوطني للطلبة، ولا تحرم من الإقرار.

لما كانت هذه البيئة متاحة مع النظام أعلاه فإنه توجد فرصة كبيرة لمجموعات الطلبة كافة لممارسة الضغط والدعوة إلى أية سياسة تشعر أنها تود الدفاع عنها ليتم الاعتراف بها. يثير الطلبة الفلسطينيون قضية فلسطين ويطالبون بمناقشة الموضوع أملاً في إقرار سياسة متعاطفة تعترف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير وحق إقامة دولة فلسطينية مستقلة في فلسطين. ومن الناحية الأخرى يطالب الطلبة اليهود بأن يقلص الاتحاد الوطني للطلبة دور الطلبة الفلسطينيين، والاعتراف بإسرائيل بوصفها أرض الميعاد لليهود كافة، ودعم الصهيونية باعتبارها عقيدة صحيحة وإنسانية وفي الحقيقة الدعوة إلى أن الفلسطينيين لا وجود لهم.

في حال يدور النقاش... من يربح؟!

للاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين فريقه ويواصل الكفاح طوال النقاش من خلال الدعاية ورفع مستوى الوعي إلى نهاية المؤتمر. وكذلك لاتحاد الطلبة اليهود جهازه وينشر حملته على نحو فعال.

وبقدر تعلق الأمر بالطلبة البريطانيين يدور سؤالان في أذهانهم: من هو الأكثر ثباتاً والأكثر إقناعاً؟ ومن يمارس الضغط أكثر وله القوة في التحالف مع مجموعة أكبر من أجل المنافع المتبادلة؟

لم تكن النتيجة غالباً لمصلحة الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين، على الرغم من حقيقة أن نشاطاته مقنعة وثابتة. غير أن ضغط اتحاد الطلبة اليهود

يفوق ضغط الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين عادة. ويجعل هذا المجموعات الأكبر أقل اهتماماً بالاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين، إذ إن تحالفها مع اتحاد الطلبة اليهود يحقق منافع أكبر لتلك المجموعات أو الأطراف. وثمة مثال مستمر وواضح هو تحالف الطلبة العماليين مع اتحاد الطلبة اليهود. يحصل الطلبة العماليون في المؤتمر على ضغط نسبته ٣٥ بالمئة من مندوبي المؤتمر وهو لا يكفي ليفوز الطلبة العماليون برئاسة الاتحاد الوطني للطلبة. وتبلغ نسبة ضغط اتحاد الطلبة اليهود ١٢ بالمئة. وعندما يشكل التحالف يقترب من ٥٠ بالمئة، مما يساعد الطلبة العماليين على الفوز برئاسة الاتحاد الوطني للطلبة. ويرد الطلبة العماليون الفضل إلى اتحاد الطلبة اليهود بتشكيل تحالف بين الطلبة العماليين واتحاد الطلبة اليهود ضد أي طلب أو قرار يقدمه الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين.

إن العملية ليست أخلاقية عادة. غير أنه لو كان الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين يسيطر على ١٣ بالمئة من مندوبي المؤتمر لأمكن تشكيل تحالف مع مجموعات قوية ويمكن تحقيق نتيجة مفيدة للغاية.

غير أن للحملة جوانبها السارة، إذ يوجد تفاعل متواصل بين الخلفيات والمجموعات المختلفة. وتناقش بلا كلل موضوعات أخرى ذات أهمية ثقافية واجتماعية طوال ليال لا ينام خلالها المندوبون، وهو أمر ينبغي تقديره حق قدره. ولهذا عامل اجتماعي وتربوي أيضاً.

دور حركة متحدة للطلبة العرب

وفقاً للمناقشة أعلاه، والتي تشير إلى مثال على مشكلة عربية مهيمنة هي المشكلة الفلسطينية، سيكون للحركة الطلابية العربية نصيب أكبر من النجاح لو أن وجودها ضمن الاتحاد الوطني للطلبة/ حركة الطلبة البريطانيين لم يقتصر على الطلبة الفلسطينيين وحدهم. إن وجوداً متعدداً للطلبة العرب لن يساعد الفلسطينيين وحدهم، بل يمنح أيضاً مزيداً من الصدقية والاحترام للمشكلات الثقافية والسياسية كافة داخل الجامعات، ويقود إلى نيل المزيد من الصداقة مع نظرائهم من الطلبة البريطانيين.

إن الاحترام الذي تتمتع به الجامعات البريطانية من جانب الطلبة العرب يمكن بسهولة أن يخلق عامل تعبئة قوياً لحركة الطلبة العرب.

إحياء اتحاد الطلبة العرب: يمكن دراسة عملية إعادة تنظيم حركة الطلبة العرب من زوايا مختلفة ويمكن تحقيقها بطرائق مختلفة.

وفقاً لاستنتاجات هذه الورقة يعتقد أن باستثمار الموارد المتاحة في الاتحادات الطلابية المختلفة وبنيل العضوية في مؤسسات طلابية كثيرة في جامعات مختلفة، يمكن تكوين فكرة قابلة للتنفيذ الهدف منها تأسيس ائتلاف متحد للطلبة العرب ينتمي إلى الاتحاد الوطني للطلبة في بريطانيا. فوق كل شيء فإن البيئة الطلابية المتاحة في المملكة المتحدة تضم رابطة طلابية تستطيع المساعدة في عملية إعادة تأسيس اتحاد الطلبة العرب. ومن المهم أيضاً أن يكون واضحاً أنه يوجد فرق بين حياة الشباب الاجتماعية المنفتحة والمساهمة في منظمة طلابية، ولو أنه قد توجد أحياناً علاقات متبادلة. كما أن حقيقة وجود اهتمام أقل من المتوقع في حياة الطلبة البريطانيين السياسية ينبغي ألا يكون عاملاً مثبطاً، لأن ظروف وأهداف حركة الطلبة العرب خارج الوطن العربي هي أكثر تحديداً.

سياسيون بريطانيون كانوا قادة في الحركة الطلابية البريطانية: عضو البرلمان لورد إدوارد هيث (رئيس سابق لاتحاد طلبة جامعة أكسفورد) وليدي مارغريت ثاتشر (رئيسة سابقة لاتحاد طلبة جامعة أكسفورد) وعضو البرلمان جاك سترو (رئيس سابق للاتحاد الوطني للطلبة) وعضو البرلمان ستيفن تويغ (رئيس أسبق للاتحاد الوطني للطلبة) وعضو البرلمان جيم ميرفي (رئيس سابق للاتحاد الوطني للطلبة) وعضوة البرلمان لونا فيتزيمونس (رئيسة سابقة للاتحاد الوطني للطلبة) وغيرهم.

سياسيون فلسطينون كانوا قادة في الحركة الطلابية الفلسطينية: الرئيس ياسر عرفات (مؤسس الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين في أنحاء العالم ورئيسه السابق) والدكتور نبيل شعث (رئيس سابق للاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين واتحاد الطلبة العرب في الولايات المتحدة) والسيد عفيف صافية (رئيس سابق للاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين في فرنسا وبلجيكا) والراحل السيد فيصل الحسيني (مؤسس مشارك للاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين في مصر) وغيرهم.

استنتاجات

يمكن بسهولة دراسة الحركة الطلابية وتاريخها ودورها في المجتمعين العربي والبريطاني خارج نطاق هذه الورقة، غير أنه يعتقد أن الطلبة العرب في

السن الغضة ينبغي أن يحصلوا على الصورة الحقيقية لأهمية الحركة الطلابية ومساهمتهم الطويلة الممكنة فيها ولو على نطاق ضيق، ومن الواضح أنها تعزيز لتربية الطلبة ما دام يتم إدراكها على نحو سليم. ومن الحيوي إدراك أنه ليس ضرورياً أبداً أن تقود المشاركة في الحياة السياسية للطلبة إلى امتهان السياسة. إن حصيلة الحياة السياسية الطلابية/الشبابية لا تقود أبداً إلى العالم المثالي، غير أن المحاولة ينبغي أن تكون مثالية وأخلاقية، لكي تصبح الحركة مستديمة.

القســم الرابــع

تنظيم الجاليات العربية وتمويل نشاطها

الفصل الثاني عشر

مستقبل الجالية العربية في بريطانيا

صباح المختار(*)

لا بد ـ بداية ـ من تحديد بعض المفاهيم التي تهدف هذه الورقة إلى مناقشتها، ولمحور تنظيم الجالية التعامل معها.

جالية أم جاليات

الجالية العربية عبارة يستعملها كثيرون للإشارة إلى العرب في بريطانيا من دون أن يكون هناك تحديد دقيق للمقصود بها، لذا فقد يكون من المفيد التساؤل عما إذا كنا نتحدث عن جالية واحدة أم عن جاليات عدة، وما هو المعيار الذي يستعمل لتحديد ما إذا كانت هناك جالية واحدة أم أكثر؟ ويمكن استعمال المعايير التالية لتوضيح الأمر.

ولا بد من التفريق بين ما إذا كان مستعمل هذه العبارة بريطانياً من غير العرب، أو عربياً بغض النظر عن جنسيته، فالبريطانيون من غير العرب (الإنكليز، الاسكتلنديون، الآسيويون أو الأفارقة) ينظرون إلى العرب في الغالب على أنهم كتلة بشرية متجانسة، وبذا يعتبرونهم جالية واحدة، إما للجهل بالفروقات بين العرب (٢٢ جنسية، ديانات، أصول عرقية... الخ) فيحسبون الكل واحداً، وإما أن ذلك ناتج عن مفهوم عنصري ضد العرب حيث إن هناك مفهوماً سائداً في بريطانيا يلصق الكثير من المساوئ بالعرب (الإرهاب، التخلف، الثراء غير المشروع، المقامرة... الخ). وبالتالي فالعرب

(*) رئيس جمعية المحامين العرب.

كلهم سواء لاشتراكهم في هذه المساوئ.

في تقديري الشخصي أن البريطانيين من غير العرب يميلون عادة إلى اعتبار العرب (جالية واحدة) وليس (جاليات عربية). أما العرب أنفسهم فينظر البعض منهم إلى العرب على أنهم جاليات متعددة غالباً ما تستند إلى التصنيف القطري، فهناك المصرية واللبنانية والعراقية والمغربية وهكذا، فوفقاً لهذا المفهوم هناك جاليات عربية متعددة. وهناك بطبيعة الحال من ينظر إلى العرب على أنهم جالية واحدة، وفي تقديري الشخصي ان الأغلب بين العرب هم من يميلون إلى اعتبار العرب جاليات متعددة، وليس جالية واحدة.

والموقع الجغرافي له دوره في هذا الأمر، فبغضّ النظر عما ورد أعلاه وبالإضافة إليه هناك من يعتقد أن العرب جاليات متعددة فيتحدث عن الجاليات العربية في لندن، غلاسكو وبرمنغهام، باعتبارها جاليات متعددة ومتفرقة.

يبدو لي أن غير العرب من البريطانيين على المستوى الشعبي والإعلامي يميلون إلى اعتبار العرب جالية واحدة. وهذا الموقف يختلف، بل يتناقض على ما أعتقد، مع الموقف الرسمي البريطاني، إذ إن الموقف الرسمي بصورة عامة (وزارة الداخلية، البرلمان، وزارة الخارجية، رئاسة الوزارة) إضافة إلى الأحزاب السياسية الرئيسة لا تعتبر العرب جالية واحدة، بل إن هناك شبهة تحاول نفي اعتبار العرب «أقلية» معترفاً بها، وأوضح دليل على هذا الموقف الرسمي هو أن التقسيم العرقي المستعمل في الإحصاءات الرسمية لا يشير إلى «العرب» كأقلية عرقية (التقسيم يشير إلى الهنود، الآسيويين، الأفارقة، البيض، ذوي الأصول الكاريبية). في المقابل، يبدو أن العرب يميلون في الغالب إلى اعتبار أنفسهم جاليات متعددة وليس جالية واحدة.

أنا أرى أن هذا الموقف لا يخدم العرب إطلاقاً بل يضعف من مركزهم في بريطانيا في مختلف المجالات، بما في ذلك التمثيل والتأثير السياسي والحزبي والتعرض للتفرقة العنصرية. وهذا واضح من أنه يمكن الإساءة إلى «العرب» في وسائل الإعلام من دون خشية من رد فعل من أي نوع كان، في حين أنه لا يمكن الإساءة إلى أية مجموعة أخرى كاليونانيين أو الأفارقة أو اليهود مثلاً، أو حتى على المستوى الاقليمي العربي فلا يمكن الإساءة إلى الفلسطينيين أو المغاربة أو العراقيين مثلاً كما يساء إليهم باعتبار أنهم «عرب».

من المقصود بالعرب؟

الحديث عن الجالية أو الجاليات العربية يقصد به أصلاً أولئك المتوطنون في بريطانيا من ذوي الأصول العربية، فهناك العرب المقيمون ممن لا يزالون يحملون جنسية بلد المولد في حين يحمل الآخرون الجنسية البريطانية، ومنهم من يحمل الجنسيتين إن أجاز قانون بلد المولد ذلك. وهناك من كان أبواه من البلد نفسه، وهناك من كان من زواج مختلط. المقصود أصلاً بالعرب لأغراض هذه الورقة هو من كان ذا ثقافة عربية، حتى وإن كان من أصل عرقي غير عربي مثل الأقليات غير العربية في البلدان العربية (البربر، الأكراد، الأفارقة.. الخ). إضافة إلى حملة الجنسية البريطانية من العرب هناك، بطبيعة الحال، فئات مختلفة من العرب «المتوطنين». فهناك المقيمون بصورة دائمة وهناك اللاجئون والمقيمون للعمل أو الدراسة وفي تقديري يقتضي الأمر استبعاد الزوار والسائحين والهيئات الدبلوماسية وغيرهم من المقيمين لفترات قصيرة أو محددة الأجل.

لماذا الحديث عن الجالية العربية؟

تتميز المجتمعات الغربية بالتنظيم الذي تعتبره عنصراً مهماً في الهيكل الاجتماعي، كما تتميز هذه المجتمعات بإنشاء المؤسسات والعمل المؤسسي، أما المجتمعات في الدول النامية ومنها المجتمع العربي، فعلى الرغم من التنظيم (القبلي، العرقي، الديني) ومحاولات العمل المؤسسي (نقابات، جمعيات، نواد، أحزاب) إلا أن الفردية والشخصنة في التنظيم والعمل المؤسسي واضحتان جداً بل تكادان تفقدان التنظيم والمؤسسية شكلهما وتفرغانهما من محتواهما. ولا تزال الفردية التي يتميز بها العرب (كما في شعوب أخرى) تقف حائلاً دون قيام العرب سواء في البلدان العربية (على مستوى الدول) أو على مستوى المنطقة أو العالم، أو حتى على مستوى الاغتراب بالنسبة إلى الأفراد، بالعمل الجماعي من خلال العمل على أساس القاسم المشترك الأدنى بين المجموعات والأفراد.

أعتقد أن في هذا الوضع ضرراً كبيراً على الجالية وعلى كل فرد فيها وعلى المستويات كافة. ولتوضيح حجم الضرر قد يكون من المفيد إعطاء أمثلة قليلة ومختلفة الأبعاد في هذا المجال. ففي فرنسا يدعو رئيس الجمهورية عادة في المناسبات الوطنية والدينية ممثلين للجاليات والأقليات لحضور دعوات عشاء أو استقبال، ولكن عدم تمكن العرب من الاتفاق على ممثل لهم أدى إلى استبعاد العرب من هذه الدعوات.

وحينما تحاول الأحزاب السياسية البريطانية التعامل مع «العرب» تجد من التناقض بينهم ما يجعل تعامل الأحزاب صعباً إن لم يكن مستحيلاً. فلا تستطيع الأحزاب التعامل معهم أو مع القضايا العربية كمجموعة واحدة حيث إن هناك خلافات في السياسة الخارجية تجاه البلدان العربية، وهناك خلافات عربية ـ عربية. وفي الوقت ذاته تتعامل الأحزاب بوضوح أكثر، مثلاً مع «الجالية المسلمة»، رغم وجود فوارق أكبر بين العرب والعجم والباكستانيين والأفارقة المسلمين مما هو موجود بين العرب أنفسهم.

هناك على ما أظن بطالة بين شباب العرب المتخرجين من أفضل الجامعات البريطانية تزيد نسبتها عن المعدل العام في بريطانيا، وذلك على الرغم من وجود مؤسسات اقتصادية عربية بأعداد كبيرة (شركات طيران، بنوك، شركات تجارية، صناعية، خدمية).

وفي تقديري الشخصي أنه ما لم يحاول العرب في بريطانيا العمل بأسلوب منظم وخلق مؤسسات تعمل من خلال القاسم المشترك الأدنى بهدف التكتل فسيبقى الجميع يعاني.

الهوية: عربية أو إسلامية؟

هناك بطبيعة الحال، أعداد كبيرة غير عربية العنصر (أفارقة، شركس، أكراد) إلا أنها عربية الثقافة من بلدان عربية أصلاً، والأهم من ذلك أن المؤسسات البريطانية تعتبرهم كما لو كانوا عرباً لأنهم من تلك الدول، كما أن هناك أعداداً من العرب ويدينون بالديانة المسيحية إلا أن المؤسسات البريطانية تعتبرهم كما لو كانوا مسلمين،وذلك لأنهم عرب أصلاً. أثّر فينا هذا الفرق بين الواقع وكيفية الرؤية البريطانية إلينا على ما يبدو أكثر مما يجب، فالجالية العربية مثلاً تبتعد عن الجالية «المسلمة»، باعتبار أن بين العرب مسيحيين وأن العرب لهم «هوية» معينة وواضحة، وبذا فإنهم لا يحتاجون الانتماء إلى «المسلمين» البريطانيين حتى غدا الإسلام كما لو كان لغير العرب في بريطانيا، في حين يتصور غالبية البريطانيين أن جميع العرب مسلمون.

وبغضّ النظر عن مدى تديّن الفرد أو ابتعاده عن الدين، وبغضّ النظر عن الموقف الفكري والفلسفي، فإن ابتعاد العرب عن الجالية «المسلمة» في بريطانيا يحرمها من بعد سياسي مهم مثل قضايا المساواة ومكافحة العنصرية والعمل الحزبي وفرص العمل التي أحرزت فيها الجالية «المسلمة» تقدماً لا بأس

به (هناك أعضاء في مجلس اللوردات، وزراء، نواب، مسؤولون في هيئات اختصاصية وعلمية) ورغم أن كلاً من هؤلاء قد اختير أصلاً لإمكاناته ولمكانته الشخصية، إلا أن الكل جاء تحت لافتة وهوية «إسلامية»، ومن هنا تأتي أهمية دراسة الفوائد السياسية للتعاون مع، والمشاركة في، وأخذ دور واضح في، هذه النشاطات السياسية «الإسلامية» بهوية ولافتة «عربية».

عرب بريطانيون أم بريطانيون عرب؟

هناك من يشعر أنه عربي أولاً وبريطاني بعد ذلك، وهناك من يشعر بعكس ذلك. وليس في هذا أو ذاك أي بأس على ما أرى، بل أعتقد أن في هذا الاختلاف جانباً إيجابياً مهماً، إذ يستطيع من يشعر أنه عربي أولاً أن يقدم خير ما يستطيع ليخدم القضايا العربية، ويقدم الآخر خير ما يستطيع ليخدم رأيه وبذا نكسب جميعاً. ولنا في تجارب من سبقنا تراكم يمكن الاستفادة منه. فالهنود الذين يؤمنون بأن جلالة الملكة هي ملكتهم قبل أن تكون ملكة للإنكليز يقدمون للمجتمع من الخدمات ما يجعل المجتمع يعطيهم مقابل ذلك اعترافاً ينصرف نفعه لهم وأصدقائهم وأبناء جلدتهم وبقية الهنود. واليهود البريطانيون الذين يعتبرون أنفسهم يهوداً أولاً وبريطانيين بعد ذلك يقدمون لإسرائيل خدمات يعجز عن تقديمها يهود إسرائيل، وكذا اليهود البريطانيون الذين يعتبرون أنفسهم بريطانيين أولاً ويهوداً بعد ذلك، وبذا تستفيد الدولة التي يشعرون بالانتماء إليها فائدة كبرى. ولكن الاختلافات في مشاعر الانتماء لدينا (بريطاني/عربي) يبدو أنها لم تنضج بدرجة كافية، وذلك بأن يكون كل منا مواطناً صالحاً ووطنياً بريطانياً، وفي الوقت ذاته يكنّ مشاعر لا تقلّ سمواً ودفئاً تجاه أهله وبلد مولده وشعبه والقضايا العربية. أعتقد أن من أسباب عدم هذا النضج، الماضي الاستعماري البريطاني والحاضر الصدامي بين العرب وبريطانيا في ما يتعلق بالسياسة الخارجية والعلاقات الدولية.

والخلاصة، إني أعتقد أنه لا يمكن أن يُخلص العربي البريطاني للقضايا العربية إذا لم يكن مخلصاً لوطنه بريطانيا، إذ إن الإخلاص والوطنية أمران مبدئيان لا يمكن الالتزام بهما في موقف معين والتفريط بهما والتخلي عنهما في موقف آخر. تلك هي ازدواجية المعايير بأوضح صورها. ولكن الإخلاص والوطنية لبريطانيا لا يعنيان ضرورة الموافقة على جميع المواقف السياسية لها. فليس من الضروري أن يؤيد كل منا موقف بريطانيا في ما يتعلق بالعلاقات مع أوروبا أو البيئة أو موضوع تيمور الشرقية، وبالتالي ليس من المطلوب تأييد

موقف بريطانيا من قضية فلسطين أو حصار العراق أو قصف مصنع الشفاء في السودان أو التعامل العرقي مع العرب أو غير ذلك من الأمور.

تنظيم الجالية

ستتناول الورقة الأخرى التي يقدمها د. رغيد الصلح تصورات محددة لتنظيم مؤتمر الجالية، ولكن هذه الورقة تهدف إلى إثارة تساؤلات أولية في شأن التنظيم، كفكرة أولاً، ودرجة وشمولية التنظيم ثانياً.

عند دراسة فكرة تنظيم الجالية قد يكون من المفيد الإشارة إلى بعض العقبات لا من باب ترسيخها وإنما من أجل دراستها بغية وضع اقتراحات لمعالجتها أو التخفيف من آثارها.

الجالية العربية في غالبيتها يمكن وصفها بصورة عامة بأن أغلب أفرادها:

- لم يمارسوا العمل المدني/ الاجتماعي من قبل.

- لديهم عقد نفسية تجاه ممارسات العمل السياسي في بلد المولد العربي.

- لديهم رغبة في تحسين أوضاعهم فردياً، ولكن تحسين وضع الجالية يأخذ مركزاً أدنى.

- ليس لديهم الحماس الكافي، ولديهم استعداد أقل للمساهمة المباشرة والشخصية فيها.

- لم يعتادوا على العمل الجماعي، لذا فلدى كل منهم آراء واضحة وقوية تجاه أغلب الأمور.

- يعانون من مشكلة شخصنة الأمور بحيث ينظرون إلى أغلب الأمور من خلال شخص القائم بالعمل.

- استعدادهم ضعيف جداً لتمويل العمل العام الذي يقوم به الآخرون.

قد يكون في أعلاه تجنٍ على بعضهم، وقد يكون الوصف غير دقيق، ولكنني أعتقد أنه بصورة عامة صحيح. فإن كان الأمر كذلك فإن أمر تنظيم الجالية العربية أو تنظيم مؤتمر الجالية نفسه عليه أن يواجه هذه الحالة النفسية والسلوكية، أو على الأقل أن يأخذها بنظر الاعتبار عند وضع المقترحات العملية ودراسة ما يمكن تطبيقه.

من الناحية الأخرى لا بد من النظرة الواقعية إلى تنظيم الجالية، حيث هناك متطلبات تفرضها طبيعة الجالية وظروفها؛ وهناك فروق كبيرة بين أبناء الجالية. فهناك الفروق العمرية وبالتالي التراكم في التجارب أو قلتها والذاكرة الجماعية لتجارب الماضي، وهناك الفروق الثقافية بين الأجيال المهاجرة والجديدة، وهناك الفروق الاجتماعية (العاملون والعاطلون والأغنياء والفقراء وذوو المؤهلات العلمية والعمال غير الماهرين)، وهناك الفروق السلوكية بين المتحرر والمحافظ واختلاف الاهتمام والمشارب وغير ذلك، مما يجعل انتظام الجميع في هيكلية واحدة أمراً صعباً جداً، أو حتى غير واقعي إلا بالحد الأدنى. لذلك فقد يكون من الضروري العمل بصورة متدرجة وعلى خطوات تزداد انضباطاً وتلازماً على مر الأيام والسنين.

وهناك أيضاً المتطلبات المالية لقيام أي تنظيم وتمويل نشاطه، وهذا موضوع يكاد يكون حاسماً في أمر التنظيم، ومع الأسف فإن تجربتي الشخصية تجعلني أعتقد أن الاستعداد ضعيف لدى الجالية لدفع حتى القليل من المال لضمان قيام أي تنظيم، ولا يمكن قيام تنظيم يتم تمويله من غير أبناء الجالية، فذلك أمر ليس عملياً ولا واقعياً ولكن هذا الموضوع هو محل اهتمام ورقة أخرى في هذا المحور (يقدمها الأستاذ محمد المسيبي).

بين المشكلات الأخرى عدم وضوح القصد من تنظيم الجالية. فهل الغرض منه أن يقتصر على معالجة قضايا العرب في بريطانيا باعتبارهم مواطنين ومتوطنين؟ أم أن الهدف هو الطرف الآخر من الطيف، ألا وهو خلق جماعة ضغط عربية (لوبي عربي) للتعامل مع القضايا العربية من الوطن الأم والسياسة الخارجية والدولية؟ أم أن التنظيم يقصد منه أن يشمل الجانبين، وإن كان كذلك فما هي نسبة الخلط؟ وهل يمكن الخلط بين الأمرين من دون ضرر على التنظيم؟ كيف يمكن معالجة الخلافات العربية ـ العربية داخل تنظيم الجالية، وكيف يمكن التعامل مع الخلاف بين أبناء القطر الواحد في ما يتعلق بالموقف من سياسة تلك الدولة؟

شمولية التنظيم

يمكن الحديث عن تنظيم الجالية ضمن وحدة تمثيلية للجالية العربية في بريطانيا، أو هيئة تنسيقية بين التجمعات. قد يكون التنظيم الأمثل هيئة واحدة تتحدث باسم الجالية ونيابة عنها، تمثلها في كل شأن وتحظى بدعم

الجالية وقبولها. ومن الناحية الثانية قد يكون هذا التصور غير واقعي وصعب المنال، على الأقل في الأمد القريب، نتيجة للعديد من الأسباب التي ذُكر بعضها أعلاه.

وقد يكون من المفيد الاستفادة من تجارب الآخرين في هذا الشأن، فالجالية اليهودية في بريطانيا لديها ما يسمى «مجلس الممثلين» (Board of Deputies) وهو وإن مثّل الجالية اليهودية وتحدث باسمها، إلا أنه يبقى هيئة تنسيقية بين الطوائف المختلفة، ومثل ذلك المجلس الإسلامي البريطاني (Muslim Council of Britain). كما أن هناك تجارب من الدول الأوروبية الأخرى والولايات المتحدة يمكن الاستفادة منها. يجب في الوقت ذاته التنبيه إلى أن تجارب تلك الدول قد لا تكون مناسبة للوضع في بريطانيا لأسباب تعود لتركيب الجالية العربية نفسها أو للتركيبة السياسية لتلك المجتمعات. ففي فرنسا مثلاً يختلط أمر الهوية بين «العربية» و«المسلمة» حيث يشار هناك إلى الجالية العربية على أنها الجالية «المسلمة»، وهذا ينسجم مع التفكير السائد بين المهاجرين من دول الشمال الأفريقي الذين يعتبرون هويتهم «إسلامية» أكثر مما يفعل المهاجرون العرب من دول المشرق العربي، ويزيل من ناحية ثانية على ما أعتقد ضرورة مناقشة قضية العرب والبربر والأمازيغية. أما في أمريكا فالمجتمع هناك مكون أصلاً من مهاجرين، فلا يوجد «أمريكيون أصليون» كما يوجد فرنسيون وإنكليز في فرنسا وبريطانيا، بحيث يمكن التفرقة بين المواطن الأصلي والمهاجر. فالكل في أمريكا مهاجر تجنس وذاب في البوتقة الأمريكية متخلياً عن هويته الأصلية ليكتسب الهوية الأمريكية، وهو ما يختلف عن الاندماج في المجتمع البريطاني من دون أن يصل إلى الانصهار والذوبان كما هو الحال في المجتمع الأمريكي.

الهدف مما ذكرناه هو رسم الصورة العامة كما أراها في محاولة لتوضيح الأسباب والدوافع خلف الاقتراحات المحددة التي أختم بها هذه الورقة:

- لا بد للجالية العربية من أن تنظم نفسها.

- لا بد للتنظيم أن يكون عاماً شاملاً يحظى بتأييد أغلب أبنائها.

- لا يتعارض ذلك التنظيم مع أي تنظيم قائم آخر أو مستقبلي، ولا يشكّل بديلاً منه.

- أن تكون للتنظيم هيكلية مستقلة عن التنظيمات الأخرى كافة.

ـ أن يكون أعضاء التنظيم هم المرجعية العليا له وليس أية جهة أخرى.

ـ أن يكون للتنظيم استقلال مالي يستند إلى الجالية نفسها والتي هي مصدره الرئيس.

ـ أن يكون للتنظيم عاملون متفرغون مقابل أجور.

ولتحقيق هذه الاقتراحات أو أغلبها يمكن تشكيل تنظيم يدعى مثلاً «مجلس الجالية العربية في بريطانيا» له الهيكلية التالية:

ـ **الجمعية العامة للجالية العربية**: وهي مفتوحة لجميع التجمعات العربية في بريطانيا، والتي يهمها أمر الجالية. تدفع كل من هذه التجمعات مبلغاً محدداً سنوياً يتناسب مع طبيعة التجمع (عدد الأعضاء، حجم النشاط، تاريخ التأسيس) ويحق لكل منها مقابل ذلك أن ترسل ممثلاً أو أكثر إلى الجمعية العامة. قواعد التمثيل تشمل إرسال ثلاثة ممثلين مثلاً عن التجمعات الوطنية (وتعني تلك التجمعات التي تنتشر على مستوى الساحة البريطانية كأن تكون لديها ثلاثة فروع فأكثر)، وممثلين اثنين لتجمعات المقاطعات (أي التي تنتشر على مستوى المقاطعات البريطانية أي أن يكون لها فرعان أو أكثر في مقاطعة لندن أو يوركشاير أو في ويلز مثلاً)، وممثلاً واحداً بالنسبة إلى التجمعات التي ليست لها فروع في أماكن أخرى. يجب ألا تسمح قواعد التمثيل بأن تسيطر أي من التجمعات على الجمعية العامة أو مجلس الجالية، كما أن عضوية الجمعية العامة غير محددة بعدد معين إذ تتسع لجميع التجمعات، وتجتمع مرة واحدة كل عام على الأقل، وتعتبر السلطة العليا ومرجعية المجلس.

ـ **المجلس التنفيذي للجالية العربية**: وينتخب غالبية أعضائه من قبل الجمعية العامة، إضافة إلى وجود ممثل واحد لكل من التجمعات الوطنية وتجمعات المقاطعات، إضافة إلى عدد محدود من الأفراد من ذوي الخبرة يضمون إلى المجلس بصفتهم الشخصية.

ـ **مجلس المستشارين**: ويتكون من رؤساء التجمعات الوطنية وتجمعات المقاطعات.

ـ **اللجنة التنفيذية**: وتشمل الأمين العام لمجلس الجالية العربية ونائباً له وعدداً من مساعدي الأمين العام وأميناً للصندوق ورؤساء للجان الفنية.

ـ **اللجان الفنية**: وهي لجان متخصصة تشكّلها اللجنة التنفيذية بالتشاور مع مجلس المستشارين بحسب الحاجة.

خطوات التنفيذ:

١ ـ تكوين لجنة عمل تضم أعضاء اللجان التحضيرية لمؤتمرات الجالية الثلاثة، إضافة إلى ممثلين من النادي العربي والتجمعات العربية الرئيسة، على أمل أن تؤخذ المعايير التالية بنظر الاعتبار بالنسبة إلى جميع الأشخاص وهي:

ـ الرغبة الجادة في العمل.

ـ توفر الخبرة والمقدرة على العمل.

ـ سماح الظروف الشخصية لإعطاء الوقت المطلوب.

٢ ـ توفير مبلغ من المال يسمح باستخدام شخص واحد على الأقل مقابل أجر لتكوين النواة الإدارية.

٣ ـ وضع نظام أساسي لمجلس الجالية العربية في بريطانيا لعرضه على الجمعية العامة.

٤ ـ الاتصال بجميع التجمعات العربية التي يمكن الوصول إليها بما في ذلك الإعلان بوسائل الإعلام المختلفة بهدف عقد اجتماع تأسيسي خلال ستة أشهر.

الفصـــل الثالث عشر

مشروع هيكلية الجالية العربية وبرنامج عملها

رغيد الصلح(*)

أود بادئ الأمر أن أعبر عن تقديري للجنة التحضيرية للمؤتمر الثالث للجالية العربية في بريطانيا على نجاحها بعقد المؤتمر الذي يلبي حاجة مهمة للعرب المقيمين في بريطانيا، كما يتجاوب مع تطلع عربي إلى قيام هيئات اغترابية نشيطة تساهم في خدمة القضايا العربية.

لقد حددت لي اللجنة التحضيرية للمؤتمر أن أقدم ورقة موضوعها «برنامج عمل وهيكلية الجالية العربية»، وإنني أستميح اللجنة التحضيرية عذراً حيث إنني سوف أدخل تعديلين على موضوع الورقة: التعديل **الأول** هو أن يقتصر الحديث في هذه الورقة على تقديم بضعة مقترحات حول هيكل مؤتمر الجالية العربية نفسه، وليس هيكل الجالية العربية. **والثاني** هو التركيز على الهيكلة وليس البرمجة. والسبب الرئيس هنا هو الاعتقاد بأن الغرض الملحّ في المرحلة المقبلة هو تطوير صيغة المؤتمر الراهنة، وان برنامج عمل اللجنة التحضيرية للمؤتمر الرابع للجالية ينبغي أن يركز على تطوير صيغة المؤتمر. ولسوف تنقسم هذه الورقة إلى قسمين: الأول، يضم ملاحظات عامة، والثاني يضم مقترحات حول تطوير صيغة المؤتمر.

(*) كاتب لبناني مقيم في لندن.

أولاً: ملاحظات عامة

بعد مؤتمري الجالية العربية في المملكة المتحدة الناجحين، واللذين انعقدا خلال عامي ١٩٩٠ و١٩٩٣، تتوفر حالياً ظروف أفضل لتطوير فكرة المؤتمر وهيكله، إذ تلقى فكرة قيام هيئات عربية تعمل من أجل حماية مصالح عرب الاغتراب والعمل من أجل القضية العربية في الخارج سنداً متزايداً في أوساط عديدة أهلية ورسمية في البلدان العربية والمغتربات. فالاهتمام الإعلامي الرسمي والأهلي الذي أحاط بالمؤتمرين كان تعبيراً عن هذه المساندة. كما عُبر عن هذه المساندة والتبني لفكرة الهيئات الاغترابية في مناسبات أخرى متعددة. ففي ندوة «مستقبل الوطن العربي ودور جامعة الدول العربية فيه» التي قام المركز العربي للدراسات الاستراتيجية بعقدها في أبو ظبي في ربيع عام ١٩٩٨، كانت الدعوة إلى تنشيط وتشجيع الجماعات العربية العاملة في الخارج من أهم النتائج التي تمخضت الندوة عنها. وفي ندوة «العرب ومواجهة اسرائيل: احتمالات المستقبل»، التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت في شهر آذار/مارس ١٩٩٩، بحثت أوضاع العرب المقيمين في الخارج بإسهاب، وأشار غير مساهم ومساهمة في الندوة إلى أهمية إقامة جمعيات تمثل عرب الاغتراب. وفي الندوة الأكاديمية حول «صورة العرب في الغرب» التي نظمها المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمّان، بالتعاون مع مركز الدراسات اللبنانية في مدينة أوكسفورد خلال شهر حزيران/يونيو عام ١٩٩٨، تحدث العديدون من المشتركين عن أهمية قيام مثل هذه الهيئات. وفي منتصف شهر نيسان/ابريل ١٩٩٩ نظمت بعثة جامعة الدول العربية في بريطانيا والمملكة المتحدة لقاءات شملت مقيمين عرباً في بريطانيا، من أجل بحث مشروع قيام «لوبي» يهتم بمصالح هؤلاء المقيمين وحقوقهم الإنسانية والمجتمعية. وراء هذا الإلحاح المتزايد على إنشاء جماعات عربية في المغتربات تطورات موضوعية بعضها عالمي الأبعاد والآثار وبعضها الآخر عربي في جوهره، هذا فضلاً عن تطورات متعلقة بالمغتربات العربية نفسها. من هذه التطورات ما يلي:

١ ـ ازدياد التنقل والهجرة عالمياً وعربياً. فبحسب الإحصائيات التي نشرتها مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، ارتفع عدد اللاجئين بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٥ من ١٧ مليوناً إلى ٢٧ مليوناً، أما الارتفاع الموازي في أعداد المهاجرين فيبلغ خمسة أضعاف هذا العدد تقريباً. من أصل هذا العدد المتزايد من المهاجرين يوجد عدد كبير من العرب. ولا توجد إحصاءات دقيقة عن عدد العرب المهاجرين في العالم أو في الغرب، إلا أن بعض الإحصاءات

الأوروبية المتحفظة تتوقع أن يبلغ عدد المسلمين في أوروبا حوالى ١٤ مليون نسمة في نهاية القرن، والعرب يشكلون قسماً كبيراً من هؤلاء، فإذا أضفنا إليهم العرب من غير المسلمين، فإنه من المرجح أن تقطن أوروبا أقلية عربية ذات وزن عددي كبير، منها ما يقارب نصف المليون عربي في بريطانيا.

٢ ـ ترافق هذا النمو في عدد المهاجرين إلى القارة الأوروبية وإلى بريطانيا تحديداً الظاهرتان التاليتان:

ـ شحذ النزعات العنصرية ونزعات كراهية الأجانب (الزينوفوبية) في المجتمعات الأوروبية كان من نتائجه الأخيرة فوز حزب الحرية النمساوي العنصري بالمركز الثاني في الانتخابات، ونمو نسبة المؤيدين للجماعات العنصرية في النرويج، كما بينت إحصاءات نشرت مؤخراً. وإذا كانت النزعات العنصرية المعلنة تشكل خطراً على الوافدين إلى المجتمعات الأوروبية وعلى الأقليات العرقية والدينية فيها، فإن العنصرية المستترة التي أشير إليها مؤخراً في تقارير حكومية بريطانية لا تقل أثراً وخطراً عن العنصرية الظاهرة. وهذه النزعة ليست موجهة ضد العرب وحدهم بل إلى جميع الأقليات العرقية والدينية، إلا أن العرب يتعرضون لأسباب جيو ـ سياسية وتاريخية لا مجال لشرحها بإسهاب هنا، إلى مضايقات إضافية من قبل الجماعات العنصرية الصريحة والمستترة، بحيث إنه ليس من المبالغة الحديث عن أجواء الخوف المرضي من العرب (الآرابوفوبيا) التي تطل على الساحة البريطانية بين الحين والآخر. ويعتقد فريق واسع من العرب ان قيام هيئة عربية انطلاقاً من مؤتمر الجالية أو بمبادرات أخرى جدير بأن يخفف من هذه الأجواء المرضية.

ـ مقابل هذه النزعات العنصرية التي تنتشر في بعض المجتمعات الأوروبية التي يكثر فيها العرب، نمت تيارات متنورة تدعو إلى قبول التعددية الثقافية كأساس للعلاقات بين الجماعات البشرية التي تقطنها. في ظل هذا التحول في المجتمعات الأوروبية لاحظ مركز دراسات «ديموس» القريب من رئيس الحكومة البريطانية توني بلير، في تقرير أصدره في منتصف التسعينيات، أن الجميع بات يفتش عن أصوله وعن جذوره، ويسعى لتأكيد خصوصيته الثقافية. في هذا السياق لم يعد غريباً أن يحاول العربي المغترب الاندماج في بلد الاغتراب وأن يسعى، في الوقت نفسه، للحفاظ على خصوصيته، ومن ثم على علاقته بالبلد الأم. وفي الوقت الذي توفر التعددية الثقافية والعرقية المناخ الأخلاقي الملائم لاهتمام العربي بالوطن الأم وحرصه

على مصالحه وقضاياه، فإنه يمكنه أن يعبر عن هذا الاهتمام تعبيراً يعود بالفائدة على الوطن الأم وعلى بلد الاغتراب معاً. فلا ريب في أن تنمية العلاقات بين البلدان العربية وبلاد الاغتراب وإرساءها على أساس الاحترام والمصالح المتبادلة يفيد الجانبين. من هذه الزاوية فإن فكرة التعددية الثقافية التي تتبناها أوساط بريطانية واسعة توفر مجالاً أوسع للعرب المهاجرين، لكي يقوموا بدور صلة وصل بين وطنهم الجديد ووطنهم القديم. وإذا كان باستطاعة بعض العرب القيام بهذا الدور عبر المجهودات الفردية، فمن الأرجح أن العمل الجماعي سوف يزيد من أثرها ويخفف من محاذير قيام هيئات تهتم بقضايا العرب المغتربين، ويهيئ مجالاً أفضل من أجل تطوير الهيئات القائمة حالياً. فضلاً عن هذا وذاك، فإنه سوف يمكّنهم من الإسهام في تعزيز فكرة التعددية الثقافية ورد النزعات العنصرية والمعادية للأجانب.

٣ ـ انتهاء الحرب الباردة وانهيار المعسكر الشرقي الذي دأب على الوقوف إلى جانب العرب على الصعيد الدولي. إن هذا التغير في المناخ الدولي جعل كثيرين في البلاد العربية يشعرون بالحاجة إلى تعويض، مهما كان محدوداً وضئيلاً، عما لحق العرب من خسائر، عن بناء طريق تحالفات جديدة، وتحسين العلاقات مع دول الغرب التي كسبت الحرب الباردة عبر وسائل متعددة. ولا ريب في أن المدخل الرئيس للتغلب على مضاعفات خسارة حلفاء دوليين هو في قيام البلدان العربية نفسها، متفرقة أو مجتمعة، بتطوير علاقاتها الدولية آخذة بعين الاعتبار المتغيرات العالمية. إلا أنه، في الوقت نفسه، يشعر عديدون من المعنيين بالقضايا العربية بأن تكوين هيئات عربية في الخارج، وفي الدول الصناعية بصورة خاصة، هو من الوسائل المناسبة لتحقيق تلك الأغراض، ولا بد من التحسب هنا إلى أن في هذا الشعور بعض المغالاة، وأنه يستند إلى مقارنة ضمنية غير دقيقة مع الدور الذي اضطلعت به المنظمات الصهيونية العالمية في التأثير في «دول الشتات». إلا أنه مع استبعاد أوجه المغالاة في هذه النظرة يبقى أنه ليس خطأ الاعتقاد أن عرب المغتربات يستطيعون الاضطلاع بدور إيجابي في تحسين علاقات البلدان العربية بالبلدان التي يقيمون فيها.

٤ ـ كما تتوفر عوامل وحوافز موضوعية لقيام هيئات عربية في الخارج لكي تتولى الاهتمام بقضايا المغتربين والقضايا العربية، فإنه توجد شروط ذاتية ملائمة لتطوير مؤتمر الجالية في هذا الاتجاه. ومن أبرز هذه الشروط والمقومات وجود عدد من العناصر البشرية ذات الخبرة في العمل العام، والتي أظهرت،

ولا تزال تُظهر، استعداداً للاضطلاع بالمسؤولية على هذا الصعيد. وتتوفر في بريطانيا جملة شروط أخرى لقيام هيئة عربية تعنى بشؤون المغتربين العرب، منها: وجود عدد من الهيئات والمؤسسات الإعلامية والتجارية والأكاديمية العربية التي يمكن أن تشكل رديفاً لعمل من هذا النوع. لذلك فإنه ليس مجرد مصادفة أن تتحول لندن إلى مركز لنشاطات عربية متنوعة، وأن تشهد المدن البريطانية كمّاً كبيراً من المناسبات الثقافية والفنية والفكرية العربية، وأن تظهر إلى حيز الوجود أعداد متزايدة من المنظمات العربية.

ثانياً: في تطوير صيغة مؤتمر الجالية العربية

من مراجعة أوراق المؤتمر منذ انعقاده للمرة الأولى، ومن مراجعة النشاطات التي قام بها، أجد اننا في حاجة إلى العودة إلى أسئلة لم تُحسم بعد، وهي متعلقة بتوصيف المؤتمر وببلورة هويته وشخصيته. ويأتي في مقدمة هذه الأسئلة ما يلي:

١ ـ هل المؤتمر هو مناسبة دورية وفكرية تنعقد كل سنة أو كل سنتين مرة، يجتمع فيها عدد من المعنيين بقضايا الجالية العربية لكي يتدارسوا بعض القضايا المتعلقة بها، ولكي يتخذوا بعض التوصيات تاركين لما هو موجود وقائم من المنظمات العربية الأخرى أمر تنفيذها إذا وجدت ذلك مناسباً؟ أم أن المؤتمر هو مؤتمر دائم لا تنتهي مهماته مع انتهاء اجتماعه السنوي والدوري، وإنما يستمر بعدها عبر ملاكات وهيئات محددة يُناط بها تنفيذ التوصيات التي جاءت في المؤتمر؟

٢ ـ إذا كانت مهمة المؤتمر مجرد لقاء دوري ومؤقت، فأين هو من الدعوات التي تتردد هنا، وفي أكثر بلدان الاغتراب حول ضرورة إقامة هيئات تمثل الجالية العربية، وترعى مصالحها، وتساهم في خدمة القضايا العربية بريطانياً وعالمياً؟ كيف يكتسب المؤتمر صفته التمثيلية التي تخوله النطق باسم الجالية عندما يكون الأمر متعلقاً بالعرب ككل؟

٣ ـ إذا كان للمؤتمر صفة الديمومة والاستمرار، فكيف تتأمن هذه الديمومة؟ هل تكون عبر لجنة متابعة منبثقة عنه؟ كيف يكون اختيار هذه اللجنة؟ وما هي المهمات المناطة بها؟ هل تكون عبر تنفيذ ما تستنسبه من توصيات صادرة عن المؤتمر؟ أم تنفيذ مقررات المؤتمر باعتبار أن لها طابعاً إلزامياً، وعلى أساس أن للجنة صفة تنفيذية فحسب؟

سوف أحاول هنا تقديم بعض الإجابات العامة بصدد توصيف المؤتمر، وما يتأسس على ذلك من طبيعة عمله وتركيبه ونمط نشاطاته وعلاقاته مع مؤسسات عربية أخرى في بريطانيا، آملاً أن يكون ذلك مدخلاً إلى نقاش أولي وإلى مقترحات محددة يستفاد منها في المستقبل. إن هذه الورقة لا تتوخى تقديم مشاريع دساتير أو لوائح داخلية لمؤتمر الجالية العربية ولكنها تقدم، كما قيل أعلاه، بعض الملاحظات والمقترحات فحسب، وهي تنصبّ على رسم الخطوط العامة لصيغتين لتطوير مؤتمر الجالية العربية.

- المؤتمر لقاء فكري دوري ينعقد مرة كل عام أو عامين، وفي موعد محدد.

- ينظم المؤتمر مكتب جامعة الدول العربية والنادي العربي في المملكة المتحدة.

- تقدم في المؤتمر دراسات فكرية وأكاديمية حول أوضاع الجالية بأمل الخروج بمقترحات وتوصيات لتحسين أوضاع الجالية وتطوير العلاقات العربية - البريطانية.

- من أجل تعزيز الفائدة من هذه الدراسات فإنه من المفضل أن تركز كل مرة على موضوع محدد بأمل إعداد «ملف» حول إحدى القضايا التي تهم الجالية العربية، وأن يسبق تحديده مسح مراجع (ببليوغرافيا) بهدف معرفة البحوث والدراسات المتوفرة حول الموضوع - هذا إذا كانت موجودة أساساً - كي لا تتكرر.

- المؤتمر نفسه ليس أداة تنفيذية للمقترحات والتوصيات التي تصدر عنه طالما انه ندوة فكرية فحسب، وإنما يتقدم بها إلى الجهات الرسمية والأهلية المعنية بقضايا الجالية العربية في المملكة المتحدة لكي تتولى تنفيذها أو تنفيذ البعض منها إذا رغبت في ذلك.

- المؤتمر مفتوح لأي مشترك يرغب في الاشتراك في أعماله ويدفع بدل الاشتراك.

تنظم المؤتمر لجنة تحضيرية يجري تشكيلها وفقاً لواحدة من الطريقتين التاليتين:

● لجنة المؤتمر هي لجنة من لجان النادي العربي التابعة للجنة التنفيذية. المسؤول عن اللجنة هو عضو في اللجنة التنفيذية، مثل أي مسؤول عن اللجان الأخرى للنادي. ويعتبر المؤتمر نشاطاً من أنشطة النادي التي تنظم بصورة مشتركة مع بعثة جامعة الدول العربية في المملكة المتحدة.

● اللجنة التحضيرية هي لجنة مستقلة تشكل بصورة مشتركة من قبل اللجنة التنفيذية للنادي العربي وبعثة جامعة الدول العربية.

ـ ضماناً للتنسيق بين النادي والمؤتمر، وضماناً لاستفادة المؤتمر من خبرات النادي وقدراته، وتأكيداً لمسؤولية النادي العربي في التحضير للمؤتمر يتم الاتفاق بين الجهتين المنظمتين للمؤتمر، أي النادي العربي وبعثة جامعة الدول العربية على أن يمثل النادي العربي بنسبة معينة من أعضاء اللجنة التحضيرية يختارهم لتمثيله فيها، كذلك تمثل بعثة جامعة الدول العربية بعدد من العاملين فيها في اللجنة التحضيرية. وللجنة بعد تشكيلها أن تضم إلى عضويتها عدداً محدداً من الأفراد إذا وجدت أن هذا الترتيب سوف يساعدها على تحقيق غايتها.

ـ مهمة اللجنة تنتهي بانتهاء عمل المؤتمر، حيث يعاد تشكيلها من جديد من قبل النادي العربي وبعثة جامعة الدول العربية في المملكة المتحدة.

إن هذا التوصيف هو الأقرب إلى واقع المؤتمر الراهن. وفائدته أنه يضع أسساً أوضح لعمله، ويزيل بعض الالتباسات حول طبيعة نشاطه ولا يكون امتناعه عن الاضطلاع بمهام تقع خارج نطاق عمله سبباً لخيبة أمل أولئك الذين يُخطئون في تفسير صفته الرئيسية كملتقى فكري فحسب، وليس كأداة تنفيذية لما يدور فيه من أفكار ومقترحات وتطلعات. كذلك فإن هذا التوصيف يحسم الجدل حول طبيعة المؤتمر ويزيل الالتباس حوله ويترك الباب مشرعاً أمام من يملك الرغبة والقدرة على تأسيس هيئة تمثل الجالية لطرق هذا الباب. هذا بالطبع ما لم تكن هناك رغبة في أن يتولى المؤتمر نفسه تأسيس مثل هذه الهيئة عن طريق تبني الصيغة الثانية البديلة.

المؤتمر هيئة مستقلة ودائمة تتولى تمثيل الجالية العربية، ورعاية مصالحها وبلورة مطالبها وحاجاتها ودعم القضايا العربية في بريطانيا، وتساهم في تطوير العلاقة بينها وبين البلدان العربية.

تتأسس هذه الهيئة وفقاً لواحد من المنهجيْن التاليين:

١ ـ المؤتمر هو هيئة للتنسيق بين المنظمات العربية غير الحكومية الموجودة في بريطانيا.

ـ يتشكل المؤتمر من مندوبين عن المنظمات العربية غير الحكومية في بريطانيا التي تسدد اشتراكها للمؤتمر وتلتزم بأهدافه العامة.

ـ للجنة التحضيرية للمؤتمر أن تضيف إلى عضوية المؤتمر نسبة ضئيلة من الأشخاص (٥ ـ ١٠ بالمئة) الذين لا يمثلون جمعيات أو منظمات معينة، ولكنهم يضافون بسبب أهمية مساهمتهم الشخصية في نشاط الجالية.

ـ يحدد المؤتمر سياسته العامة ويختار لجنة تنفيذية لكي تتولى تطبيق هذه السياسة.

يتسم تشكيل اللجنة التنفيذية للمؤتمر بأهمية خاصة، حيث إنها هي التي ستمارس عملية التنسيق بين المنظمات العربية في بريطانيا. ولسوف يصطدم تكوين اللجنة التنفيذية بعقبة تتمثل في تفاوت حجم وأهمية المنظمات العربية في بريطانيا، إذ انها لا تتساوى من حيث سعة التمثيل ونوعيته والفعالية. بعض منها نشيط وواسع العضوية والتأثير وبعض آخر له وجود محدود، وقد يكون شكلياً أحياناً. فإذا أعطي النوعان من المنظمات الحقوق نفسها في تشكيل هيئة التنسيق وتحديد مسارها وأعمالها، تمنح المنظمات الصغيرة حجماً قد لا تستحقه، وتحجم المنظمات النشيطة والأوسع قاعدة بين أبناء وبنات الجالية. وقد لا يثير هذا الواقع رد فعل سلبياً لدى النمط الثاني من المنظمات، إذا كان المؤتمر شكلياً وغير فاعل؛ ولكن إذا تحول المؤتمر إلى هيئة لها تأثيرها في حياة الجالية العربية في بريطانيا فإن قضية مساواة المنظمات الكبيرة بالمنظمات الصغيرة سوف تثير إشكالات والتباسات تؤثر في استمرار المؤتمر.

وإذا حاول المبادرون إلى تشكيل هيئة التنسيق فرز المنظمات من حيث أهميتها وأهليتها لعضوية اللجنة التنفيذية، اصطدموا بصعوبات عملية منها مثلاً أنه قد لا يكون سهلاً الاتفاق على الأسس التي يجري بموجبها تصنيف المنظمات التي تستحق الانتساب إلى هيئة التنسيق دون غيرها. إضافة إلى ذلك فإن المنظمات الصغيرة التي لا تُعطى الحق نفسه في الاشتراك في اللجنة التنفيذية على المستوى نفسه مع المنظمات الكبيرة قد تتحول إلى مناهضة عملية التنسيق أساساً، وتمارس طعناً في أهلية الهيئة المنبثقة عنها إلى النطق باسم الجالية.

وتأمل الصيغة المقترحة لعضوية اللجنة التنيفيذية في معالجة هذا الإشكال عبر قيام اللجنة التحضيرية للمؤتمر ببلورة أسس واضحة ومقبولة، على رغم الصعوبة المشار إليها أعلاه، للمنظمات الرئيسة التي ينبغي ضمان تمثيلها في اللجنة التنفيذية.. ويمكن ضمان هذا التمثيل إذا تشكلت اللجنة التنفيذية وفقاً لواحدة من الطريقتين التاليتين:

أ ـ تتشكل اللجنة التنفيذية من نوعين من الأعضاء:

ـ من مندوبين عن بعض الجمعيات العربية الرئيسة مثل الجمعيات العربية الوطنية (المصرية، السورية، اللبنانية، الفلسطينية الخ...)، وبعض المنظمات المهنية العربية، إضافة إلى النادي العربي بحكم دوره في عقد مؤتمر الجالية العربية.

ـ عدد محدد من أعضاء المؤتمر يمثلون المنظمات الأخرى يجري انتخابهم عن طريق الاقتراع. هذه الصيغة المقترحة تضمن تمثيل المنظمات الرئيسة في اللجنة، كما تفسح في المجال أمام الجمعيات الصغيرة لدخول اللجنة التنفيذية عبر الانتخاب.

ب ـ تمثل في اللجنة التنفيذية المنبثقة عنه المنظمات التي تمتلك مواصفات موضوعية مثل:

ـ لها من العمر ٥ سنوات وما فوق.

ـ أن تكون مسجلة لدى الدوائر الرسمية البريطانية.

ـ أن تضم مئة عضو فأكثر.

الطريقتان المشار إليهما أعلاه لن توفرا حلاً حاسماً لمسألة التمييز بين المنظمات العربية الرامية إلى ضمان تمثيل المنظمات الرئيسة التي تملك وزناً فعالاً ومواصفات تسمح لها، في حال اجتماعها، بالنطق باسم الجالية ورعاية مصالحها.

٢ ـ المؤتمر هيئة منتخبة من الجالية العربية في بريطانيا.

ـ تُشكل لجنة تحضيرية يكون عملها إعداد مؤتمر الجالية العربية، أي إنجاز مهمتين رئيستين هما:

■ تنفيذ عملية انتخاب المؤتمر عبر الخطوات التالية:

- الحصول على إحصائيات من الدوائر البريطانية المختصة عن العرب المقيمين في بريطانيا وعلى مناطق إقامتهم.

- تقسيم المملكة المتحدة إلى مناطق بحسب وجود العرب فيها.

- تحديد عدد أعضاء المؤتمر في كل منطقة.

- تعيين مندوب حلقة اتصال (Contact Person) في كل منطقة لتنظيم العملية الانتخابية بمساعدة من يقع عليه الاختيار من المقيمين فيها.

- تخصيص مراكز الاقتراع في أماكن قريبة لتجمعات الجالية العربية.

- الإعلان عن العملية الانتخابية عبر وسائط الإعلام العربية والسفارات ومراكز تجمعات الجالية (الجمعيات المدنية، المراكز الدينية، المدارس الخ...).

- تنظيم حملات توعية من أجل ضمان إشراك أوسع عدد من المقيمين والمقيمات في اختيار مؤتمر الجالية.

- الإشراف على عملية الاقتراع.

■ التحضير للمؤتمر وإعداد جدول أعماله الذي يركز على البنود الرئيسة التالية:

- مناقشة وإقرار نظام أساسي لهيئة مؤتمر الجالية العربية.

- مناقشة وإقرار وثيقة استراتيجية تحدد السياسة التي سوف يتبعها المؤتمر من أجل تنفيذ أهدافه.

- انتخاب لجنة تنفيذية للمؤتمر.

من بين الخيارات والبدائل التي استعرضتها هذه الورقة، فإن هذا البديل الأخير هو في تقديري الخيار الأصح، لأنه يوفر حلاً لإشكالات متعددة جرت الإشارة إليها في الورقة مثل إشكالية التمييز بين المنظمات الصغيرة والكبيرة. ثم إن تحويل المؤتمر إلى هيئة منتخبة يؤكد طابعه التمثيلي للجالية العربية، وخصوصاً إذا نجحت اللجنة التحضيرية بضمان مشاركة واسعة في الانتخابات. كذلك فإن هذا الخيار الأخير يضع أفراد الجالية أمام مسؤولياتهم، وينمي عندهم حس المبادرة والمشاركة في الحياة العامة، ويساهم في إنقاذ الجالية من ظاهرة سلبية بدأت تهيمن على نشاطاتها، وهي تمحور هذه النشاطات في بيئات محدودة وبين عدد قليل من الأشخاص، مقارنة بعدد

أفراد الجالية الذي يصل إلى نصف مليون تقريباً من العرب.

لقد طرحت فكرة الخيار الانتخابي غير مرة، وكانت موضع جدل وتساؤلات. ولا ريب في أن عدداً من هذه التساؤلات في محله، إلا أنها في بعض الأحيان سلكت طريقاً لا يتناسب مع الحاجة إلى المناقشة الهادئة لهذه الفكرة. فالانتخابات ليست شيئاً جديداً على المنظمات العربية في بريطانيا، وحتى لو كانت شيئاً جديداً على هذه المنظمات، فإن تطبيقها في إطار المؤتمر سوف يكون فرصة مهمة من فرص تعويد العرب على الممارسات الديمقراطية وتأصيلها بينهم، إذا كانوا أساساً يمارسونها في مجالات أخرى. ثم إن الخيار الانتخابي ينسجم مع التوصيات المتكررة التي صدرت عن المؤتمرين الأول والثاني، والتي تتكرر في مجالات متعددة حول ضرورة توسيع مساهمة المقيمين العرب في الحياة العامة في بريطانيا، وهي مساهمة تتمحور حول الإفادة من الحقوق الديمقراطية التي يبيحها القانون للمواطنين، والمشاركة النشيطة في المناسبات الانتخابية المتنوعة التي تمر بالمجتمع. ولسوف يكون صعباً أن تنخرط الجالية العربية انخراطاً حقيقياً في المؤسسات والحياة العامة البريطانية التي تحكمها المبادئ الديمقراطية، من دون أن تطبق الجالية في حياتها الداخلية مثل هذه المبادئ.

الفصل الرابع عشر

تمويل الجالية العربية

محمد المسيبي(*)

مقدمة

لا يختلف اثنان في صحة المقولة السائدة إن المال عصب الحياة وإنه إحدى الوسائل الأساسية لتنفيذ أي عمل أو مشروع وضمان استمراره. وعليه، فإن إقامة أو تنفيذ ونجاح أي عمل مهما كان يتطلب دعماً مالياً منتظماً ومضموناً.

وموضوع تمويل مشاريع الجالية العربية في بريطانيا ليس بغريب عن المقيمين في هذه الديار. فهو أحد التحديات التي تواجه تقدم وتطور سير عمل الجالية في مواطن كثيرة. فتمويل مشاريع الجالية أصبح بمرور الزمن وتشعب العمل وتزايد طلبات المستفيدين يسبب هماً وقلقاً لدى المهتمين في أوساط الجالية. فالمهتمون والناشطون من العرب والمسلمين المقيمين في بريطانيا يعملون بجد ومثابرة من أجل الحفاظ على هوية وتراث ولغة الجيل الناشئ في بلاد الغربة.

وهذه الجهود الكبيرة التي تبذل في هذا المضمار يعوقها الكثير من الصعوبات والتحديات، ومن أهمها الاستفادة من تمويل منتظم ومضمون. فمصادر التمويل التقليدية (الدوائر الرسمية البريطانية) تتقلص يوماً بعد يوم.

(*) مسؤول التنمية الاجتماعية الأسبق لدى السلطة المحلية لمنطقة طدلي ـ وسط غرب انكلترا، والمدير التنفيذي بأمانة معاذ الخيرية في برمنغهام سابقاً.

إضافة إلى ذلك، فإن ندرة مصادر التمويل ترجع إلى عدة أسباب، لعل بعضها يعود لقلة الخبرة في هذا المجال لدى القائمين على خدمة الجالية.

وهذه الورقة ليست إلا محاولة للإشارة والتعريف ببعض مصادر التمويل الممكن الاستفادة منها. وعليه فأود التنويه إلى أنه يجب ألا تستخدم كدليل شامل ودائم، فهي ليست شاملة إنما حصرت كل مصادر التمويل الممكنة، كما أنها ليست مستفيضة ومتوسعة إنما غطت المناطق المتعددة في المملكة المتحدة ومراحل التمويل الزمنية. فمن المعلوم أن لكل سلطة محلية ـ بلديات وغيرها ـ برامج عملها وموازناتها المالية التي تغطي نفقات خطط عملها الزمنية. فهذه السلطات ليست كلها متطابقة، كما أن جانب التمويل هنا يخضع لعدة عوامل وحقائق واقعية قد لا تكون مذكورة في اللوائح الرسمية (مثال ذلك النفوذ والثقل السياسي الذي قد يوفر حظاً أكبر في جانب التمويل). كما أن هناك عوامل اقتصادية تؤثر في مستوى واستدامة التمويل، فبعض السلطات المحلية يعاني عجزاً ونقصاً في موازناته، ونتيجة لذلك يخضع مستوى التمويل هنا لطبيعة المشروع المراد تمويله وانسجامه مع خطة السلطة المحلية.

كما تجدر الإشارة إلى أن هناك برامج والتزامات معينة تختلف من منطقة لأخرى، إضافة إلى تغير الشروط والمواصفات والمواعيد لتنفيذ هذه البرامج. ومع مرور الزمن وتجدد مصادر التمويل وتغير اللوائح والبرامج يجب الاطلاع على كل ما هو جديد في حينه والاستفسار عن كل ما يستجد في هذا الجانب من الهيئات المعنية والتي أوردناها في الصفحات الأخيرة من هذه الورقة.

مصادر التمويل المعهودة

استفاد العديد من المنظمات والتجمعات القائمة على خدمة الجالية من مصادر تمويلية متعددة أهمها[١]:

- الأوقاف الإسلامية.
- مصارف الزكاة.
- التبرعات والهبات التي يقدمها المتعاطفون.

(١) لا تعد هذه المصادر شاملة، فقد يكون هناك مصادر أخرى لم يتسنَّ للكاتب الإشارة إليها.

- الإيرادات الذاتية التي تحققها المنظمات من خلال خدماتها وفعالياتها ومرافقها.

- مصادر الدعم الرسمي البريطانية.

- الدعم الذي تقدمه المؤسسات الخيرية البريطانية.

- التمويل الأوروبي.

١ ـ الأوقاف الإسلامية: الأوقاف الإسلامية من أفخر مظاهر الحضارة والمدنية التي ساهمت في رقي الأمة عبر العصور. كما استفادت جموع المسلمين عبر التاريخ من هذا المصدر الذي يعد أعظم وأرقى مصادر الدعم لجميع المشاريع الخيرية في كل بقاع الأرض. وللأسف فقد أهمل هذا المصدر ولاقى الكثير من الاستغلال وعدم الجدية في إدارته بأسلوب يتماشى مع الزمن والاحتياجات المتجددة. ومؤخراً أصبحت الأوقاف الإسلامية خاضعة للوائح وصلاحيات وزارات الأوقاف والشؤون الدينية في البلدان العربية والإسلامية، والتي تسخّر أموال وإيرادات الأوقاف ـ في معظم الأحيان ـ لتغطية الاحتياجات المحلية. وعلى رغم صواب هذه السياسة إلا أن هناك بعض أهل الخير يوقفون مشاريع تجارية لتمويل أخرى خيرية في بلاد الغرب لإدراكهم بأهمية ذلك وفوائده البعيدة. وعليه فإن هذا المصدر يخضع للتعرف على مثل هؤلاء وإقناعهم بجدوى وخيرية تمويل المشروع المعني.

٢ ـ مصارف الزكاة: ليس هناك من شك في أن هذا المصدر كفل للأمة والبلدان الإسلامية رفاهية لا تضاهى، وأفاد مجتمعات من غير المسلمين لحقب طويلة من الزمن. فالزكاة فرض إلهي لا يحتمل العبث أو المماطلة أو الحيلة، كما أنه يتطلب إخراجه في وقته من دون تأخير، فهو حق الله في رزقه الذي وهبه لعباده. فالزكاة إذاً ليست صدقة يتكرم بها الموسر على غيره أو يمنّ بها على المجتمع.

ومصارف الزكاة معروفة ومقيدة بلفظ القرآن الكريم، إلا أن هناك خلافاً فقهياً حول تعريف سمات ومصارف «في سبيل الله». فبعض الفقهاء أوصى بصرف الزكاة على كل ما هو خيري يعود بالنفع على المجتمع بشكل عام، وبناء عليه يمكن تمويل المشاريع الخيرية الضرورية للمسلمين خارج البلاد الإسلامية من مدارس ومراكز اجتماعية وغيرها، بحيث تكفل لهم الحفاظ على هويتهم وتراثهم ودينهم.

وفي الوقت الراهن يقوم بعض المؤسسات الخيرية والإغاثية كالإغاثة الإسلامية والعون الإسلامي وغيرهما بجمع أموال الزكاة وصرفها في مصارفها المحلية في بريطانيا، وكذلك في مناطق متعددة من أقطار العالم. وعليه فمن الممكن الاستفادة من هذا المصدر بحسب الحاجة.

٣ ـ التبرعات والهبات التي يقدمها المتعاطفون: وهذا مصدر لا يمكن إهماله أو الاستغناء عنه، فبعض الموسرين من رجال الأعمال وغيرهم يجود بتبرعات وهبات كبيرة تصل إلى الملايين، طالما وجدت لديه اقتناعات بجدوى المشروع وانسجامه مع ميوله الشخصية. وهناك أمثلة كثيرة على هذا لا تخفى على المقيمين في هذه الديار.

٤ ـ الإيرادات الذاتية التي تحققها المنظمات من خلال خدماتها وفعالياتها ومرافقها: يحقق بعض الهيئات والمراكز إيرادات لا يستهان بها من جراء تقديم خدماتها (من تدريس وخدمات عامة وغيره) وفعالياتها التي تجتذب عدداً متزايداً من المشاركين الذين يسعون لإثراء حياتهم الاجتماعية، والتسلية التي يستمتعون بها في هذه الفعاليات. كما أن بعض المنظمات يقوم بتسويق مرافقها التي تدر عليها إيراداً منتظماً يعينها في تحقيق استقلاليتها وتغطية نفقاتها الإدارية.

الجدير بالذكر أن تقليد «الحفلات الخيرية» يوفر فرصاً ثمينة ونادرة لكسب تعاطف وصداقة الموسرين وجني تبرعاتهم السخية. ويحقق مثل هذه الفعاليات نجاحاً لا نظير له، ولا سيما إذا ما هيأت الظروف لدعوة أصحاب الشهرة من اللامعين في دنيا الفن أو الفكر أو السياسة أو الرياضة، والذين تضيق القاعات بمعجبيهم وتتسابق الأيدي للعطاء بسخاء في حضورهم.

٥ ـ مصادر التمويل الرسمية البريطانية:

السلطة المحلية (The Local Authority).

سلطة الصحة المحلية (The Local Health Authority).

مؤسسات أخرى حكومية.

التمويل الأوروبي (European Funding).

(أ) السلطة المحلية

وتضم عدداً من الإدارات المانحة للدعم المالي أهمها:

- **سلطة التعليم المحلية** *(Local Education Authority)*: التي تقدم دعماً مالياً لقاء تعليم اللغة الأم لأبناء الأقليات العرقية (Ethnic Minority Support Unit) من خلال إدارة دعم الأقليات العرقية، والتي لها وجود في كل السلطات التعليمية في جميع مقاطعات المملكة المتحدة، إلا أن دورها وبرامج عملها قد يختلف من منطقة لأخرى، وكذلك مستوى دعمها لمشاريع الجالية. ويتراوح هذا الدعم من كفالة مرتبات مدرسي اللغة الأم للمستفيدين خلال إجازة نهاية الأسبوع، إلى تقديم منحة مالية سنوية محددة تحصل عليها المنظمات والتجمعات المسجلة لديها.

- **إدارة الترفيه وخدمات المجتمع** *(Department of Leisure and Community Services)*: وهي تضم عدداً من الإدارات التي تقدم الدعم للأنشطة والخدمات المتعلقة بالترفيه والتسلية والرياضة والأنشطة الشبابية كالرحلات والمخيمات والاحتفالات وغيرها. والجدير بالذكر أن الأنشطة النسوية على وجه التحديد تحظى بقسط كبير من الدعم والتشجيع أيضاً، لوجود مفهوم مفاده أن نساء الأقليات العرقية يعانين الحرمان في مجال التسلية والترفيه والرياضة لأسباب عدة.

- **إدارة الخدمات الاجتماعية** *(Social Services Department)*: وتقدم الدعم المالي والعيني للخدمات ذات الطابع الاجتماعي من أنشطة لرعاية المسنين وأنشطة تعنى بتطوير مهارات وقدرات النساء وتجنيبهن معاناة العزلة. ويجب التنويه هنا إلى أن هذا الباب يخضع لتفسيرات واسعة، والمهم هو إقناع الموظف المختص باستحقاق المستفيدين للدعم المطلوب.

- **إدارة التنمية الاقتصادية:**

وتعتبر من أكبر الإدارات، وتقوم بدعم العديد من البرامج ذات الصلة بالتنمية الاقتصادية، ومن ذلك ما يلي:

- المشاريع التجارية والمهن الحرة للمبتدئين، ويتضمن هذا تحمل نفقات التدريب اللازمة في مجال إدارة العمل الحر ودراسات الجدوى وغيرها، وكذلك تحمل أجور أو بعض مرتبات العمل لمدة محددة ولا سيما إذا كانوا عاطلين عن العمل قبل ذلك.

- دعم المشاريع التجارية التي تقوم بتنفيذها المؤسسات والمراكز الخيرية والتطوعية.

- دعم الجهود والبرامج المعنية بمكافحة البطالة.

- **إدارة البيئة** *(Department of the Environment)*: وتقدم الدعم للمشاريع ذات الصلة بالبيئة، وهذا بالطبع يغطي مساحة واسعة تتراوح من الاقتصاد في استعمال الطاقة من كهرباء وغاز، والتي تشمل تحسين المباني بحيث تتلاءم مع مستويات ومميزات صحة البيئة وإجراءات الأمن والسلامة، إلى ترميم النوافذ والسقوف بحيث يتم التمكن من الاقتصاد في استخدام الطاقة.

هذا ويدخل في إدارة البيئة - كغيرها من الإدارات الأخرى - أقسام وإدارات مختلفة تقوم بدعم برامج أخرى. فعلى سبيل المثال هناك قسم يعنى بشؤون المحافظة على المباني والمرافق التراثية المسجلة (Listed Buildings) ويقدم دعماً للقائمين عليها لتمكينهم من الحفاظ على مستواها المعماري وترميمها بحسب الضرورة.

- **البرامج الإنمائية الخاصة بالمناطق المحرومة والتي تعاني ارتفاعاً في نسبة البطالة** (*SRB: Single Regeneration Budget*):

وتتركز هذه البرامج في المناطق والأحياء الداخلية من المدن الكبيرة على وجه التحديد. وتحظى هذه الأحياء بمستوى جيد من التمويل بغرض تحسين مستوى المعيشة فيها من نواحٍ عدة، منها:

- برامج التدريب والتأهيل لتحسين فرص العمل لدى السكان.

- برامج تحسين البيئة بترميم المباني المتضررة وإزالة المخلفات الصناعية والمضرة بالبيئة، وكذلك تحسين المناظر الجمالية والخضرة كالحدائق المحلية وغيرها.

- دعم المهن الحرة والمشاريع التجارية والصناعية في المنطقة.

- الجدير بالذكر - كما سبق التنويه من قبل - أن لكل منطقة برامجها التنموية وخطة عملها وموازنتها المالية، وعليه يجب الاستفسار عن برنامج عمل هذه الإدارة إن وجدت في منطقتك.

(ب) سلطة الصحة المحلية

إن لكل سلطة صحة محلية صلاحياتها وبرامج عملها وموازنتها المالية

بحسب ظروف وحجم المنطقة التي تخدم فيها، كما أن تبني سياسة إشراك سكان منطقة في خدمتها، وجعلهم شركاء لها في تبني السياسات العامة للخدمات الصحية، أصبح من التوجهات الهامة التي تدعمها الحكومة.

وهنالك برامج تقوم السلطات الصحية بدعمها بسخاء. فعلى سبيل المثال برامج التوعية الصحية ومكافحة التدخين والمخدرات في أوساط الأقليات العرقية والتوعية في ما يخص مرض نقص المناعة (الإيدز AIDS).

كما أن هناك توجهاً لدعم تجارب وممارسة «الطب البديل» كالتداوي بالأعشاب والعلاج الطبيعي كالوخز بالإبر وغيره. وبالتالي فهناك مرونة لدى السلطات الصحية تسمح لها بتمويل بعض المشاريع التي تنسجم مع خطتها العامة التي تهدف لنفع المجتمع بشكل عام.

وتجدر الإشارة إلى أن قطاع الصحة قطاع واسع ومتعدد الإدارات والصلاحيات، وعليه فمن الأفضل التعرف على إداراته ومجالات عملها قبل تقديم أي طلب للدعم.

(ج) مؤسسات حكومية أخرى

مجلس التدريب والمهن الحرة *(Training and Enterprise Council (TEC))*

تقوم الحكومة بدعم هذا المجلس الذي له فروع في جميع المدن والمناطق البريطانية التي تعنى بتنمية مجالات التدريب والتأهيل، وخصوصاً في الميادين المهنية والخدمية والمهن الحرة. ولكي تنفذ خططها وبرامجها تقوم هذه المجالس بدعم الهيئات الخيرية والمراكز التطوعية والمنظمات التعليمية، والتي بدورها تتعاقد مع المجالس لتنفيذ برامج تأهيلية للمستفيدين. من هذه البرامج تعليم اللغة الإنكليزية والكمبيوتر وغيرها.

كليات التعليم المستمر *(Colleges of Further Education)*

بعد أن قامت الحكومة البريطانية بتغيير نظام تمويل الكليات التعليمية في عام ١٩٩٤، ومنحتها استقلاليتها المالية وصلاحياتها الإدارية، كان من ضمن التوجهات الجديدة للكليات السعي بجد ومنافسة من أجل ضم أكبر قدر ممكن من الطلاب كي تحصل على مستوىً أعلى من التمويل. فكلما زاد عدد الطلاب المنتسبين بالكلية، ارتفع قدر التمويل بالنسبة ذاتها.

ومن هنا تنافست ـ ولا تزال ـ الكليات في اجتذاب منظمات الجاليات

والأقليات والهيئات التطوعية وتمويل براجمها التعليمية والتأهيلية للمستفيدين من أعضائها. والجدير بالذكر أن هذا المجال شجع على استغلال النظام من الطرفين، وحدثت مخالفات كبيرة أتلفت أموالاً طائلة، بسبب أن التجربة لا تزال جديدة، ولم تكن قد استُخدمت أنظمة مراقبة وتدقيق.

شروط تمويل البرامج التعليمية المشتركة مع الكليات

تتنوع شروط عمل الشراكات من كلية إلى كلية. فبعض الكليات يعاني نقصاً في عدد الطلاب المنتظمين به ولديه وحدات تعليمية وتمويلية فائضة، وبالتالي فهو في وضع يضطره للبحث عن شركاء ممن لديهم عدد كبير من الطلاب الذين يمكن ضمهم لسجلات الكلية بينما هم يتلقون برنامجهم التعليمي في مركز جاليتهم أو مسجدهم... وهكذا تستفيد الكلية ومؤسسة الجالية والطلاب في آن واحد.

وهناك نوع آخر من الكليات يلاقي إقبالاً من الطلاب ولا توجد لديه «وحدات» فائضة، وبالتالي فكلية في هذا الوضع لا تجد حاجة إلى البحث عن شريك آخر. ولكن لأسباب سياسية واجتماعية يحرص بعض الكليات أن يبرز مساهماته مع الجاليات والأقليات فيقوم بدوره بعقد شراكة ما مع مؤسسة للجالية لهذا الغرض.

أهم الشروط الرئيسة المطلوب توافرها لدى شركاء الكليات هي:

- أن تكون أعمار الطلاب في السادسة عشرة أو فوق ذلك.

- أن يكون البرنامج التعليمي موصلاً لمؤهل معترف به كالثانوية العامة (GCSE) أو المستوى المتقدم (A Levels)، فمثلاً يمكن تعليم اللغة العربية والدراسات الإسلامية ضمن هذا البرنامج، أو في المؤهلات المهنية (Vocational Qualifications)، مجالات الكمبيوتر، الهندسة بجميع مجالاتها، الفنون أو التطريز والحياكة وقص الشعر والتجميل وغير ذلك على سبيل المثال.

- أن يتم تنفيذ البرنامج التعليمي في مكان عام كالمراكز الثقافية والتعليمية والاجتماعية والمساجد وغيرها (على الرغم من أن بعض الناس هنا في برمنغهام يتولون التعليم في منازلهم أو في دكاكين ضيقة في الأحياء التي تقطنها الأغلبية من الجاليات الآسيوية).

- أن تتوفر إجراءات الأمن والسلامة المتعلقة بسلامة المستخدمين كونهم

مسجلين بصفتهم طلاباً منتسبين للكلية.

ـ أن تلتزم المنظمة الشريكة بتدوين ومتابعة الواجبات الإدارية وموافاة الكلية بتقارير دورية عن سير البرامج وانتظام الطلاب. هذا وقد يستحدث بعض الكليات شروطاً إضافية، أو قد يتغاضى عن بعض هذه الشروط بحسب وضعه ومفاوضته مع المنظمة الشريكة.

المزايـا الماليـة

تختلف المزايا المالية بحسب اتفاقية الكلية مع المنظمة الشريكة بعد إجراء المفاوضات. لكن يمكن القول إن التمويل قد يشمل التالي:

ـ مبلغ مالي محدد لقاء استخدام المرافق من فصول دراسية ونفقات تدفئة وإضاءة ونظافة وصيانة.

ـ مرتبات وأجور العاملين من أساتذة وإداريين.

ـ نفقات دعاية وإعلان وتسويق.

ويقدم بعض الكليات تمويله بحسب عدد الوحدات التي يحققها كل طالب. فمثلاً طالب الدوام الكامل يحقق وحدات دراسية وتمويلية أكثر من طالب الدوام الجزئي. الوحدة الدراسية الواحدة تحقق ما يعادل ١٥ جنيهاً، ويتم بحسب مجموع الوحدات التي تقوم الكلية بتمويلها. تقوم الكليات بدورها بمطالبة مجلس التعليم عادة بخصم نفقاتها الإدارية أو حصتها من ذلك وتسدد المتبقي للمنظمة الشريكة.

الهيئة الوطنية لليانصيب الخيري *(National Lottery Charity Board)*

وتعتبر هذه المؤسسة التي تشرف عليها الحكومة من أكبر الهيئات غير الحكومية المساهمة في تمويل المشاريع المختلفة في بريطانيا. فهي تنفق ما يقرب من ٣,٤ بالمئة من صافي أرباح اليانصيب في تمويل البرامج المتنوعة والتي تشمل:

ـ الفنون بجميع أشكالها.

ـ الرياضة والشباب.

ـ التنمية الاجتماعية.

ـ الحفاظ على مظاهر التراث كافة ـ ويدخل في هذا الحفاظ على المباني التراثية.

ـ تنمية قدرات ومهارات ومستوى القطاع التطوعي، ويدخل ضمن هذا التدريب والتأهيل وتزويد المنظمات التطوعية بالأجهزة والمعدات الإدارية الحديثة.

ـ برامج الحفاظ على البيئة.

ـ البرامج الدولية والتي تتضمن إقامة أعمال تنموية مشتركة بين منظمتين يكون مقر إحداهما في المملكة المتحدة والأخرى في بلد آخر، ضمن مجموعة دول الكمنولث أو الشرق الأوسط.

ـ برامج أخرى متنوعة تشمل تقديم المنح والدعم المالي للنابغين من الأفراد في مجالات متعددة.

هذا ويتم الإعلان عن تفاصيل ومواعيد تقديم طلبات الدعم في مواسم متعددة خلال العام.

(د) التمويل الأوروبي(٢)

تحظى مجتمعات دول مجموعة الاتحاد الأوروبي باستراتيجية مهمة تقضي بالعمل من أجل التكامل والتعاون فيما بينها من أجل رفع مستوى المعيشة لمواطنيها وتحقيق الرفاهية لهم في أوجه الحياة كافة. هذا بالطبع يشمل تحسين مدنها وقراها من كل ناحية، سواءً من ناحية الإعمار وتحسين مستوى الخدمات التي توفرها السلطات الحكومية لمواطنيها أو تحسين وإصدار اللوائح والأنظمة المتعلقة بالحفاظ على البيئة، والحد من البطالة، وتحسين فرص العمل، ووضع التسهيلات التي من شأنها إتاحة السبل والوسائل للمستفيدين.

ومن أجل تحقيق أهداف دول مجموعة الاتحاد الأوروبي أقيمت إدارات وصناديق تمويل تتبع الاتحاد الأوروبي، مهمتها الرئيسة هي تنفيذ استراتيجية الاتحاد لرفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والفني والبيئي لمجتمعات الدول الأعضاء.

---

(٢) انظر كتيب التمويل من الاتحاد الأوروبي: *Funding from the European Union* (London: European Commission, [n. d.]).

مصادر التمويل الأوروبي: يقوم الاتحاد الأوروبي بتحصيل نسبة محددة (في حدود ١,٢٤ بالمئة من إيرادات ضرائب القيمة المضافة عن عام ١٩٩٦)، إضافة إلى ذلك يقوم الاتحاد بتحصيل نسبة ١,٢٢ بالمئة من الدول الأعضاء، ونسبة أخرى من دخلها القومي وأخرى من إيرادات جمارك البضائع المستوردة من خارج دول الاتحاد الأوروبي. بعد ذلك يقوم الاتحاد بتوزيع هذه العائدات على الدول الأعضاء بنسب تتفق مع خطته التنموية وبرامجه المتنوعة.

خصوصيات التمويل الأوروبي: ١ ـ تمويل نسبة من التكلفة الإجمالية للمشروع المراد دعمه تصل إلى ٥٥ بالمئة على أن تتكفل المنظمة المتقدمة بالطلب بالنسبة المتبقية. هذا ما يسمى بالتمويل المماثل (Match Funding) وفي هذا الصدد يقوم معظم المنظمات بتقديم ما يسمى بالمثل العيني (In Kind) بمعنى أنها توفر نسبتها من تكلفة المشروع في صورة تتمثل في استخدام مرافقها مثلاً أو تسخير بعض أو كل عامليها لتنفيذ المشروع، وهكذا. المهم أن تحسب هذه بالأرقام.

٢ ـ التمويل الأوروبي بشكل عام يتطلب مهارات وخبرة فائقة في تقديم طلب التمويل وإدارة المشروع في حين نجاحه، حيث إن المنافسة كبيرة، وكثير من الطلبات لا يوفق في الحصول على التمويل.

٣ ـ يشكو كثير من المنظمات أن التمويل الأوروبي يجلب معه «صخب» أعمال مكتبية وأوراقاً واستمارات كثيرة ويستغرق كثيراً من الجهود والأوقات، وأن البيروقراطية زائدة عن المعقول.

٤ ـ يبقى التمويل الأوروبي مصدراً جيداً للمنظمات العاملة في حقل التعليم والتدريب والتأهيل.

وأهم هذه الصناديق الممولة لتلك المشاريع ما يلي:

ـ **صندوق التمويل الاجتماعي الأوروبي** *(European Social Fund: ESF)*:

ويختص هذا الصندوق بتمويل مشاريع التدريب والتأهيل للمستفيدين الذين أعمارهم في السادسة عشرة فما فوق. وضمن هذا البرنامج تجد تشجيعاً ودعماً متزايداً لمجموعات الأقليات والجاليات المهاجرة والعاطلين عن العمل بدول الاتحاد. كما يوجد برنامج دعم مالي ضمن هذا البند خاص بالمؤسسات الصناعية التي تحتاج لتحديث وتحسين طاقاتها الإنتاجية وتنمية مهارات العاملين على أسس حديثة: هنا أيضاً بنود تمويل ضمن هذا البرنامج تُعنى بشؤون تعليم اللغات الأوروبية والتعليم العالي والتعاون المتبادل بين

المؤسسات التعليمية والمدارس والجامعات وغيرها تحت اسم (سقراط: Socrates).

إضافة إلى ذلك هناك برنامج دعم مالي ضمن هذا البند خاص أيضاً بتهيئة فرص العمل للعاطلين. وهناك مواعيد محددة لتقديم طلبات التمويل خلال السنة يتم الإعلان عنها في المكاتب الاقليمية للحكومة المركزية (Government Office).

- **صندوق التنمية الاقليمية الأوروبي** *(European Regional Development Fund: ERDF)*:

هذا الصندوق معني بتمويل مشاريع تنموية في مناطق محددة من مدن الدول الأعضاء، وبخاصة تلك التي وُصفت بأنها فقيرة وبحاجة لإعادة تعميرها وتطويرها ودعم تنميتها الاقتصادية.

ويقدم هذا البرنامج تمويلاً يعتمد على قاعدة التمويل المماثل ذاتها - أي بنسبة تصل إلى ٥٥ بالمئة، على أن تتكفل المنظمة المتقدمة بالطلب بالنسبة المتبقية. وتتضمن بنود التمويل إجراء تحسينات عمرانية وشراء المعدات والأجهزة والآلات اللازمة لتنفيذ البرنامج، وكذلك نفقات تسيير وإدارة البرامج الإنمائية من تعليم وتدريب وتشغيل العاطلين عن العمل.

كما أن هناك برنامج دعم مالي ضمن هذا البند خاص بالمؤسسات التجارية والصناعية ذات الحجم الصغير والمتوسط: (Small and Medium Sized Business-SMBs).

كما تنطبق على هذا البرنامج - كغيره من برامج التمويل الأوروبي - الشروط والخصوصيات ذاتها المذكورة آنفاً مع حدوث بعض المتغيرات في التفاصيل والمواعيد.

وهناك برامج تمويل أوروبية أخرى مثل:

«ليوناردو» *(Leonardo)*:

يختص هذا البرنامج بتمويل برامج التدريب المهنية والفنية للشباب، كما يقوم بتغطية كل مجالات تشغيل وتأهيل العاطلين من الشباب، ويدخل ضمن هذا المجال تعلم اللغات الأوروبية والبحث عن عمل في دول الاتحاد.

بالإضافة إلى ذلك يغطي البرنامج الأنشطة الترفيهية والثقافية الشبابية بين التجمعات والمنظمات الشبابية الأوروبية. ويشمل التنقلات والرحلات والزيارات المتبادلة بين المنظمات والجماعات والأندية. ويغطي التمويل نفقات الرحلات والبرامج التثقيفية التي هي الغرض الرئيس للبرنامج ضمن التبادل الثقافي، وتعلم ثقافات ولغات وتاريخ مجتمعات الدول الأعضاء، كما يشمل البرنامج تشجيع مجالات العمل التطوعي في صفوف الشباب.

وعلى سبيل المثال يمكن أيّ جماعة شبابية عربية تنظيم رحلة تعارفية وثقافية وزيارة مجموعة أخرى ضمن دول الاتحاد، على أن يتم تقديم الطلب بصورة مشتركة. ويمكن تسمية المجموعتين بالشريكتين.

وهناك العديد من البرامج الأخرى التي ليس هنا مجال ذكرها لعدم انسجامها، ولكن نذكر بعض مجالاتها للفائدة العامة:

- برامج نقل الخبرات بين الاختصاصيين من أطباء ومحامين ومهندسين ومخترعين.

- برامج المنح الدراسية المتعلقة بالاتحاد الأوروبي ومجالات بحث الوحدة الأوروبية والاستراتيجية العامة للاتحاد.

- مجالات التوعية الصحية ودعم البحث الصحي في مكافحة الأمراض والأوبئة الخطيرة والمعدية.

- مجالات التنمية الاجتماعية.

- مجالات العمل والإبداع الفني من موسيقى ورسم ونحت وسينما ومسرح وغيرها.

- برامج التنمية الزراعية والثروة السمكية وحماية البيئة.

- برامج البحث الدراسي المعني بالسوق الزراعية والسمكية والتنمية الريفية.

- برامج السياحة ودعم مشاريع السياحة المتعلقة بالدراسات البيئية.

- برامج الرياضة بأشكالها كافة بين الدول الأعضاء.

ومن المعلوم أن الاتحاد الأوروبي يقدم مساعدات كبيرة لدعم مشاريع التنمية لجميع الدول النامية وبنسب مختلفة. كما أن هناك برامج خاصة لمناطق

محددة من الدول النامية، منها دول حوض البحر الأبيض المتوسط، وأفريقيا، وآسيا ودول شرق أوروبا، وأمريكا اللاتينية، ودول الاتحاد السوفياتي السابق.

الهيئات الخيرية البريطانية

هناك الآلاف من الهيئات الخيرية البريطانية التي تقدم منحاً ودعماً مالياً للأفراد والجماعات والمنظمات. معظم هذه الهيئات أسسها أفراد من أصحاب رؤوس الأموال ورجال الأعمال منذ زمن بعيد. ولحق بركب هؤلاء (من العرب) ـ بحسب العرف البريطاني ـ الناجحون من رجال الأعمال حديثاً أمثال محمد الفايد وسعيد رضا، وغيرهم.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه الهيئات تمنح دعماً جيداً بحسب لوائحها وميادين عملها الخيرية.

كما يجدر التنبيه إلى أن الهيئات المانحة ـ سواء أكانت حكومية أم خيرية ـ لا تجود بدعمها من دون اقتناع بجدوى المشروع المراد تمويله، وعليه فلا يمكن أحداً أن يتقدم بطلب دعم لمجرد الحاجة من دون مشروع تم إعداده بطريقة مقنعة وجذابة.

ولكل هيئة خيرية طريقة عمل مختلفة بطبيعة الحال. فمعظم هذه الهيئات يُدار بواسطة مجالس أمناء متطوعين، قد يكون بعضهم من عائلة صاحب الهيئة الخيرية، وأحياناً لا تربطهم صلة عائلية به، سوى أنهم متعاطفون مع أهداف وميادين عمل الهيئة.

وأحياناً قد تكون لهم أهداف ومصالح شخصية غير معلنة.

هذا ويجتمع مجلس الأمناء عادة مرة كل شهر أو كل ثلاثة أشهر لغرض تقييم طلبات الدعم والرد عليها وإعطاء التوجيهات بهذا الشأن للعاملين بالهيئة. ولهذا فيجب التأكد من مواعيد قبول الطلبات قبل إرسال أي طلب، لتوفير الجهد والوقت.

تنبيهات

قبل إعداد أي طلب للتمويل تأكد من:

ـ أن مشروعك يصب في أهداف الهيئة الخيرية نفسها.

ـ أن الهيئة الخيرية تغطي ضمن عملها منطقة خدمتك الجغرافية.

- أن الهيئة الخيرية تمنح دعماً للمنظمات وليس للأفراد.

- أنك قد استوعبت أهداف ووسائل وطريقة عمل الهيئة الخيرية وأولوياتها للتمويل ومواعيد تقديم الطلبات.

خاتمة

لا شك في أن بعضاً من العاملين في مجال الخدمة الاجتماعية يفكر في موضوع جمع التبرعات والتمويل بشكل عامّ ليل نهار، على أمل أن يجد حلاً لهذه المعضلة. ويظن بعضهم أن الأمر سهل، وأنه بمجرد ما يقوم بتعبئة الاستمارة المعنية أو إرسال الرسائل للمتعاطفين، سيعود ساعي البريد حاملاً الأخبار السارة والشيكات الدسمة.

للأسف، إن الواقع يختلف عن هذا تماماً - إلا في حالات نادرة - والواقع الآن يحتم التخصص في هذا المجال كغيره من ميادين العمل. الأمر الآخر هو أن الواقع يحتم أن يكون لكل مشروع مصدر إيراد منتظم ودائم يعود على المشروع بالنفع والاستدامة - كالوقف الخاص - بحيث يوجه القائمين على المشروع طاقاتهم وجهودهم في تحقيق الأهداف التي أنشىء المشروع من أجلها.

وأود أن أنتهز هذه الفرصة الطيبة لأحث أصحاب المعالي وأصحاب السعادة السادة السفراء والعاملين في البعثات الدبلوماسية ألا ينسوا أن دعمهم لمشاريع الجالية العربية هنا هو أصلاً رافد لا يستهان به للبلاد العربية ذاتها. فالكفاءات المثقفة والمتعلمة والخبرات التي اكتُسبت هنا ستعود على البلدان العربية بالنفع والفائدة، إذا ما أتيح لها العمل والمساهمة في تحقيق النهضة والرفاهية لأبناء الأمة وللوطن العربي العزيز.

كما أود أن أحث القائمين على شؤون هذا المؤتمر بالذات والجالية العربية بشكل عام أن يشدوا من أزر بعضهم، وأن يحققوا قدراً أكبر من التواصل والتنسيق وتبادل الخبرات الميدانية والمعلومات، وذلك لخدمة جاليتنا وأبنائنا، بغضّ النظر عن اختلاف الفكر وأسلوب العمل - إن وجد. فالهموم واحدة والمصلحة مشتركة، ولن يتم تحقيق حلم الجيل الصاعد إلا بالعمل المشترك والأيدي المتكاتفة.

البيان الختامي للمؤتمر الثالث للجالية العربية في بريطانيا

بدعوة كريمة من النادي العربي في بريطانيا، ومؤازرة من مكتب جامعة الدول العربية في لندن، عقدت الجالية العربية في بريطانيا مؤتمرها الثالث يومي السادس عشر والسابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩ تحت شعار «من أجل تعزيز دور الجالية العربية ثقافياً واقتصادياً وسياسياً».

وقد شهد المؤتمر في افتتاحه مشاركة مميزة من قبل شخصيات عربية إسلامية وإنكليزية، أكدت في كلماتها أهمية أن يتعزز الحضور العربي في هذه البلاد، وأن يزيد من مساهماته الإيجابية في الحياة العامة، وأن تتعاضد الجهود لتكوين لوبي عربي مؤثر في الحياة السياسية، وله حضوره الإعلامي، ويعكس الثقل العددي والنوعي للجالية العربية في بريطانيا.

لقد توزعت أعمال المؤتمر على أربع لجان، عُنيت الأولى بـ «الهوية الثقافية للجالية العربية»، والثانية بـ «الأوضاع الاقتصادية»، والثالثة بـ «مشاركة الجالية العربية في الحياة السياسية البريطانية»، والرابعة بـ «تنظيم الجالية العربية وتمويل برامج عملها». وساهمت أوراق العمل التي ألقيت في الجلسات الست عشرة التي عقدتها اللجان، والنقاشات التي تلتها في تناول هموم الجالية العربية في بريطانيا بشكلٍ صريح، والحديث عن طموحاتها وآمالها، وعكست مداخلات الحضور مزيداً من الشعور بالحاجة إلى إنشاء مؤسسة جامعة ترعى شؤون الجالية، وتشكل حاضناً لها، ومعيناً على تعزيز حضورها في المجتمع البريطاني.

واستشعر المؤتمرون أهمية الدور الملقى على عاتق العرب البريطانيين في إحداث تفاعل بنّاء بين حضارتهم والحضارة التي يحيون في ظلها، بما ينفي كل صراع وتنابذ، ويستوجب ذلك سعياً شجاعاً من أجل تغيير الصورة المقلقة

للإنسان العربي في الإعلام البريطاني، وتسليط الضوء على المساهمات الإيجابية التي قدمها العرب والمسلمون في التاريخ الإنساني، وأهمية أن يستعيد العرب دورهم الحضاري، ويندفعوا نحو المساهمة مجدداً في العطاء الإنساني.

إن الجالية العربية في بريطانيا، بوصفها جالية حديثة العهد في الغالب، ما زالت تواجه تحدياً، تمزج بين تراثها المكون لها، وحاضرها المستجد. وعبّر المؤتمر عن الحاجة إلى تعميق الحوار الفكري في هذا الاتجاه، وتعزيز التواصل الإيجابي مع باقي الجاليات في بريطانيا، وبخاصة الجالية المسلمة، باعتبار الجالية العربية أحد مكوناتها الأساسية.

لقد قطعت الجالية العربية، بعد تسع سنوات على عقد أول مؤتمر لها، شوطاً في وضع لبنات أساسية للانطلاق نحو بناء هيكل مجتمعي لها، وما زال أمامها الكثير لتفعله في هذا المنحى، مما يستوجب تكاتف الجهود، والتعاون المثمر بين مختلف الأطياف لتحقيق الجامع المشترك وصيانة حقوق الأجيال التالية، وتمكينها من التواصل مع سالفاتها. وفي هذا الإطار ينبغي التأكيد على أهمية وضع خريطة سكانية للجالية العربية تشرح أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية.

إن المؤتمر يؤكد أهمية الدور البنّاء والفاعل الذي يمكن أن يلعبه قطاع الشباب والطلبة في تحقيق البرامج والخطط، وإحياء الآمال وإنجازها. ويشدد في هذا الإطار على إيلاء مسائل التربية والتعليم اهتماماً استثنائياً، والالتفات إلى الأطر التي تفضي إلى تنمية الثقافة والوعي لدى الأجيال الناشئة وإعانتها على تكوين فهم واقعي وواضح عن مجتمعاتها العربية، وحثها على بناء هياكلها المؤسسية مما يساهم في تحقيق الأهداف المنشودة.

وفي سياق ما تقدم وضمن الرؤية الشاملة للواقع العربي في بريطانيا، فقد توصل المؤتمر إلى التوصيات التالية:

١ ـ لا بد للجالية العربية من أن تنظم نفسها في مجلس يدعى «**مجلس الجالية العربية**»، يكون عاماً وشاملاً ويحظى بتأييد أغلب أبنائها، ولا يشكل بديلاً عن أي تنظيم قائم، بحيث يكون المجلس مرجعية مستقلة عن أي تنظيم قائم، وعلى أن يكون للمجلس استقلال مالي وجهاز إداري متفرغ. ويتكون المجلس من أعضاء ترشحهم الجمعيات الاقليمية والمهنية والمحلية والتجمعات العربية الأخرى. ويهدف المجلس الذي هو مرجعية الجالية والممثل لها إلى تحقيق أهداف الجالية وحماية مصالحها، على أن يجتمع دورياً وفقاً لنظامه

الأساسي. ويقوم المجلس بانتخاب لجنة تنفيذية تتكون من سكرتير عام للمجلس وعدد من النواب ومساعدين له.

٢ ـ يهيب المؤتمر بأفراد الجالية العربية في بريطانيا الاندفاع نحو المساهمة الإيجابية في قطاعات المجتمع المدني والسلطات المحلية في مناطق سكناهم، والانضمام إلى المؤسسات التطوعية ذات النفع العام، والانخراط في الأحزاب السياسية، مع ملاحظة أن المشاركة في الحياة العامة يجب أن تشكل حاضناً للمشاركة في الحياة السياسية، وفي هذا الإطار لا بد من التأكيد على أهمية تأسيس وحدة خبراء تعنى بقضايا الانتخابات في مستوياتها المحلية (السلطات البلدية)، والوطنية (البرلمان) والأوروبية (البرلمان الأوروبي) تتولى مسؤولية تنظيم المشاركة العربية وتوجيهها نحو ما هو مثمر وفاعل.

٣ ـ إقامة علاقات قوية مع الجالية المسلمة في بريطانيا، ودراسة إمكانية إنشاء مجلس تنسيق مشترك، واعتبار الوشائج القائمة ذات طبيعة استراتيجية ودعوة ممثلين عن الجالية المسلمة إلى مختلف الأنشطة والفعاليات التي تقيمها الجالية العربية.

٤ ـ الاهتمام بإبراز إنجازات أفراد الجاليات العربية على مستوى بريطانيا.

٥ ـ السعي لضمان اعتراف السلطات البريطانية بالعرب كأقلية قومية، وإدراجهم ضمن الوثائق الرسمية.

٦ ـ إبداء اهتمام خاص بقضايا الطلبة والشباب، والسعي لإعادة إحياء اتحاد الطلاب العرب في بريطانيا بحيث يمثل مصالح قطاع واسع من الأجيال الجديدة في الجالية العربية.

٧ ـ العناية بتعليم اللغة العربية وآدابها للطلبة من أبناء الجالية، وإنشاء نظام ذي فاعلية يعين الناشئة على تلقي علوم اللغة بسهولة ويسر، ووضع آلية مراجعة للأدوات المعتمدة لتدريس اللغة العربية، وعقد ندوات تساعد على مراجعة وتقليب تلك الأشكال والصيغ وتطوير الناجع منها، والسعي نحو إيجاد تمويل ملائم للمؤسسات التربوية والتعليمية تخفف من العبء القائم على الأسر في تعليم أبنائها اللغة العربية في مدارس خاصة.

٨ ـ الإفادة من التطور التقني القائم في تعزيز الصلة بين مكونات الجالية العربية من ناحية، وبينها وبين مجتمعاتها الأم من ناحية أخرى، وضمان

مشاركة الكفاءات والكوادر المهاجرة في إيجاد حلول مثمرة للمشكلات التي تعانيها المجتمعات العربية.

٩ ـ تنشيط حركة الترجمة من العربية وإليها، وحث أبناء الجالية على أداء دور إيجابي في هذا الاتجاه، والعناية بما أنتجته المدنية الحديثة من علوم لها قصب السبق فيها.

١٠ ـ السعي للإفادة من الفضائيات العربية في تكوين تواصل ثقافي وروحي مميز بين الأجيال المتعاقبة في الجالية العربية والمجتمعات العربية الأخرى من خلال إنتاج برامج خاصة تكون للجالية مشاركة واضحة فيه.

١١ ـ الإفادة من شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» في ربط أبناء الجالية العربية بعضهم ببعض، مما يقضي إنشاء موقع خاص بالجالية يعنى بالتعريف بوجودها وأنشطتها وأبنائها المميزين في المواقع الميدانية والحياة العامة.

١٢ ـ يوصي المؤتمر بالدعوة إلى تشكيل رابطة رجال وسيدات الأعمال العرب في بريطانيا تتولى التعبير عن مصالحهم ومصالح الجالية العربية بشكل عام، والتأكيد على أهمية وجود دليل للأعمال والخدمات التي تقدمها المؤسسات العربية ورجال وسيدات الأعمال العرب المقيمون في بريطانيا ليصبح في متناول أيدي أفراد الجاليات العربية بهدف دعم الأواصر والمصالح المشتركة.

١٣ ـ يؤكد المؤتمر أهمية مشاركة الجالية العربية ومؤسساتها في مجال تنشيط التجارة والخدمات المتبادلة بين الوطن العربي وبريطانيا، وحث الحكومات العربية والمنظمات الأهلية على إقامة مركز لترويج الصادرات العربية وتعريف المنتج العربي بالتعاون مع غرفة التجارة العربية في بريطانيا.

فهــرس

- خ -

- د -

- ر -

- س -

- ش -

- ص -

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

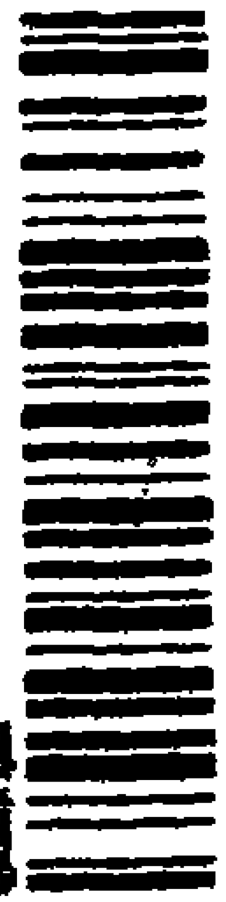
هذا الكتاب

يحتوي هذا الكتاب على وقائع المؤتمر الثالث للجالية العربية في بريطانيا الذي انعقد تحت شعار: «من أجل تعزيز دور الجالية العربية ثقافياً واقتصادياً وسياسياً».

لم تنصرف أعمال هذا المؤتمر إلى الخطب المطولة بغير هدف، بل كان مناسبة لإعمال الفكر في أوضاع الجالية العربية في بريطانيا ومناقشة المشكلات التي تعانيها على مختلف المستويات ومحاولة للتطلع إلى المستقبل انطلاقاً من تشخيص الواقع الراهن.

يتضمن هذا الكتاب أربعة أقسام، تناول الأول «الهوية الثقافية للجالية العربية»، والثاني «الأوضاع الاقتصادية»، والثالث «مشاركة الجالية العربية في الحياة السياسية البريطانية»، والرابع «تنظيم الجالية العربية وتمويل برامج عملها».

تهدف الدراسات المنشورة في هذا الكتاب إلى تعزيز اندماج الجالية العربية في محيطها البريطاني بشكل يجعل منها جالية مؤثرة، وفي الوقت نفسه إلى تعزيز الروابط مع الوطن الأم ثقافياً واقتصادياً.



الثمن

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور»، شارع ليون، ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٩٠ ١١٠٣ ـ لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

ISBN 9953-431-20-5

